

رواية  
لبصير نور الدين

الحقيقة المطلقة



2018

من أنا و من أين أتيت ؟  
أنا إنسان أتيت من أمي و أبي  
من أين أتى الإنسان ؟  
من الأرض  
من أين أتت الأرض ؟  
من الكون  
من أين أتى الكون ؟  
من الانفجار العظيم  
من أحدث الانفجار العظيم ؟  
الذي أوجدك  
من أنا ؟

في وقت سابق أنا فرانسوا روسو ، الآن  
أنا أحمد بن باديس ، و غذا لست أدري  
من سأكون ، كنت مجرد شاب يبحث عن  
الحقيقة ، و اليوم بعدما شيبتني الحقيقة و  
جدتني أرجع الى سؤالي الأول ، من أنا ؟  
فكل شيء نسبي ، ما عدا الذي أوجد  
الوجود .. هو الحقيقة المطلقة

lebsirnouredine@gmail.com

## اهداء

كانت لي أم، تخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام كلما رأته  
مهموماً، و كانت تصدقني دائماً، إلا في تلك المرة الأخيرة... لا شيء  
على ما يرام منذ ذاك

للحظة اغتررت بنفسي و أحسست أنني كاتب ، أكتب عن تجربة فريدة ، أحسست أنني عرفت الحقيقة المطلقة، لكن حين طلب مني كتابة اسم الكاتب تذكرت أن كل ما فعلته هو ترجمة سيرة حياته من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية لأرسلها الى لجنة القراءة الخاصة بدار النشر

لم أشعر بتأنيب الضمير حينها، لكني أشعر الآن أنني سارق لملكية فكرية

هذه ليست مجرد مخطوطة، لقد جعلتني أجول العالم دون معاناة طلب التأشيرة، جعلتني أعي أن العالم أكبر مما أراه، أكبر مما أتوقعه، أكبر من قدرتي على تخيله، جعلتني قراءتها أعيش تجربة لم أحلم بخوضها في بعض فصولها أحسست أن اسمي فرانسوا، أو أحمد، لكني استنقت و أنا أنوي النقر على خانة "ابعث" الى أنني لست ذلك الرجل الغامض، مع أنني عشت أفكاره لمدة تزيد عن السنة

لو استطعت أن أكتب اسمه لفعلت، لكني لا أعرفه و ليس لدي أدنى فكرة عنه إلا ما عرفته من كتاب يومياته، و لم تكن الدار لتقبل وضع اسم شبح على غلاف رواية

ان كنتم تقرؤون الكتاب فهذا يعني أنني خنت مبادئني و استوليت على ملكية فكرية ؛ في سبيل تحقيق ما طلبه مالکها الحقيقي في آخر المخطوطة

...

## السؤال

ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل  
ولكن الخير كذلك  
و بأنه مخالف  
و لكن الحق كذلك  
و بأنه محير  
و لكن الحسن كذلك  
و بأنه كثير التكاليف  
ولكن الحرية كذلك  
-مصطفى صادق الرافعي-

لطالما سألت نفسي كيف وجدت في هذه الدنيا؟ قد يبدو سؤالاً غيبياً عند بعض الأذكىاء و لكن ليس بالنسبة لي، خاصة و أن كل من سألته هذا السؤال أجابني كل الأجوبة الممكنة على حسب عمري عند طرحه إلا الجواب الذي قد يشفي غليلي..

وأنا صغير كانت أمي تجيبني بأني أتيت من بطنها و كنت أسألها أن تريني كيف خرجت و كانت المسكينة تقول لي إن بطنها فتح و خرجت أنا منه ثم أغلق و التأم الجرح و هذا كل ما في الأمر.. لم أقتنع بهذا يوماً إلا أنني أتوقف عن طرح الأسئلة لما أرى علامات الإحراج على وجهها، كان واضحاً أنها لن تذهب الى أبعد من هذا الجواب

في المدرسة المتوسطة كان جواب أستاذة العلوم الطبيعية أكثر جرأة حيث أفهمتنا أنه من أجل أن تحمل الأنثى لا بد من عملية الجماع بين الذكر و الأنثى حيث ينتج عن هذه العملية التقاء الحيوان المنوي للذكر مع بويضة المرأة من أجل إنتاج فرد جديد أو أكثر.. ولكن سؤالني في هذه الفترة كان أكثر تعقيداً لأنني أردت معرفة كيف وجدت أنا كإنسان في هذه الدنيا و ليس أنا كفرد و كانت المعلمة تجيبني أن هذه معضلة فلسفية وضع فيها المفكرون و رجال الدين عدة نظريات ..

في الثانوية جاء جواب أستاذ العلوم التجريبية بتبني نظرية التطور أو نظرية الإنتقاء الطبيعي للعالم البريطاني الشهير "داروين" والتي تقول أن أصل الأنواع أصل واحد و هو أول خلية تكونت على سطح الأرض مكونة أحادية الخلية، و هذه بدورها تطورت و أعطت كائنات متعددة الخلايا، و التي بدورها تطورت و أعطت كائنات متعددة أكثر تطوراً و هكذا حتى ظهرت أنا الإنسان.. و لكن سؤالني أصبح أكثر صعوبة و تحول إلى كيف وجدت أنا كحياة بيولوجية أي كيف تكونت الخلية الأولى خاصة بعد أن درسنا البنية المعقدة جداً لأبسط خلية حية، بل لأبسط بروتين يكون الخلية، بل لأبسط بيبتيدي يكون البروتين..

من أجل هذا اخترت أن أدرس البيولوجيا في جامعة باريس ،فقط من أجل إطفاء لهيب البحث عن الحقيقة و الذي أحرق فضولي ..هناك أخبروني أن الأرض و في مرحلة ما قبل ملايين السنين من الآن كانت في أهبة الإستعداد لإستقبال الحياة، نظرا لتوفر كل ما هو ضروري لها، فقد كان الماء و هو العنصر الأساسي للحياة، و كان التراب بما يحتويه من عناصر معدنية، و كان الغاز أو الجو بما يحتويه من كربون لإنتاج المواد العضوية و آزوت لصنع البروتينات و كان ضوء الشمس معتدلا ما يتيح عملية التركيب الضوئي من طرف الخلايا الأولية و الأوكسجين متوفر للسماح بالتنفس ..ولكن لم يجب هذا عن سؤالي الذي تطور الى :كيف تكونت هذه الأرض بكل هذه المواصفات المناسبة جدا للحياة خاصة و أننا نعلم اليوم بفضل العلم أن كوكبنا هو الوحيد الحي من بين كل كواكب مجموعتنا الشمسية درب التبانة و هم تسعة كواكب باحتساب كوكب بلوتو الذي أخرجه مؤخرا من لائحة الكواكب و أن مجموعتنا الشمسية ليست أكثر من ذرة غبار في كون غير متناهي الأطراف...

كلما أسأل أبي فيليب و هو أستاذ و باحث في مجال الفلك و الفيزياء و محاضر بعدة جامعات عن السر وراء وجود كون بهذه الدقة و هذا الإبداع تظل دقته تحير عابرة العالم و جهابذة العلماء يجيبني بمحاضرة يحفظها عن ظهر قلب من كثرة ما ألقاها حول الانفجار العظيم THE BIG BANG التي لا أراحا شرحا لوجود الكون بقدر ما أعتبرها لغزا يحتاج الى تفسير هي الأخرى لأنني لم أستطع تخيل انفجار بهذه القوة لشيء يبلغ طوله أقل من طول بلانك و سرعته أعلى من سرعة الضوء وحرارته عند الانفجار تتعدى حرارة بلانك يأتي بكل هذه المادة الموجودة في الكون و نحن نعلم اليوم أنه لا يوجد فراغ في الكون كله بل كله مملوء بالمادة...

عندما أسأل أمي سارة و هي فنانة تشكيلية و أستاذة للفنون و مؤمنة  
مخالصة تخبرني أن العلم لا يخبرنا عن الصانع و لكنه يخبرنا عن  
طريقة الصنع، و أما الصانع فهو الله.. أسألها أي الله تقصد الأب أم  
الإبن فتجيبني بل الأب لأن هذا كان قبل أن يأتي عيسى.. ثم تخبرني  
عن الأيام الستة للخلق و كيف أن الله ذهب ليسترخ في اليوم  
السابع... حقيقة أحب أمي جدا و لكني أراها تخرف في كل ما يتعلق  
بالدين...

## فرنسا

النفس أيها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهة  
و تعود اليها مريدة  
الضمير قاض عادل ضعيف  
و الضعف واقف في سبيل تنفيذ أحكامه  
-جبران خليل جبران-

اسمي فرانسوا روسو ، واضح من الإسم أنني فرنسي ، أقطن باريس منذ صغري ، أمي تدعى سارة و هي فنانة تشكيلية ، تدرس الفنون الجميلة بجامعة باريس ، انها أجمل و أطيب امرأة على وجه الأرض ، أحب أن أغضبها أحيانا كأن أقول لها بأنها لا تصلح لمهنة التدريس و خاصة عند التطرق الى لوحات تظهر مفاتن المرأة أو رجولة الرجل أمام حضور الطلبة فتحمر وجنتاها و تدافع عن نفسها بأن تقول أن ذلك فن و أنني لو رأيت أكثر من ذلك فإنها تتصحني بأحد اصدقائها النفسيين ، فأضحك بدوري و أجيبها بأنه لا بأس إن كانت النفسية امرأة جميلة ، أنا لا أو من كثيرا بالأطباء النفسانيين فهم مجرد أصدقاء و مستمعين جيدين مقابل مبلغ مالي ، أما أنت أمي فأنت صديقتي بدون مقابل ..قلت هذا و أنا أحضنها و أقبلها على خدها الذي عاد اليه الإحمرار ، أبعدتني بيدها بحركة مسرحية و الابتسامة تعلو شفيتها الرقيقتين و الحنان يرتسم على عينيها الزرقاوين الذابلين ..سألتني :جديا ، ألم تستفد من جلساتك مع الدكتورة "هيلين" ؟  
أجبتها:

- جديا أمي مما أعاني و لما أعالج؟

-من كوابيسك المتكررة

- أتعلمين يا أمي أنني أصبحت أحب كابوسي لأنه يمكنني من رؤية ذلك الوجه الجميل المتكرر في كل مرة.

- مازلت تراها؟

-نعم أمي نفس الوجه الجميل، نفس الملامح الحزينة، أراها تحمل طفلا بين ذراعيها و تجري خوفا من شيء ما يلاحقها، تجري و الدموع تنهمر من عينيها بغزارة، يخيل إلي في المنام أنني أنا الطفل و أنها تحميني من خطر ما ، أراها تضميني بقوة و تنظر الى وجهي كلما توقفت لتلتقط أنفاسها ثم تبتسم لي و تقول لي لا تخف كل شيء على

ما يرام، أكثر ما أشتاقه في هذا الحلم هو تلك الابتسامة و أكثر ما يطمئنني في حياتي حتى في الواقع هو كلماتها ،لا تخف كل شيء على ما يرام..

- أخرجتني أمي من خيالي بعدما سرحت ربما لوقت غير قصير  
سائلة: ثم ماذا ؟

-لا شيء، كالعادة مجرد خوف من لا شيء.

- ما زلت ترسمها؟

- نعم أمي كلما اشتقت الى الرسم ..ثم قلت مزاحا :ألا تغارين لأنني  
أرسمها و لا أرسمك؟

-بل أغار لأنك أصبحت تشناق لرؤيتها..

-لا تقلقي عزيزتي ،سأغادر البيت قريبا و سنتالين حصتك من  
الشوق..

تعالت أصواتنا بالضحك لما التحق أبي بنا في المطبخ و جلس الى  
الطولة و قال:

- أضحكاني معكما فقد أفقدتني المعادلات الرياضية الحس الفكاهي..  
تجرات و سألت أمي:

- هل كان أبي يملك حسا فكاهيا من قبل ؟

وضعت أمي كوب القهوة قرب أبي ،مسحت على شعره بيدها ،ثم  
تبسمت و قالت:

- هذا ما قيل لي...و انفجر ثلاثتنا ضحكا.

ابي فيليب روسو أعتبره قدوة في الجد و العمل، يعشق الرياضيات و  
يتعاطاها حد الثمالة لأنها كما يقول توسع خياله لرؤية الكون بحواس  
غير حواس الإنسان العادي ،فهي حسبه تفتح أعين جديدة داخل  
العقل، أعين لا تعتمد على الضوء للرؤية ما يمكنه من رؤية متحررة  
من الزمن..أعلم أن الأمر يحتاج شرحا أكثر و لكن سيأتي هذا في

أوانه..أبي أحد علماء الفلك، و له مكانة مرموقة في الوسط العلمي، وخاصة بجامعة باريس أين يدرس بعض المقاييس ،و في الحقيقة لقد نلت أنا بنفسى قسطا لا بأس به من الاحترام خلال مسيرتى الدراسية لأنى ابن العبقري روسو ،بل و لعل هذا سبب قبولى فى مخبر للبحث العلمى بنىويورك ...

سألنى أبى:

- هل قرارك نهائى؟ أتريد الذهاب الى الولايات المتحدة الأمريكية فعلا؟

- طبعا أبى ،انها فرصة لا تعوض، انك تعلم أنى تحصلت على شهادتى الجامعية لتوى، و ليس لى أى خبرة عملية مع هذا فقد قبلونى من بين الكثير ممن لهم خبرات لا بأس بها.  
قالت أمى:

- لم أستوعب بعد أنه حان اليوم الذى ستقيم فيه تحت سقف غير سقفنا، لا أدري ان كنت سأطبق بعدك.  
ضحكت و قلت:

- ألا تعلمين يا أمى أن أصدقائى يسخرون منى لأنى الوحيد الذى أقطن مع والدى و أنا فى عمر الخامسة و العشرين.  
سألنى أبى:

- ماهى المعايير التى حددها للقبول فى هذا المختبر؟  
- الى جانب الشهادة العلمية فى أحد الاختصاصات كالبولوجيا، الفيزياء، الرياضيات، الكيمياء ، على المترشح أن يمتلك ثقافة عامة عالية فى كل الاختصاصات السابقة الذكر بالإضافة الى معرفة كبيرة فى الفلسفة و الفنون و علم اللاهوت .

قال أبى :

- و من أين لك بكل هذه الثقافة؟

- أما البيولوجيا فأنت تعلم أنني مختص بالهندسة الوراثية، و أما الرياضيات و الفيزياء فأنت صاحب الفضل فمحاضراتك لي و أنا أسألك عن خلق الكون لم تذهب سدى، وفي ما يخص الفنون فأني أعيش مع أجمل فنانة في الكون و أما الفلسفة فلأني كثير المطالعة و أما علم الأديان فما يتعلق بالمسيحية فمن أمي خاصة و ما يتعلق بالدين الإسلامي فمن خلال بعض الدردشات من هنا و من هناك خاصة مع السيد ابراهيم.

سأل أبي:

- من السيد ابراهيم؟

ردت أمي :

- انه جارنا البقال، انت تعلم أنه عربي.

- طبعا يوجد عربيان في حيننا دائما الشجار مع بعضهما و كأنهما عدوان، أحدهما يدير محلا لقد عرفته

قلت:

- انهما جزائريان و يبدو أنهما مختلفان ايدولوجيا

- ككل العرب و المسلمين لكل فرد منهم رأي يختلف عن الآخر ما يعني وجود أكثر من مليار رأي لا يتقبل أي منهم الآخر

قالت أمي:

- يبدو أن السيد ابراهيم قد شارك في الثورة الجزائرية ضد فرنسا في حين أن السيد عمار كان في صف فرنسا و لهذا فكلاهما يرى الخيانة في الآخر

- و كلاهما يعيش في حوض فرنسا، شعب لا منطلق له.

- حسنا اذن علي أن أخرج الآن فأنا على موعد مع أصدقائي من أجل التسوق و التحضير لرحلتي

سأل أبي:

- ألا تحتاج بعض المال؟

- لا أبي شكرا، لازلت أدخر القليل، ثم إنني بعت سيارتي فلن أحتاج إليها بعد ذهابي

خرجت أتمشى و أتمعن شوارع باريس المميزة و كأني أودعها، مدينة الجن و الملائكة، مدينة الشعر و الفنون، مدينة التاريخ و التنوع الثقافي، أجلس الى قدم برج ايفل و أتفرج على وجوه السياح محاولا رفقة آرثر و صوفي تكهن جنسيات الأجانب، من السهل معرفة بعض الأجناس كالصينيين و الهنود و العرب و الأفارقة  
قالت صوفي:

- لو حاولت تكهن جنسيتك فرانسوا قبل أن أعرفك لظننتك من أحد بلدان المغرب العربي تونس أو الجزائر أو المغرب نظرا لسمرتك و شدة سواد شعرك

- رغم أنني أخضر العينين؟

- نعم يوجد الكثير من المغاربة يمثل هذه المواصفات.

- أما أنا فكنت لأظنك من لندن نظرا لبياض بشرتك و الاحمرار المضحك على خديك و من لون شعرك المائل الى البرتقالي..

قاطعني آرثر ساخرا :

- ومن من مؤخرتها المكتنزة، هل خجلت من أن تقول لها الحقيقة ؟.. و قهقهه ضاحكا

بعد ابتسامة ساخرة ردت عليه صوفي:

- آه منك أنت فلو أردت تكهن جنسيتك لظننتك من منطقة نائية من غابة الأمازون حيث لم تصل لياقة الكلام..

خيم الصمت بعد هذه الجملة فثلاثتنا فكرنا في نفس الشيء.. عقدة آرثر تبدلت نبرة آرثر و قال بصوت تملؤه الغلظة :

- ربما صوفي، ربما أنا من هناك لا أدري و لكن هناك شيء أنا متأكد منه هو أن أبي و أمي لم تصلهما حضارة استعمال الواقي ،و إلا لما أنجباني و تركاني لقدري  
أردت المزاح للتخفيف عنه:

- على الأقل أنت الوحيد بيننا من تظهر عليك الجنسية الفرنسية من ملامحك..

رد آرثر:

- كنت أفضل أن أكون من أسوأ بلد ممكن و معروف الهوية و الوالدين على أن أكون نكرة لا أصل له ...سرح آرثر برهة و عيناه الزرقاوان ينظران الى الأفق ،يملؤهما بريق الدمع، كانت الشمس تنعكس من فوق شعره لتظهره كخيوط الحرير الذهبي و الحزن يحجب جماله الفريد ثم قال : لو كنت أنا الله لمنعت كل علاقة خارج الزواج و لعاقبت كل من يقوم بها و حملته مسؤولية جريمته، أم أنكم لا ترونها جريمة؟

قالت صوفي بعدما اقتربت أكثر من آرثر و أمسكت يده:

- تعلم جيدا آرثر أننا أصدقاؤك و ستجدنا أنا و فرنسوا بجانبك دوما ،أعلم أنك تعاني من عدم معرفة والديك الحقيقيان، و لكن هذا ليس عذرا يجعلك تحقد على كل علاقة خارج الزواج، أنت اليوم في عالم متقدم لا يعتبر فيه الزواج أكثر من إجراء إداري ينظم بعض الحقوق و الواجبات ليس إلا ،أنت و قليل جدا من الشيوخ و العجائز مازلتم تؤمنون بقدسية الزواج كما تؤمنون بأن الله سيرتك كل مشاكل العالم من حروب و مجاعات ليرعاك أنت و زوجتك أليس كذلك فرانسوا؟

- في الحقيقة أنا لا أستطيع تخيل وجود اله يرى كل هذا الشر المتواجد في الأرض من دون أن يتدخل، أتابع الأخبار كل يوم و أرى ما يحصل في العالم الثالث من حروب و فتن و تهجير و قتل و سفك

للدماء، و ما يحدث في افريقيا من اقتتال و مجاعات زيادة على الأوبئة و الجفاف، يحدث كل هذا باسم الله، اعذرني صديقي و لكن لا تنتظر منه الكثير مع أني أوافقك تماما على ضرورة تحميل المسؤولية لكل من أخطأ

- بلى يا فرانسوا و يا صوفي، الله موجود، لا أعلم كيف و لا أعلم أين و لكنه حق، حين كنت في مركز تربية اليتامى كنت أخرج خلصة من الغرفة كلما أحسست بالوحدة و الضعف، أصعد الدرج بصمت حتى ألحق الى سطح البناية و عندما أتأكد من أني وحدي، أبكي و أبكي حتى تجف عيناى من كل مائهما ثم أنظر الى السماء و أتمعن النظر في النجوم و في الكون المظلم المحيط، أتأمل في شساعة الوجود و في اتزانه، أدقق في حركة النجوم و في مداراتها التي لا تخطئ، فأتيقن من وجود الله، ربما ليس نفس الإله الذي يتكلم القس باسمه في صلاة الأحد، ولكنه موجود لأنى أحس بهيبته في كل ما يحيط بي من خلق، في الحجر و الشجر، في الحيوان و النبات، و حتى في نفسي، أحس أن كل شيء يخضع لإرادته وفق قوانين طبيعية خلقها و أخضع لها كل شيء، هذه القوانين الفيزيائية التي ندرسها اليوم أحسها من صنعه، و عندما أحس بوجوده أطمئن و يهدأ روعي و أستكين ثم أدعوه في سري، أتعلمون ماذا كان دعائي في كل ليلة؟

نظرنا أنا و صوفي الى بعضنا في استفهام فأجابنا من دون أن ينتظر ردنا:

- أنتم

- تعجبت صوفي و سألت من نحن؟ أنا و فرانسوا؟

- أنتما و سارة و فيليب، أنتم الأربعة

تعجبت أكثر و سألته

- لكنك لم تكن تعرفنا؟

- نعم لكني كنت أسأل الله بأن لا يلاقيني بأبوي البيولوجيين لأنني قد لا أستطيع مسامحتهم ما سيزيد من كرهني، و سألته بأن يعوضني بعائلة أحسن منها تتكون من أب و أم و أخ و أخت ..ثم فتح آرثر يدها و كأنه على خشبة المسرح مبتسما و قال :ألا ترون أنه موجود؟ و ضمنا أنا و صوفي الى حضنه؟

أقامت أمي حفلة صغيرة على شرفي قبل مغادرتي بيومين، طبعا كنت أنوي الاحتفال في بار مشهور بحفلاته الناجحة لتكون ليلة حمراء لا تنسى و لكن آرثر رفض الفكرة متعللا بكونها حفلة توديع بيت الأبوية و ليست حفلة لتوديع العزوبية..لم ندعوا الكثير من الضيوف، فقط نحن الأربعة ،بعض أصدقائنا من الحي ،بعض أصدقاء أبي من الجامعة، بعض الفنانين من أصدقاء أمي و لا أدري كيف حضر جارنا ابراهيم الذي كنت أحترمه جدا و لكن ليس لدرجة دعوته الى حفلة منزلية، كان يبدو تائها وسط الضيوف كما لو أنه في كوكب لا ينتمي اليه و عرفت من حركاته أنه يبحث عن شخص ما فاقتربت منه مبتسما و مرحبا:

- يا لها من مفاجأة سيد ابراهيم أهلا و سهلا في بيتنا  
فرد بلهجة من وجد ضالته:  
- أخيرا أنت هنا بني كنت أبحث عنك، في الحقيقة أخبرتني أمك أنك ستغادر بعد يومين الى أمريكا، و فكرت أن أودعك  
- شكرا جزيلا سيد ابراهيم أنها مفاجأة سارة لم أتوقعها، تعلم أنني سأشتاق الى محادثتنا  
- تعلم يا بني أن لي ابنان أقل ما أستطيع أن أصفهما به أنهما غير صالحان  
قاطعته قائلا:

- لا يا سيد ابراهيم انهما شابان ككل شباب عصرنا و لكنه أوقفني بإشارة صارمة بيده وواصل بصرامته المعهودة

-لا فرانسوا أنت شاب صالح من هذا الجيل رغم أنك تشرب الكحول و تخالط النساء لكنك صالح حسب مجتمعك الفرنسي لأنك بار بوالديك، لأنك اتممت دراستك الجامعية، لأنك لا تفعل ما ينهى عنه قانون بلدك، و الأهم أنك دائم البحث عن الحقيقة، وهذا في رأيي هو أهم و أجمل ما يجعل منك انسانا رائعا، هذه مقومات لا تتوفر في غالبية شباب اليوم و تمنيت أن أرى ولداي بشيء من هذا و لكنهما اختارا طريق المخدرات و السجون..سكت هنيهة ثم واصل: لست هنا لأفسد عليك فرحتك بل جنئت أخبرك أنني سأشتاق اليك و سيشتاق الحي كله الى حيويتك و بسمتك الصباحية، و أتيتك بهذا الكتاب لأنني أعرف شغفك بالحقيقة، و هذا الكتاب يحتوي الحقيقة و لا شيء الا الحقيقة، فكل كتاب غير هذا يحمل بين طياته أخطاء إلا هذا الكتاب فهو الحقيقة و هو المرجع..أرجوا أن يهدي الله قلبك إليه

أحسست بقشعريرة تسري على جسدي لما قال أن الكتاب يحوي الحقيقة و لا شيء غير الحقيقة و هممت بأن أسأله عن ماهية الكتاب الا أنه في هذه اللحظة وقف معنا أبي و أصدقائه الأكاديميين من أجل تهنئتي على نجاحي في الظفر بمنصب علمي مهم في أحد أكبر مخابر أمريكا تطورا في مجال البحث العلمي و انسحب سيد ابراهيم خلسة كما دخل ..

انزويننا أنا و آرثر في زاوية نحتسي بعض الشراب و نتحدث عندما لحقت بنا صوفي مع صديقها الجديد معلقة

- فرانسوا لو أنك أقيمت الحفلة في البار لكان أمتع، أحس أنني وسط الحرم الجامعي مع وجود هذا الكم من الأساتذة.

-تعلمين صوفي أن امي و أبي من نظما هذا الحفل ،أظنهما يريدان  
الافتخار قليلا أمام زملائهما لكن لا عليك سنرتب لحفلة أخرى غدا،  
فقط لا تخبري أمي كي لا تظن أننا لم نستمتع بحفلتها.

بينما أتكلم مع صوفي ظل آرثر ينظر الى صديقها بازدياد و كنت  
أتمنى أن يتوقف عند هذا الحد و لكنه نطق ليفسد جوهاما قائلا

- ألا تقدمين لنا صديقك صوفي؟

فرد الضيف و التضايق يعلوا وجهه:

- عفوا أنا جاك و مد يده ليصافحنا

صافحته بدوري مرحبا به و نظري على وجه صوفي الذي يعلوه  
الغضب ثم مد الضيف يده الى آرثر ليمسكه هذا الأخير بكلتا يديه في  
ترحيب مبالغ فيه :

- آه ، ألسنت زوج مارغريت أم أنك تشبهه فقط؟

رد عليه الضيف بلهجة شديدة :

- نعم أنا زوجها ،و أنت ألسنت محاميها؟ ..ثم رجع خطوة الى الوراء  
و توجه الى صوفي بالكلام: عذرا عزيزتي لكن لا يمكنني البقاء هنا  
أكثر فالمكان ضيق و التلوث يملؤه ..بقالها و شرارة الغضب تخرج  
من عينيه مهددة آرثر، ثم توجه نحو الباب و صوفي تتبعه جريا  
محاولة تهدئته لترجع بعد هنيهة و تلقي جام غضبها على آرثر

-قل لي ماذا أصابك؟ أتغار لأنك لا تستطيع ايجاد صديقة؟،أم أنك  
تحتاج الى طبيب؟ و لا أقصد طبيبا نفسيا بل طبيبا مختصا في  
الأعضاء لعله يجد سبب عقدتك

رد آرثر بنفس الغضب الساخر:

- و أنت ألا تستطيعين ايجاد رجل أعزب أم أنك تحتاجين الى مساعدة  
من طرف طبيب نفسي؟

زاد هذا الكلام من حنق صوفي:

- و ما دخلك أنت ان كان متزوجا أم أعزبا ،أنا و أنت و هو نعلم أنها مجرد علاقة عابرة

رد آرثر:

- لكن زوجته و أولاده لا يعلمون

بعدها ارتفع صوتهما قليلا في القاعة اذ بهيلين تظهر فجأة بيننا، و ما أن ظهرت حتى أحسست بدقات قلبي تتسارع و دخلت في دوامة الذكريات الممتعة، انها طبيبتي النفسية و أول عشيقه لي، امرأة رغم سنها تتمتع بجسد رشيق يملؤه الشباب و الرغبة، جذابة بطريقة تجعل الرجال يتسارعون نحوها قصد الظفر بمصافحة أو ابتسامه، ..طبعا لا أحد غيري يعلم بقصة علاقتنا لأن أمي المسكينة تظن أن ما بيننا لا يتعدى علاقة اختصاصية نفسية بمريضها، ليست مخطئة كثيرا أمي غير أن الأدوار قلبت لأجدي أنا الطبيب و هي المريضة..علاقتنا كانت جنونية فبعد أن اكتشفت أن زوجها يخونها تطلقت منه و بقيت وحيدة، و رغم وجود عروضات كثيرة الا أنها فضلت البقاء على حالها ، تزامن هذا مع لقاءاتي الأولى معها لتعالجني من كوابيسي المستمرة، إلا انها بعد جلسات قليلة أصبحت لا تقبض الثمن عن أمي بحجة أنها تعلقت بي و أنني أشكل اهتماما شخصيا لها و تحديا ،ثم بدأت بفتح كل جلسة بالحديث عن مشاكلها الزوجية في الفترة السابقة لكشفها الحقيقة و تتحدث كيف كانت تشتاق الى زوجها الذي هجر مضجعا ،ثم و بعد جلسات قليلة بدأت تخبرني أن جسمي يكبر عمري بكثير و أنني أبدوا صاحب ثمانية عشر سنة في حين أن عمري آنذاك لم يتعدى الخامسة عشرة ،بعد عدة جلسات تمهيدية من طرف الأخصائية وجدنتي أغرق في لذة لم أكن أعلم لها وجود، كان الإحساس كالصاعقة، لم أظن يوما أن احساسا كهذا مسجل في قاموس الأحاسيس الإنسانية، كانت أول قبلة، و أول ذوبان في حنان

امرأة، و أول رؤية واضحة لأجمل هندسة ، كانت صدمة ما بعد الانتعاش، في لحظة أحسست أن ثقلي كله يهجرنى الى مركز الكتلة التي تشكلني، و أن دمي يتجمع ليقوم بأمر مهم كنت أجهله، لأول مرة في حياتي أحسست بأن عقلي حجب عني، و أني لم أعد أتحم في نفسي، فقدت السيطرة تماما و كأني مخدر بجرعة رغبة مفرطة، بلذة مسكرة، فجن عني الوعي و لم أعد أرى سوى جمال هيلين الخارق، بوجه أبيض متجمر بلهيب انمداد الشعيرات الدموية، و ذرات العرق المعطر برائحة الهرمونات تتلألأ كالكريستال على رقبتها الطويلة، و شعرها الذي اختار تسريحة فوضوية بلون الذهب الممزوج ببياض الخبرة. كانت هيلين في هذه اللحظة و في سنوات بعدها المرأة المعرفة بالألف و اللام و كنت منذ ذلك اليوم رجلا بعد أن غدرتني هذه المحتالة في براءتي و أيقظت الوحش الدفين في داخلي، هي علمتني سرا مهما من أسرار الطبيعة، ثم رافقتني كنفسية لتحول انفعالي مما حصل معي الى تجربة ايجابية كان لا بد لي أن أخوضها في تلك السن بالتحديد من أجل اجتناب أن أصبح غريب الأطوار..

وصلت هيلين و أمسكت بمرفق آرثر و كأنها خطيبته و قالت له:

- تنقصك بعض الدروس في كيفية التكلم الى الشابات الوسيمات يا عزيزي ..ثم نظرت الي و تبسمت ابتسامة خبيثة بعض الشيء مرفقة بغمزة سريعة بعينها و أردفت: مع أنكم أصدقاء فرانسوا على ما يبدو، ألم يلتقنكم شيئا من لباقتة و حسن تصرفه..

قدمتها لصديقي على أنها طبييتي النفسية و أنها صديقة أمني أيضا ثم سألتني أن تقوم بجلسة سريعة لتتأكد من أني مستعد لرحلة طويلة و الى حياة جديدة و طبعاً لا يمكن لجلسة طبية أن تتم وسط الملأ...

اليوم قبل الأخير، عزمت آرثر و صوفي لمشاهدة عرض كوميدي من تقديم الفكاهي ديودوني و لكن للأسف تفاجأنا بمنعه من اعتلاء الخشبة..سألنا عن السبب قرب شباك التذاكر فأخبرنا أحدهم أنه تم الإلغاء لأسباب أمنية، لأن هذا الكوميدي مضاد للسامية و أن مسرحياته تحتوي خطابات تحريضية

قال آرثر بنبرة غضب:

- ماذا تقصد سيدي؟ هل اذا استمعت له سأقوم بعدها بتفجير نفسي مثلاً؟

رد عليه موظف الشباك:

- أنا أنفذ الأوامر سيدي إن كنت تريد تحرير شكوى فمصالح البلدية ليست بعيدة من هنا..  
قلت متعجباً:

- ماذا حصل لحرية التعبير في بلد يعتبر العلمانية مبدأ؟

ونحن نتكلم نطق شاب ثلاثيني ملتحي يقف بالقرب منا و قال بنبرة غاضبة:

-حين يسيؤون الى المسلمين برسم نبيهم في أبشع الصور الكاريكاتورية و يتهمونهم بالإرهاب يقولون حرية التعبير، و لكن حين يتكلم فنان مسرحي كوميدي عن اسرائيل و هو يعتلي الخشبة يقولون عنه محرض..،هذا هو الوجه الحقيقي للعلمانية ..

لتأخذ الكلمة امرأة بيضاء يكسوا شعرها بياض الخمسين عاما موجهة كلامها للملتحي:

-نعم سيدي نحن دولة لائكية و نعتبر حرية الأفراد من مقومات فرنسا، بل و نحن الأسبق في العالم الى احترام الحريات، و لكن لا بد من تقييد كل خطاب يدعوا الى الكراهية و العنف من أجل الحفاظ على النظام..

رد عليها الثلاثيني مستعينا بكلتا يديه في الشرح و كأنه يخاف أن تخونه الكلمات:

- لقد حرصتني صور الكاريكاتور و أغضبني الفيلم المسيء للرسول محمد و قد جرحتم مشاعر أكثر من مليار مسلم في العالم فلم لا توقفون هذه التجاوزات؟

برهة تفكير استهلكتها البيضاء لتقول:

- هذا فن و ليس للفن حدود، انه لا يحرص على العنف

- و عرض ديودوني أليس فنا؟ و كل هذه الأعمال الإرهابية أليس سببها التحريض الناتج عن ما تسمينه فنا؟ كفاكم كيلا بميزانين، إما أن تقبلوا كل الآراء أو أن ترفضوها كلها.

في هذه الأثناء تقدم شرطي منا و قال بصوت مسيطر و يدها تمسكان حزامه في حركة زعامة:

- هل من مشكلة هنا؟

قلنا جميعا:

- لا مشكلة سيدي كنا نتحدث فقط..

في الحقيقة لا أعرف كثيرا عن الإسلام، و القليل الذي أعرفه عن المسلمين لا يستهويني البتة، و لست مهتما بالديانات كلها بل إنني أظنها من أحد الأسباب الأساسية لتخلف الإنسان، و لكن هناك سؤال أثار فضولي.. لما يغضب المسلمون جدا اذا ذكر رسولهم رغم أنه قد مضى على وفاته ربما أكثر من عشر قرون؟!.. سألت نفسي هذا السؤال بهمسة وقعت في أذن آرثر ليدقق معلومتي:

-بل أكثر من أربعة عشر قرنا، و مازالوا يحبونه و مستعدون للموت من أجله..

علقت صوفي ساخرة:

- لأنهم حمقى، مات الرجل و تحلل و أصبح ترابا و هؤلاء المتخلفين يقتتلون و يقتلون من أجله، أرجوكم دعونا من هذا الحديث الممل و لنذهب الى حانة ما و نحتفل احتفالا شبابيا ،لأن احتفالك السابق فرانسوا!..أعتذر و لكني ضقت درعا منه  
في حركة أستاذ قال آرثر و هو يرفع سبابته و كأنه يلقن صوفي درسا:

- للتصحيح فقط، شئنا أم أبينا محمد رسول المسلمين رجل كبير بكل المقاييس، و قد صنفه مايكل هارت صاحب كتاب الخالدون المائة أول رجل مؤثر في تاريخ البشرية، و قد نظم فيه أديبنا الكبير فيكتور هيغو شعرا رائعا يحمل عنوان "العام التاسع من الهجرة" ،و شهد له الكثير من الفلاسفة و المفكرين الأوروبيين بالعبرية، و مثل هؤلاء الرجال لا يموتون صوفي  
قلت و أنا أوافقه:

- حقا، فالتاريخ لا ينسى مثل هؤلاء الرجال  
فرد آرثر:

- ليس التاريخ فقط فرانسوا، بل العالم الذي نعيشه اليوم هو عالم متأثر بفكر هذا الرجل و الدليل نقاش الرجل و المرأة قبيل قليل في دولة تبعد عن الصحراء العربية بآلاف الكيلومترات ،و الدليل العالم الإسلامي المترامي الأطراف، و الدليل هذا الدين الذي أصبح يستهوي الكثير من المواطنين الفرنسيين و الأوروبيين عامة و لهذا أقول أن محمدا لم يمت حقا، بل إنه يتعدى الحاضر إلى مستقبل..من يدري، قد يكون مزهرا للمسلمين ..

- نعم حقا لن يموت حتى يجعل من العالم خرابا كما جعل بلدان العرب ركاما..أنا لا أرى في هذا الدين أكثر من العنف و القتل و الاستعباد ،و كأن ما يحدث من تفجيرات هنا في فرنسا باسم هذا الدين

لا يكفيك كدليل، دعك من التفلسف الفارغ و تعال أعزمك على  
كوكتيل، أم أنك توقفت عن الشرب أيضا؟  
- بل أنا من يعزمكم اليوم، و لأكون صريحا معكم منذ الآن، ستكون  
ليلة اباحية لي حيث لا أريد كلمة منع واحدة، خاصة منك آرثر  
وضع آرثر يده على فمه و قال:  
- افعل ما شئت صديقي، سأحتفل معك الليلة في حدودي  
قالت صوفي:  
أما أنا فسأخذك الى حدودي ...

قمت بتسجيل رحلتي على متن "الفرنسية للطيران" و سجلت أمتعتي  
،ثم رجعت الى صوفي و آرثر في قاعة انتظار مطار "شارل ديغول"  
- أرجوا أن تخففا من خلافاتكما أثناء غيابي  
ردت صوفي:

- لا أظنني سأتحمل حماقاته بعد الآن، سأنتهج معه سياسة "لك الحق  
دوما" لتجنب الاصطدام معه

نظرت الى عينا آرثر الممتلئتان بالدمع الخجل الذي يأبى السقوط، لقد  
اختر الصمت كلغة وداع، و السكون كتعبير للحزن..في الحقيقة كنت  
أبادله الحزن لأن علاقتي بآرثر تعدت بكثير علاقة الصداقة، منذ  
المدرسة المتوسطة لم نتفارق، و لم يكد يمضي علينا يوم واحد دون  
أن نلتقي..أذكر أنه كان أضعف شخص في القسم من حيث البنية  
الجسمية و كان خجولا جدا لأنه الوحيد من كل تلاميذ المدرسة  
المجهول الهوية، لقد تعرض المسكين لأشد المضايقات من الزملاء  
في القسم و من خارج القسم، و تلقى أشنع أنواع الشتم، و حمل أزدل  
الألقاب، ابن الزانية، ابن المؤسسة، الحثالة التي لا يريد لها أحد حتى  
أمه..

كنت أرى كل هذا يحدث أمامي ،و مع أنني أكننت له بعض مشاعر  
الشفقة إلا أنه لم يخطر ببالي أبدا مساعدته رغم أن هذا أمر يسير  
بالنسبة لي، نظرا لأنني كنت أضخمهم جثة و أنضجهم الى درجة أن  
الجميع كانوا يظنونني معيد لأكثر من ثلاث سنوات و أنني أكبر  
الجميع في القسم، حتى و في يوم من الأيام و بينما كان يتعرض  
للضرب و المضايقات، توجه نحوي و هو يجري و ما إن وصل  
عندي حتى تمسك في ذراعي بكلتا يديه، كان يرتعد، أحسسته كهر  
صغير مطارذ من طرف كلاب شرسة، تعلق في كتفي و توجه بنظره  
الى من كانوا يضايقونه و قال بصوت مرتفع و الدمع يسيل من عينيه

- من اليوم ،قد اتخذت فرانسوا صديقا لي و من يجرؤ على مضايقتي  
سيجد فرانسوا بالمرصاد.

كنت كجميع الحضور مندهشا، لم أفهم لما اختارني من بين كل تلاميذ  
المدرسة مع أنه لم يسبق لنا و أن تكلمنا أو أن جلسنا معا..  
سألني أحد الأطفال محتارا:

- هل ما يقوله صحيح فرانسوا؟

أردت أن أقول لا، لكن نظرتة المملوءة بدموع الضعف، و احساسني  
برجفة يده و هو يمسك ذراعي وجدنتني أجبت السائل بصوت مرتفع  
لإسماع البقية

- نعم ،انه صديقي و من يتجرأ على إيذائه و لو بكلمة، فلينتظر مني  
العذاب.

تبسم آرثر و علت وجهه اشراقة الطمأنينة بعدما ارتسم الاستفهام على  
حاجبيه ، ليأخذ شكلا مضحكا ،خاصة عندما سحب يديه من على  
ذراعي و نفخ صدره الصغير و رفع رأسه الأشقر متباهيا بصداقتي  
أنا الذي يوحى جسمي أني أكبر الجميع بسنوات..

بعد ذلك بسنوات سألت آرثر لما اختارني فأرجع ذلك الى هيبتي و  
مكانتي بين التلاميذ، الى طيبة قلبي ،و الأهم أنه كان يرى والداي من  
حين لآخر و كان يرتاح الى وجودهما، قال أنه كان متأكدا أنه برفقتي  
سيقضي على كل معاناته و آلامه..

لطالما بدت بوادر الحكمة على آرثر، منذ الصغر امتلك بعد النظر  
،حتى في سن المراهقة تحصن من كل الطيش الذي مررنا به أنا و  
صوفي و كل رفاق الصبي، أذكر أننا اجتمعنا مرات كثيرة مع الرفاق  
كلما غاب أهل أحدنا لنحتفل، و طبعا حفلات الشباب لا تخلوا من  
الكحول ، من المخدرات ،و مع أني أعتبر شخصا عاقلا بعض الشيء  
مقارنة مع أترابي إلا أن آرثر كان قسا بالنسبة لنا، لا يقرب النساء مع

أنه كان ظريفا جدا معهن و مع أن الإغراءات التي تعرض لها من أنواع و أشكال النساء كلها ليست هينة، حتى أنه كان محسودا جدا من المجتمع الذكوري و بسبب الغيرة وصفه البعض بالمثلثي لأنه لا يتخذ أي خليلية و هو في ذروة الثورة الهرمونية لكن ذلك لا يصح فآرثر كان في قمة الرجولة و الجمال ..

كنت أسأله أيضا و نحن في فترة المراهقة عن رفضه تناول المخدرات و لو البسيطة منها ،فقط من أجل الشعور بإحساس أفضل و الظفر بالقليل من نشوة السعادة و كان الأشقر يرد بأنه ينعم بالكثير من السعادة ،و قليل من المخدرات ستكون بالنسبة له كمن يصب قارورة ماء معدني وسط المحيط، كما زعم دوما أن أغلى ما يملكه هو عقله ولن يراهن به من أجل نشوة كاذبة، و فرحة عابرة..

من أول يوم عرفته بوالدي اثر حفلة أقيمتها احتفالاً بتفوقي في شهادة المرحلة المتوسطة، ملك آرثر قلب أمي و احترام أبي، اندهشت و أنا أنظر اليه و هو يكلمهما بلباقة الرجال الكبار، بكلمات موزونة و حركات مدروسة ،هنأهما بتفوقي و كأنه لا ينتمي الى فئة التلاميذ، للعلم كان صاحب الريادة على مستوى المؤسسة و على مستوى المقاطعة، منذ ذلك اليوم أصبح آرثر أبا غير رسمي، ليس بيننا سوى فرقان ، لا نحمل نفس الاسم و لا ننام ليلا تحت نفس السقف، لكن بالمقابل حصل صديقي على حنان أمي و اهتمام أبي.. ليس اهتمامه فقط بل محفظته أيضا فلم أحظى بشيء بعدها من والداي إلا و نال آرثر مثلها...

أما صوفي فهي الضد تماما من آرثر، انها تلك الشقراء المائلة الى شيء من الاحمرار، فتاة تؤمن بشدة أنها وجدت في الحياة لتسعد، و

كل طريق يؤدي بها الى السعادة هو طريق مشروع، لها فلسفة بسيطة جدا :

السعادة هي الإله الذي يستحق العبادة، العبادة هي كل ما يسعد، في سبيل السعادة كل شيء مشروع  
تعتبر كل شخص صاحب مبدأ انسان مخدوع، بل و ترى أن هذه المبادئ هي السبب الرئيس وراء الحروب ،تظن حسب فلسفتها أن كل انسان يميل بطبعه إلى فرض رأيه على الآخرين ،أنه دكتاتور لو امتلك سلطة لمارسها من أجل فرض رأيه، و لا يمكك الإنسان عن الإنسان إلا عجزه عليه

صوفي امرأة حرة، لا تحب القيود، تقول انها إذا منعت من فعل ما فإنها تحس نفسها محتجزة داخل زنزانة و ترى أن المفتاح للخروج من تلك الزنزانة هو بكسر المنع و فعل الممنوع و لا ترى من مخرج آخر ،و ترى صوفي أن أجمل كلمة في قاموس اللغة هي كلمة الحرية ،و أن الدين أيا كان مقيد للحرية البشرية ..

عانقتني بشدة لما نودي لركاب الطائرة المتجهة الى نيويورك، ثم و بدون أن أنتبه قبلتني قبلة الخليفة على شفتي، كانت قبلة بطيئة مسروقة من الزمن تحمل في دفنها ذكريات طيشنا اللذيذ ، لما رأت صوفي دهشتي تبسمت و قالت : انها ثأر الماضي الذي أتمنى أن يعود..

الماضي الذي جمعني بصوفي كان في أواخر المرحلة الثانوية، في تلك الفترة كنت لا أزال على علاقة بالدكتورة هيلين، و كانت هذه الأخيرة تلح علي على أن لا أسمى ما بيننا بالعلاقة لأنه أدنى من أن يكون مجرد قضاء حاجة ،لم ينفع ذلك معي لأنها أول أنثى قضت على براءتي، و أول امرأة تمكنت من التلاعب بسرعة خفقان قلبي، و لأنها دكتورة نفسية فإن ما أصابني تجاهها لم يكن ليعجزها، فكان

رأيها أن أخالط فتاة تقربني سنا، و أخوض معها تجربة حب، وكانت الفتاة صوفي..

لم اختر صوفي، كل ما فعلته هو الرضوخ لمحاولاتها المتكررة، انها امرأة لا تعرف اليأس، مثابرة للحصول على شهواتها، و في وقت مضى كنت أنا غايتها، بعدما طرقت باب الممنوع سقطت كل الحواجز و انفتحت شهيتي على المغامرة فقررت خوض تجربة مع المرأة التي يهابها الخوف، لصوفي شخصية مميزة، حين كنت أراها قبل أن نصبح صديقين كانت تبدو صلبة، قوية، بلا مشاعر، تفعل ما تريد مع من تريد وقتما تريد، فيما كنت أنا رغم قوتي الجسدية أخشى المغامرة و أتجنب افتعال المشاكل و أحب الانضباط و برمجة كل شيء قبل السعي اليه، بينما واعدت صوفي الكثير من الرجال و لم تبلغ الثمانية عشر بعد، كنت لا أزال أعذر و أنا في مرحلة الثانوية، قررت اذا خوض مغامرة التعرف بفتاة لا تشبهني في شيء و ليس بيني و بينها صفة مشتركة، لم أتناول الكحول في حياتي كلها كما فعلت في الفترة القصيرة التي جمعتني بها، أحيينا سهرات مليئة بالمتعة و الضحك، استنشقتنا عبير الماريخوانا على نغمات مغني الريغي "بوب مارلي" و على سحر موسيقى البلوز، أتفرج على الشاشة و هي تحتفل بحفلات بي بي كينج، ألبرت كينج، إيريك كلابتن، ستيفي راي فوغن، جيمي هاندريكس، روبرت كراي، بادي غاي ترحل بي خرافة الكنييس لتضمنا أنا و صوفي الى أعضاء الفرق، هي كلاعبة غيتار، و أنا كلاعب غيتار الباص، في لحظات كهذه، يختفي العالم بما يحتويه، و لا يبقى في وجودنا سوى نحن، مضت سنة كاملة و أنا و صوفي على هذه الحالة، حتى ظهرت نتائج الباكالوريا، لنجد نفسينا في قعر اللائحة، أحسست بأشع أنواع الندم، كيف لا و أنا الذي أتنافس على أولى المراتب دوما، فإن سبقني آرثر

الى الريادة أكون في المرتبة الثانية و إن سبقته، يكون هو في الثانية، و لكن هذه المرة، كعادته احتل أولى المراكز ليظفر بمنحة جامعية في السوربون بينما غرقت أنا في وحل الأوهام اللذيذة، لم أتكلم عن صوفي لأنها لم تجتز الاختبارات متسببة بو عكة صحية كاذبة.. كانت فاجعة، لم أعرف كيف أخبر والداي بهذا بعدما اعتدت أن أكون مصدر فخر لهما، حاولت استرجاع كل ما فعلته طيلة السنة الفارطة لأستوعب ما حدث، فلم أستطع تذكر شيء غير الحفلات و المخدرات، و صوت آرثر الدفين و هو يحاول في كل يوم إقناعي بالعدول عما أفعله كل ليلة مع صوفي، و لكن صوت الديتجي كان أقوى من صوته، لم أحظى و لا بذكرى واحدة جمعنتي بأمي و أبي هذه السنة، لم أتذكر و لا جلسة عائلية حول طاولة الطعام، لم أتذكر و لا قبلة وضعتها على خد أمي، و لا حتى حوار حول الكون و الفيزياء مع أبي، كل ما تراءى لي هو شظايا ذاكرة يعكس قلق والداي و آرثر على حالي، قضيت تلك الليلة الصيفية تحت سماء باريس، كانت أول ليلة أقضيها وحدي و من دون مخدرات منذ سنة، كان إحساسا غريبا، و كأنني لم ألتقي بنفسي منذ مدة طويلة، بدوت غريبا عن نفسي التي لم تتوقف عن تأنيبي، أو العكس أنا الذي اتبعتها فأغرقتني في بحر شهواتي، .. هيلين هي سبب حالتي، ألم أتبع نصيحتها لأتعرف بصوفي؟، بل صوفي هي سبب رسوبي، لكن المسكينة رسبت هي أيضا، ربما يقع بعض اللوم على آرثر، فقد كان عليه بذل جهد أكبر لإنقاذني من وهمي، كما يقع على أبي و أمي لتخليهما عن مسؤوليتهما في مراقبتي و توجيهي، أطفأت هاتفي لأنه لم يتوقف عن الرنين، أمي، أبي، آرثر و حتى صوفي كلما نظرت الى هاتفي أجد أحدهم يتصل، أحس أنني غاضب من الجميع، لا أريد رؤية أحد من المحيط،

وقفت وحدي فوق أحد جسور السين تائه في مياهه الجارية حتى سمعت صوتا يكلمني بلغة فرنسية و لهجة تبدو مغربية:

- تبدو مهموما فرانسوا، هل من خطب؟

استدرت ناحية الصوت، على يميني، انه يقال الحي الذي أقطنه، شيخ في السبعين أو الثمانين من عمره، لا يهم الرقم الذي يعبر عن العمر بعد ببلوغ سن الشيخوخة، هزيل الجسم، منحني الظهر بعض الشيء يتكأ على عصي خشبية تبدو أكبر منه سنا، أسمر البشرة و أبيض شعر الرأس.. أجبته:

- اهلا سيدي

-ماذا تفعل هنا فرانسوا في هذا الوقت، انها الواحدة صباحا

لم أجد بما أرد عليه، انه آخر انسان أود مكالمته في هذا الوقت بالذات، لا أريد إلا أن أكون وحدي، فقررت أن أزعه قليلا ليتركني لحالي فأجبته بسؤال :

-و أنت سيدي، ماذا أتى بك الى هنا في هذا الوقت من الليل، ام أنك قاتل متسلسل و تبحث عن ضحية..قلت هذا و تبسمت له ابتسامة سخرية

- ان لي في هذا المكان ذكريات طفولة فرانسوا، ذكريات أليمة لكني أحبها، أم أنك تظن أنني ولدت شيخا؟

-أتقصد أنك عشت هنا، في باريس منذ طفولتك؟

-نعم فرانسوا، أتى بنا أبي أنا و أمي الى باريس قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل فقد كان محاربا في صفوف فرنسا ضد النازيين، كنت أبلغ حوالي العشر سنوات آنذاك

-لماذا اذا لا تزال تتكلم بلهجة ..ليست باريسية، و قد عشت في باريس تقريبا طوال حياتك؟

-لا فرانسوا، لم أعش هنا طوال هذه الفترة، لقد رجعت مع أمي الى البلاد فبعد وفات أبي في تلك الحرب لم يعد لدينا عائل و عشنا كالمتشردين هنا فترة قصيرة ، ثم سافرت مع أمي في سفينة أبحرت من ميناء مرسيليا و هناك في الوطن انتظرنا فرنسا لتبدأ الإصلاحات التي وعدتنا بها في الجزائر في حال انتصارها على الألمان، كنا سذجا إذ صدقناهم و نحن نعلم أنهم أمكر من الثعلب، و لكن بعد مجازر ماي خمسة و أربعون فهنا أن ما أخذ بالقوة لا يرجع الا بالقوة، كان لا بد من الرجوع الى البلاد للاحتماء تحت جناح أخوالي خاصة و أن حقد الكثير من المتعصبين الفرنسيين هنا قد وصل ذروته.ثم التحقت بجيش التحرير الوطني سنة خمس و خمسين و لم أضع السلاح الى أن نالت الجزائر استقلالها، و لم أعد هنا إلا في سنة 1991،بعدهما أتى الإرهاب في الجزائر على الأخضر و اليابس.

-لم أفهم لما حارب أبوك في صف فرنسا مع أنه اعتبرها استعمارا حسب ما فهمته منك، ثم حاربته مدة سبع سنوات حتى أخرجتموها من بلادكم، ثم جئت لتعيش في حضنها، ألا ترى ا أن هناك تناقضا رهيبا؟

استنشق الشيخ كمية من هواء الصيف المنعش و كأنه يحاول إنعاش ذاكرته، ثبت نظره بمياه السين الجارية، سكت بضع لحظات حتى بدأت أندم على تظلي ليكسر حاجز الصمت :

-فرنسيو الأمس غير فرنسيو اليوم، و جزائريو الأمس ليسوا جزائريو اليوم،العالم يتغير و المجتمعات كذلك، ان فرنسا بقيت في الجزائر لمدة تجاوزت القرن و ثلاثين سنة ما يعني أن أكبر الجزائريين سنا في فترة الاستقلال لا يعرف عن الجزائر المستقلة إلا ما يسمعه عن أجداده، و الأمر سيان مع الفرنسيين، فلم يوجد أحد عايش السنوات الأخيرة من احتلال فرنسا للجزائر إلا و هو يؤمن بأن الجزائر

مقاطعة فرنسية، طبعاً كانت هناك ثورات كثيرة ضد المستعمر منذ أن رست أول باخرة لفرنسا بسواحل سيدي فرج و لكن في فترة الحرب العالمية بدأ العمل السياسي المنظم ،و بدأ الوعي يتسلل شيئاً فشيئاً الى عقول نخبة من الجزائريين و أنشئ حزب الشعب بقيادة الزعيم مصالي الحاج، و بدأ حلم الاستقلال بالرجوع الى أذهان الشعب، ثم تسارعت الأحداث لنتفاجأ بفرنسا و هي من أقوى دول العالم عسكرياً آنذاك تقع في فخ الاستعمار الألماني بقيادة هتلر، و نرى جنرالات فرنسيين مصنّفون كأبطال حرب ضد الشعب الأعزل يحيون تحية عسكرية لمستعمرهم و يعملون تحت رايتهم بل و يبذلون جهداً لإرضائهم، كان هذا مشجعاً جداً لنا كجزائريين، فقد رأينا كيف تحول ذلك الوحش الشرس الى هر وديع ،ليتحول حلم الاستقلال عند الجزائريين الى طموح، أحست حكومة فرنسا بذلك فقررت توظيف هذا الطموح الى صالحها و بدأت بوعودها الكاذبة في منحنا الحرية و المساواة و كل الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون حال ساعدناها على استرجاع أراضيها

قاطعته محاولاً الظفر بخلاصة القصة:

- و لكن ألم يكن أضمن لكم إن حاربتم فرنسا و وقفتم إلى جانب الألمان بدل أن تقفوا مع فرنسا و تنتظروا رحمتها؟  
-ثم ماذا؟، سينتصر الألمان على فرنسا ،و بعد الانتهاء منها سيوجهون مدافعهم الى الجزائر، صدقني بني ،طموح هتلر يتعدى خارطة فرنسا، لكن بالمقابل ان ربحت فرنسا فسنقضي على الظلم النازي و على الإستعمار الفرنسي، على الأقل هذا ما ظنناه  
- يبدوا هذا منطقياً، لكنك لم تجبني لما حاربت فرنسا ثم عدت لتعيش فيها بعد هذا؟

- بعد أن فاز الحلف ضد ألمانيا النازية، و تراجع فرنسا عن وعدها ،خرج الشعب بالشرق الجزائري في مظاهرات سلمية للمطالبة بحقه في الحرية منذ أول ماي الى غاية يوم الثامن من ماي 1945 ليتفاجأ بمجزرة في حقه من أبشع الجرائم الحربية في تاريخ الإنسانية، هل تتخيل 45000 قتيل في مدة أسبوع واحد بل في يوم واحد، بدون أية رحمة و لا شفقة

لحظات من الصمت عمت المكان، صمتي كان تركيزا لمحاولة تحويل هذا الرقم الكبير الى مشاهد مجازر كالتي نراها في التلفاز من قبل بعض الميليشيات الإفريقية، أو تلك التي نشاهدها في أفلام داعش الوثائقية غير أنني عجزت عن الحصول على صورة خمسة و أربعون ألف قتيل في يوم واحد و الأسوأ هو أن مرتكب هذه الجرائم هو دولة عريقة لها علم و نشيد و تاريخ ،لم أعلم حينها ان كان علي تصديق هذا العجوز حول ما أسمعه عن وطني الذي أعتبره رائدا في الديمقراطية و في حقوق الإنسان..بعدما سرحت بذهني في الماضي أعادني صوت الشيخ الحزين

- تتيتم يومها للمرة الثانية، كانت أمي أحد شهداء ذلك اليوم، بينما كان الناس يجرون في كل الإتجاهات، كنت أنظر إلى أمي و هي تحتضر، أنظر الى بركة الدم تكبر شيئا فشيئا تحت صدرها ،أتحسس يدها التي تحاول ضمي لكن الحياة غادرتها قبل أن تفعل، ليسقط عن رأسها خمارها الذي هو العلم الوطني الجزائري الحديث الولادة و ظهرت خصلات من شعرها الأسود القاتم ليشهد على حياة شابة فقدت غدرا رميا بالرصاص ..نعم هذا الذي لا تعلمكم إياه فرنسا في درس التاريخ، أتعلم أين قضيت ليلتي تلك فرانسوا؟

مسحت دمعة تشكلت في عيني و قلت بصوت خجل:

- أين؟

في السجن .. قالها مستهزئاً .. نعم كنت أفكر أن أبي مات من أجل فرنسا في حين باعها الكثير من أولادها، و كان جزاؤه أن قتلوا زوجته و أن وضعوا ابنه في السجن، و لكن كما نقول في بلدنا كل شيء بسبب، قضيت أسبوعاً في السجن و تعرفت برجال ساهموا بالكثير من أجل أن تقوم ثورة التحرير، لقد حموني و أطعموني و دربوني لأحمل السلاح و أشارك في الثورة التحريرية منذ انطلاق أول رصاصة في الأول من نوفمبر و حتى قاطعته قائلاً:

- و حتى آخر رصاصة في الخامس من جويلية ألف و تسع مائة و اثنان و ستون..

تبسم الشيخ في نظرة اعتزاز و قال

- حقا و وضعت السلاح لآخر مرة في هذا التاريخ و لكن هذا لا يصادف تاريخ آخر رصاصة في ثورة التحرير.

- و متى كانت اذن؟

-لم تكن بعد.. ليس بعد

بدى لي أني لو سألته لما يظن أن آخر رصاصة لتحرير الجزائر لم تكن بعد سنتشعب أكثر عن سؤالي الذي سأطرحه للمرة الثالثة:

- لم تجبني عن سبب اختيارك العيش في فرنسا بعد كل سنوات الحرب ضدها..

- أنا لم أحارب فرنسا كدولة من أجل المتعة، أنا حاربت الظلم و الطغيان، حاربت من نهب أرضنا و خيراتنا، حاربت من جهل شعبنا، من جوع أطفالنا و اغتصب نساءنا، من حاول مسح هويتنا الإسلامية، ولغتنا و تراثنا و تقاليدنا، بعد قرن من الممارسات الوحشية المادية و المعنوية أخذنا استقلالا مسموما، ماذا يستطيع شعب تمكن الجهل منه أن يفعل بالحرية، انها كسلاح في يد طفل، كثر النزاع الإيديولوجي،

و الصراع العنصري و ظن كل منازع أنه صاحب الحق ما جعل أصحاب العقول الذكية تتسحب أو تسحب لأنها لا تحسن السباحة في المياه العكرة، و لم يبقى في الوحل إلا من كانت بيئته الطبيعية و ما هي إلا سنوات لتندلع حرب بين الإخوة و كثر الموت و الغدر، وصلتني عدة رسائل تهديد، ثم تم اغتيال أخي فلم يكن مني إلا أن طلبت اللجوء السياسي من فرنسا، لأنني أحملها جزءا كبيرا من المسؤولية في تقسيم البلاد و تقسيم العقول، و لهذا أراني محقا في قدومي الى هنا، ألا ترى أن وفاة أبي من أجل هذا التراب يعطيني الحق في أن أحيى عليه هروبا من فتنة زرع المستعمر بذرتها؟ ثم إنني سأقول لك حقيقة يا بني أني أعيش بحرية لم أتمتع بها في بلادي بعد الإستقلال، أتكلم كما أريد هنا، في حين كنت أراقب كلامي في وطني، أخرج من بيتي و أتمشى في الشارع رفقتك في هذا الوقت المتأخر في حين كان حظر التجول مفروض في وطني أيام هروبي إلى هنا، أصلي كما شئت أو لا أصلي لا أحد يحاكمك هنا في حين ان صليت في بلدي حسبوني ارهابيا أو متخلفا أو متعصبا و إن لم أصلي حسبوني كافرا زنديقا..تغيرت العقليات ...

تبسم الشيخ و هو ينظر إلي بعدما استنشقت كمية من الهواء الباريسي الليلي المنعش وسألني:

- هل تعلم فرانسوا لماذا أقص لك حياتي المملة؟
  - لا سيدي، لا أعلم، و لكن أعلم أن حياتك مشوقة و مملوءة بالأحداث
  - قصصك لك حياتي الخاصة لكي لا أبدو فظا إذا سألتك ما الذي أتى بك هنا لوحدك في هذا الوقت و علامات الحزن تغزوا وجهك؟
- في هذه اللحظة، أخذ عقلي وقتا للتفكير قبل أن أتذكر سبب حزني، لقد سبح عقلي في بحر ذكريات شخص لم يكن يعني لي الكثير، طوال سنوات و أنا أعرف وجهه ولكن لم يسبق لي و أن لاحظت ملامحه،

كان يبدو مجرد بشري خال من المشاعر، واذ به انسان يملؤه الحنين و الشوق، لم أفكر من قبل أن الشيوخ يمرون بمرحلة الطفولة و بعنفوان الشباب، كان يبدو منعزلا عن العالم و كأنه لا يسمع إلا طلبات الزبائن و لا يرى أبعد من الأرقام على لوحة الميزان، كان يبدو بطيئا و ثقيل الفهم و لكن و لمجرد حديث ليلي هادئ اكتشفت أن كل ما كنت أراه مجرد وهم، بل إنني بت أعرف سبب كل ذلك البطء و الانعزال، أدركت أن الرجل أنهكه التاريخ، و حطمته الخيبات، و عزلته الحكمة.. أردت أن أجييه و لكن بدوت مع نفسي كأحمق، كيف أجرو أن أشتكي رسوبي في اجتياز البكالوريا لشخص تملؤ عقله ندبات المعاناة، و يملؤ سمعه صدى الآهات، لشخص لا يزال يرى صورة والده منعكسا على السين، و يرى خمار والدته في علم بلد.. لم أرد أن أكون في مظهر ذلك التافه، ثم إنني لم أعد أحس بأي حزن، بل أظنني أتمتع بحماس لم أذقه منذ زمن، منذ كنت أبحث بشغف عن سبب وجودنا أو خلقنا نحن البشر و عن خلق الأرض و الكون و عن الهدف من وجود الإنسان.. تبسمت و أجبته:

- ما أتى بي إلى هنا في هذا الوقت سيدي هو البحث عن ما أتيتني به، كنت بحاجة إلى شخص ليس من محيطي القريب ليفتح عيناى على العالم، لهذا فإني أشكرك لأنك ساعدتني كثيرا ربما من دون أن تدري.

- حسنا إذا فرانسوا، ربما لا تعلم أنى أحببتك منذ صغرك لما سكنت عائلتك ببيتكم الحالي، لقد بدت عليك الفطنة و الذكاء منذ صغرك، كما بدت عليك الطيبة و هي أهم صفاتك.. ثم أطلق ضحكة خفيفة ممزوجة بسعال طفيف و أضاف: لم تتكلم الفرنسية بطلاقة آنذاك، كنت تمزج بين الألمانية و العربية و الفرنسية، و كنت تبدوا أكثر من سنك بكثير. ضحكت بدوري لما قاله و لكني صححت له:

- لطالما بدوت أكثر من سني حقا، لكن عن اللغات فلأن والداي سكنوا بألمانيا بعد ولادتي مباشرة فقد كنت أمزج بين ما أتعلمه من البيت و ما أتعلمه من الحاضنة ، و لكني أظنك مخطئا بشأن العربية ،لأنني لم أخالط عربيا من قبل

- حسنا ربما أخطأت ،ربما هناك كلمات ألمانية تشبه العربية فأنا أجهل الألمانية تماما ،و لكن ما أحب طلبه منك هو أن تناديني ابراهيم مباشرة أو عمي ابراهيم ،لا مزيد من كلمة سيد لأنني لا أحبذها صراحة

- حسنا سيد ابراهيم لك ذلك..ثم انفجر كلانا بالضحك في هذه الليلة اتخذت قرارات مهمة في حياتي، قررت أن أقطع علاقة الخلية مع المحافظة على الصداقة مع صوفي ،قررت أن أقطع علاقتي مع هيلين مع المحافظة على علاقة الطبيب و المريض، قررت أن أعتذر من أمي و أبي و آرثر، و قررت أن كل ما حدث لي هو بسبب خطئي أنا ، و بالتالي سطرت هدفا واضحا و هو الظفر بمقعد في الجامعة يتيح لي البحث عن جوابي: لماذا وجد الإنسان؟

# أمريكا

في زمن آخر كنت أعرف عن نفسي الكثير  
ولكن... كل شيء تغير  
-ياسمينه صالح-

نزلت بمطار "نيويورك" الدولي، لأجد بانتظاري رجلاً أشقرا ضخماً الجثة، بارز العضلات، يحمل بيده لوحة مكتوب عليها "مستر فرانسوا روسو"، توجهت إليه مباشرة بابتسامة عريضة لأنني لم أكن أعلم أن هناك من سينتظرنني، و كنت قد بدأت أتساءل عن كيفية البحث عن العنوان في بلد يبدو مختلفاً جداً عن فرنسا، قدمت نفسي و صافحتة، صافحني بدوره بطريقة انشرح لها صدري، بدى و كأنه يتعامل مع صديق قديم له، ثم قدم نفسه:

- اسمي جيمي جونيور، أنا زميل لك في المخبر بصفتي مختص في الطاقة الذرية، لقد طلبت من البروفيسور انتظارك شخصياً لأنني أقطن في الضواحي..ضربني ضربة قوية على كتفي على طريقة الملاكمين..أسرع فالعشاء يكاد يجهز و جدي لا يطيق الانتظار، سيغضب جداً

لم أفهم ماذا يحدث، يتكلم و كأنه سيأخذني الى بيته، أردت سؤاله لكنه من النوع الذي لا يترك لك المجال للكلام، كما أنني لم أستطع فهم كل ما يقول، فالإنجليزية الأمريكية أصعب من الإنجليزية البريطانية التي تعاملت معها من قبل أثناء دراستي بالجامعة..

-هل أحضرت أمتعتك؟

-نعم، نستطيع الانطلاق

جرني بذراعه التي لواها حول عنقي وواصل الكلام، يسأل و يجيب و كأنني لا أملك رأياً لنفسي..

- ستتناول العشاء مع عائلتي اليوم لأننا نقيم حفل ميلاد جدي، لعلها حفلة المئة أو أكثر، سوف تقضي ليلتك في ضيافتنا لتنتقل غدا الى غرفتك في أحد الأحياء الجامعية القريبة من المخبر، لا أظنك تمانع؟ أظن أن رحلتك كانت طويلة جداً، هل تريد أن نتوقف عند بار في

الطريق لتشرب شيئاً و تنظر الى ما ينتظرك من الجمال في هذه الناحية من العالم؟ أستطيع الاعتذار من جدي و اختلاق عذر ما..أو لا سذهب مباشرة فالتعب باد على وجهك..

في حالة التعب التي كنت عليها، بدت لي حيويته شيئاً خارقاً، تساءلت في نفسي ان كانت هذه طبيعته، أم أنه يريد أن يتظاهر أمامي، و في كلتا الحالتين بدأت أنزعج منه قليلاً، غير أنه أفضل من أن أكون غريباً وحيداً في مكان لا أعرف فيه أحد.. ثلاثون دقيقة مرت و هو يثرثر بدون توقف، و كل ما أفعله أنا هو إبتسامة كاذبة حيناً، و إيماءة بالرأس أحياناً و كأني أفهم ما يقول، حتى لو تكلم بالفرنسية لما استطعت مجاراته.. أشعل ضوء تغيير الإتجاه، نظر الى المرأة العاكسة ليأخذ المخرج الذي أوصلنا بعد أقل من عشر دقائق قرب بيت كبير جميل، مصنوع من الخشب، بياضه ناصع حتى مع ظلمة الليل..توقف عند الباب و أطفأ المحرك، ثم نزل مسرعاً و فتح لي الباب بلباقة و قال مستهزئاً:

- تفضل موسيو..تبدو الفرنسية مضحكة من فم أمريكي...

ترددت قليلاً في الدخول بعدما فتح جيمي الباب، أحسست اني ضيف ثقيل الظل وسط عائلة تحتفل بعيد ميلاد أحد أفرادها، عندما لاحظ مضيبي هذا أعاد غلق الباب و توجه نحوي بالكلام:

-ما بك؟ هل خجلت من الدخول أم ماذا؟

-أعذرني جيمي، لكني لست مرتاحاً جداً، انها حفلة عائلية لا أظن أنها تناسب ضيفاً غريباً على العائلة.

- هل تظن أن فكرة قضائك الليلة الأولى في منزل جدي كانت فكرتي؟ أبدأ، كل ما فعلته هو أنني تكلمت بشأن استقبالي لرجل فرنسي في المطار قرب جدي حتى تمسك الشيخ العنيد برأيه في أن أعزمك على العشاء، انه رجل كبير السن، عنيد جداً، و يحب التحدث الى من

يأتي حديثا من أوروبا أو شمال افريقيا لأنه عمل مع قوات التحالف إبان الحرب العالمية الثانية و قد زار بلدان كثيرة و وثق علاقات كثيرة، انه يحب استرجاع الذكريات مع من يأتون من الضفة الأخرى من العالم، سترى بنفسك، لن يترك لك الفرصة للكلام، لقد أكد على أن نستقبلك الليلة و الكل في انتظارك

حاولت منع نفسي من الابتسامة لما قال عن جده أنه لن يترك لي فرصة للكلام و لكنه رجل نبه، تبسم بدوره و قال:  
-أعلم أي نسخة عنه، حتى في الثرثرة..

فتح جيمي الباب مرة ثانية لدخول الى باحة جميلة وسط المنزل بها بعض الأرائك ، و بعض الرسوم الجميلة المعلقة على الحائط، و صرح بصوت عال: أنا بالبيت..صوت امرأة رد عليه :نحن بغرفة الأكل جونيور ،التحقوا بنا..

في هذه المرة، ليس جيمي من أخذ بيدي ،و لكن رائحة اللحم المشوي على الجمر طيرتني نحو طاولة الطعام، ما إن خطوت داخل المطبخ حتى استققت الى أي ضيف على عائلة غريبة عني، فعاد الخجل ليراودني ، و لكن لهذه العائلة أسلوب مدهش في التعامل، فنحن الفرنسيون نملك الكثير من البروتوكولات في التعامل مع الغير، لكن عائلة جيمي تعاملك منذ لحظة تعارفك الأولى و كأنك فرد قديم بالعائلة، بدون مجاملات و لا مقدمات

خذ كرسي بني ،اختر المكان الذي يعجبك ما عدا ذلك الذي يحتل رأس الطاولة، انه للزعيم، لا تخاطر معه فيهزمك..هذا ما قالته السيدة البيضاء من قبل أن ترحب بي و قبل أن تقدم نفسها..

يبدو أن العادات هنا تختلف كثيرا عن فرنسا، لم يأت أحد على تقديم نفسه لي، و لم يتسنى لي تقديم نفسي لأحد، الكل يهرول لتحضير الطاولة، نظرت الى الجهة المقابلة للباب فرأيت حديقة رائعة لا

يفصلنا عنها غير زجاج سميكة.. بنت جميلة ذات شعر أصفر مسدول على كتفها تقوم بقلب اللحم فوق الجمر بيدها اليمنى و تبعد الدخان المتصاعد من المشواة بيدها الأخرى، عرفت على الفور أنها أخت جيمي لأنها تشببه وجهها، قلت في نفسي أرجوا ألا تكون ثرثارة كأخيها فينعكس ذلك سلبا على جمالها.. لحق بي جيمي و جلس بقربي و نادى أمه:

- أكاد أموت من الجوع أمي، ألا تسرعين قليلا؟  
-لقد أكملت السلطة و هي على المائدة جيمي، إن أختك من تأخرت في شوي اللحم، اذهب و ساعدها بدل الثرثرة  
-تعلمين أمي أن الشيء الوحيد الذي أجيدته في المطبخ هو الأكل، لما لا تذهب فرانسوا و تساعدها بدل الجلوس كالأبكم  
-لا تلمه بني، انه لا يحسن التصرف، لقد ورث صراحته الزائدة عن جده، سوف تراه، انه نسخة طبق الأصل عنه  
-لا بأس سيدتي، أستطيع المساعدة

خرجت من الباب الزجاجي خلف المنزل، تقدمت خطوة نحو الفتاة و أنا أفكر كيف سأقدم نفسي، خاصة أن لغتي الإنجليزية بدأت تخونني بسبب الخجل و التعب، ما أن أحست بخطواتي خلفها حتى قالت  
- في الوقت المناسب، اتني بصحن كبير لأضع فيه بعض اللحم الجاهز

قلت في نفسي حتى هذه الجميلة لا تحسن تقديم نفسها كأنسة لطيفة، لكنني عدلت عن فكرتي لما استدارت نحوي و قالت:

- عفوا سيدي ظننتك جيمي..مسحت يديها و الاحمرار يلون وجنتيها ثم تقدمت نحوي بخطوات مسرعة و أعلاها يسبق أسفلها، مدت يدها و قالت:

- عفوا لم أعلم أنك وصلت، أنا إليزابيث شقيقة جيمي، ثم تبسمت وواصلت: و ابنة تلك السيدة الجميلة في المطبخ، و حفيدة سيد هذا البيت الرائع

صافحتها و أنا أتأمل وجهها مبتسما

-لقد بدأت أشك في أنكم تنوون قتلي لأن لا أحد قدم نفسه لي، لكنك فعلت أخيرا، هل هذه طريقتكم في استقبال الضيوف؟

- في الحقيقة ،لقد أخذنا هذا عن جدي، إنه يقول دوما أن أحسن طريقة لجعل الضيف يستريح هي أن تعامله كفرد في العائلة، أن تجعله يساعد في تحضير الطعام و أشغال البيت، و أن تتجنب المبالغة في الترحيب و المجاملة

- يبدو أن لجدكم مكانة مرموقة بينكم، فالكل يتحدث عنه و الكل يتشبه به، لا بد و أنه يتسم بشخصية قوية، بالمناسبة هل تسكنون معه هنا؟

- لا، نحن نسكن ببروكلين، لقد رافقنا جيمي الى مانهاتن بعدما ظفر بهذا العمل في المخبر، انها فرصة أيضا لنزور جدي في الحقيقة، تمنيت دوما زيارة التفاحة الكبيرة - مرحبا بك، ستجد بيت أبي و أمي ،و بيتي الذي أقتسمه مع صديقة لي ،و بيت جيمي ..لك عدة عناوين ترحب بك دوما -و هل أبوك هنا الآن؟

-لا ،انه لا يحب اللقاءات العائلية، أتعلم لماذا؟ لأن جدي يحب إزعاجه لأنه يعمل في مجال الموضة و الأزياء، و هذا يعتبر بالنسبة لجدي الذي شارك في الحرب العالمية الثانية ضد النازيين عملا نسويا، بل هواية نسوية..

تعالت أصواتنا بالضحك ثم هدأت البنت فجأة لما لاحظت خيال شخص عملاق يقترب بخطوات متثاقلة..

- أهلا جدي، انه فرانسوا ضيفك الذي عزمت على أن يقضي ليلته هنا  
تقدم الشيخ نحوي ماذا يده ليصافحني  
- مرحبا بك بني، لا يزعجك قضاء السهرة و الليلة معنا، أليس كذلك؟  
- انه شرف سيدي، لقد انقذتني من معاناة البحث عن النزل في أول  
ليلة أقضيها على هذه القارة  
- تعال لنجلس على الطاولة، فسني لا يسمح لي بالوقوف مطولا، أنت  
أيضا اليزابيث، أسرعي الى الطاولة  
اجتمعنا كلنا على الطاولة، جلست على يسار الجد، على يساري  
جيمي، تقابلني اليزابيث و والدتها..  
قالت السيدة:

- هل تتلوا علينا الصلاة فرانسوا  
كان سؤالا مباغتاً ، لم أتل الصلاة على طاولة الطعام منذ كنت  
صغيرا. رأت الأم حيرتي فاستدركت و قالت:  
- سأتلوها أنا لأننا لا نفهم الفرنسية على كل حال  
كم كان الأكل طيبا، لا أدري ان كان كذلك حقا أم أن طول السفر و  
شدة التعب تلاعبتا بالمستقبلات الذوقية على لساني، كل ما بدأت  
أشتاقه الآن هو وسادتي..و لكن يبدو أن السهرة لا تزال طويلة مع  
الجد الذي يسألني عن أحوال العالم و كأن الأخبار في أمريكا لا تنقل  
ما يحدث خارجها  
قال جيمي لجدته:

انه من فرنسا يا ثيودور، لما تسأله عن عرب افريقيا؟  
نظر الشيخ الي حائرا منتظرا مني التصحيح  
- معه حق سيدي أنا فرنسي  
- من أصل عربي؟  
-لا سيدي، أنا فرنسي أبا عن جد، اسمي فراسوا روسو

- يبدوا اسمك فرنسيا جدا، لكنك تبدو عربيا جدا، أعرف فرنسا و الفرنسيين جيدا، لأن والدتي فرنسية، و أبي ألماني، أما أنا فولدت في "بيتس بورغ" سنة 1922 ، ، لقد تسنت لي فرصة زيارة القارة العجوز كثيرا، لأنني اشتغلت في الأجهزة السرية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية، و كان دوري تزويد المعارضة الألمانية بالمال و السلاح، ثم اشتغلت كمحقق سري في الجيش الأمريكي الى غاية سنة 1958 حيث بدأت العمل لحسابي الخاص و دشنت مؤسسة تجارية بين المغرب و اسبانيا و أمريكا، وبسبب الأحداث السياسية في تلك المنطقة فقد تعرفت بالكثير من العرب أثناء حربهم التحريرية ضد فرنسا و شاركت في ربط الكثير من العلاقات و عقد الصفقات في ميدان الأسلحة و كل ما يتعلق بالحروب، كل هذا لأقول لك إنني لا أخطؤ في معرفة أجناس الناس من وجوههم

قالت الوالدة:

- في الحقيقة نادرا ما يخطؤ أبي في معرفة جنسيات الأشخاص قطعت اليزابيث كلام الأم قائلة:

- لكل شيء بداية جدي ثيودور، الخطأ وارد لأن فرنسا و بلدان شمال إفريقيا كلهم من دول البحر الأبيض المتوسط، و يتشابهون خلقا

- أنا أعرف هذا الوجه فرانسوا، وجهك يذكرني بشخص أعرفه جيدا

تسرب شيء من الحزن و الهدوء الى الجد، ما جعل الكل في حالة تساؤل..قطع جيمي الصمت بسؤال:

- هل هو شخص فرنسي؟

ضرب الجد الطاولة بقبضته اليمنى غاضبا من جيمي، و تكلم بصوت غليظ مختلط بسعال متقطع:

- هل تسخر مني جونيور، أقول لك عربي و تسألني ان كان فرنسيا؟

رفع جيمي كلتا يديه في حركة استسلام ، و بسمة الخوف مرتسمة على وجهه المحمر:

- كما تريد جيمي أوبال ثيودور، انه عربي، فرانسوا روسو أنت عربي

ضحك الجميع بما فيهم الجد لما نظروا إلي، لا أعرف أي وجه مضحك كنت ألبس، لكنني أعلم أن عقلي قد سافر بي الى تلك الليلة فوق نهر السين ،ربما لأنها كانت أول مرة أعرف فيها الرفض القاطع لعربي في نسبه للجنسية الفرنسية، أذكر قول العم ابراهيم أن فرنسا حاولت لمدة تزيد عن القرن أن تعلم الجزائريين أن الجزائر فرنسية، و طوال هذه المدة و الجزائريون ينددون و يرددون أن الجزائر جزائرية..بعدها بلعت ما كان في فمي من لحم، استدرت إلى الجد لأؤكد له جنسيتي:

-أنا فرنسي من أم فرنسية تسمى سارة دوبوا، و أب فرنسي اسمه فيليب روسو، لست من محبي العالم الشرقي كثيرا، لهذا فكل سفرياتني كانت في أوربا، سكن أهلي بميونخ الألمانية مباشرة بعد ولادتي، بقينا هناك ربما حتى بلغت الرابعة أو الخامسة من العمر لنستقر بباريس، رجعت الى ألمانيا كزائر بعد عشر سنين رفقة والدي، زرت لندن في مرحلة الجامعة لحضور بعض الأيام و المؤتمرات العلمية، كما زرت إيطاليا خصوصا من أجل بعض معارض اللوحات الفنية و رؤية المنحوتات المشهورة ،كانت هذه الزيارة رفقة والدتي فهي فنانة تشكيلية و مدرسة بمدرسة الفنون الجميلة بإحدى جامعات باريس، زرت اسبانيا أيضا من أجل رؤية قصر الحمراء ،قصر باهر بفن معماري اسلامي، لكن سيد ثيودور أبدا لم أطأ لا افريقيا و لا آسيا، و هذه أول مرة تطأ قدمي أرض قارة غير أوربا

قالت إليزابيث متألمة:

- أه كم أتمنى زيارة باريس

-ألم تشعر بفضول كاف لزيارة شمال افريقيا ،المغرب ،الجزائر، تونس؟ سألني ثيودور

-لا،لا،لا سيدي، أبدا

- و لماذا؟ ألا تحب السياحة هناك؟ انهم يملكون شواطئ لن تراها في أوروبا كلها

- أظن أن الأمن أهم عندي من المتعة، في الحقيقة لا أرى في تلك الناحية من العالم غير الصراع و القتل، و الإرهاب، لا أرى سوى الجهل و الجبروت، المجاعة و الأمراض لا سيدي، لا يستهويني شيء في بلاد المسلمين

- رأيت جدي، لست الوحيد الذي يرى التخلف و الهمجية في المسلمين.

تنهد الجد و هو يمد الكأس لحفيدته لتملأه بالنبيذ الأحمر و قال:

- انكم جيل كامل من الشباب الأحمق، أو همكم إعلام اليوم بأنكم تعرفون العالم حتى من دون زيارته، أو همكم أنكم حضاريون و أن باقي العالم مجرد مزبلة تاريخية، الأسوأ أنكم لا تملكون نية فتح أعينكم على الحقيقة الكاملة، جيلكم لا يرى إلا جزءا من اللوحة، تحكمون على الكتاب من جملة واحدة...عليكم حقا التوقف عن مشاهدة التلفاز و عن الاتصال بالشبكات الاجتماعية و البدء بالحياة الحقيقية خالطوا الناس من مختلف الثقافات ،انفتحوا على العالم لتكونوا آراءكم بدل تبني آراء أسيادكم، جيل كامل من الدمى المتحركة

-ما رأيكم أن ننتقل الى الصالون ان انتهيتم جميعكم من العشاء، تنتظركم حفلة عيد ميلاد أبي العزيز جيمي أوبال ثيودور

- أو، أريثا بنيتي، تعلمين أني مصاب بالسكري، سوف تقتلينني اليوم

تقدمت الوالدة من أبيها الشيخ، احتضنته و قبلته على خده:  
- تعلم أبي أنني أشواق لك دوما، لكن الانشغالات كثيرة ما بين العمل و البيت و أكاد لا أجد وقتا لزيارتك..ثم وقفت و بدأت بحمل الصحن مواصلة كلامها..لهذا أبي عليك أن تنسى أمر الحمية و أمر المرض لما أكون هنا، عليك أن تطلب كل ما تشتهييه من طعام قبل رحيلي..ثم استدارت الى أبيها..لكنني في هذه المرة سأكون مطمئنة أكثر عندما أرجع الى بيتي لأنني تركت معك جيمي جونيور  
-ضحك الجد بصوت محشرج وقال: بل أن الأوان لتقلقي، لقد تركت لي هذا المرض ليقضي علي

نظرت الى الساعة على حائط الصالون، الواحدة صباحا، اخرجت هاتفي محاولا الاتصال بالإنترنت لمعرفة الساعة بتوقيت باريس، لكن هذه الخدمة لم تكن متوفرة..لم أنتبه لشراء شريحة جديدة في المطار..سألت جيمي إن كان البيت مجهزا بالواي فاي فأخذ مني هاتفي، و بسرعة أرجعه لي بعدما كون بعض الأرقام على اللوحة، لقد أدخل كلمة السر ليتمكنني من الاتصال..في هذه الأثناء كانت أريثا و إليزابيث في المطبخ يجهزان كعكة عيد الميلاد فأردت اغتنام فرصة الهدوء للاتصال بوالدائي،يقول محرك البحث أن فرنسا تسبقنا بخمس ساعات ما يعني أن باريس تعيش الساعة السادسة صباحا من يوم الاثنين، والدائي يحبان النهوض باكرا، أستطيع تخيل أمي في المطبخ تجهز القهوة و تخيل أبي يبحث عن كل شيء و لا يجده، اتصلت عبر الماسنجر وما هي إلا رنة واحدة حتى أجابتي أمي، طمأنتها بأني وسط دفئ عائلي فريد لأريحها من قلقها،تكلمت مع أبي أيضا لأطمئنه، كما تكلمت مع آرثر الذي يبدوا أنه قضى ليلته في غرفتي ثم انضممت الى العائلة الأمريكية لأجلس هذه المرة قرب إليزابيث فترة ليست طويلة ..كثير تناؤبي ما جعل أريثا ترافقني إلى

غرفة في الطابق الأول، أرتني مكان الحمام، بابه يقع مباشرة مقابل  
بابي، ساعدني جيمي في حمل متاعي، تمنوا لي ليلة سعيدة، و كانت  
كذلك

أيقظني جيمي حوالي الساعة السابعة صباحا بطرقات على الباب  
- أسرع فرانسوا علينا أن ننطلق على الساعة و النصف لنلحق  
باجتماع اليوم

تسببت لغته الإنجليزية في تسرب الأدرينالين في عروقي، و في  
خفقان قلبي بسرعة ما جعلني أفقر من فراشي و ألبس و أغسل وجهي  
في مدة قياسية..نزلت الدرج لأتجه الى المطبخ لأجد أريثا رفقة الجد  
ثيودور يجلسان على طاولة صغيرة قرب الزجاج المطل على الحديقة  
الخضراء، لم أنتبه البارحة الى جمالها، لكن أشعة الشمس الساقطة  
على وجهها جعلت نورا يشع منها، عيناها بدتا شفافتان و كأنهما من  
الماس الخالص، اقتربت منهما خجلا و قلت:

- صباح الخير سيدة أريثا و يا سيد ثيودور  
-ردت أريثا بحفاوة :

- أهلا فرانسوا، تعال الى الطاولة و خذ كرسي، هل نمت جيدا؟  
- نعم، لا أتذكر شيئا منذ وضعت رأسي البارحة الى أن دق جيمي  
الباب قبل قليل  
قال الجد:

- و أين جيمي الآن؟

- انه يقوم بسخين السيارة في الخارج..قالت أريثا: اذن فرانسوا، ماذا  
يتناول الفرنسيون على مائدة الإفطار؟  
- حليب مع بعض البسكويت عموما، لكني أشرب قهوة لوحدها لو  
سمحت

دخل جيمي مسرعا و هو يصفق بكتنا يديه مصدرا صوتا مزعجا:  
- هيا أيها الفرنسي الكسول، تحرك ان كنت لا تريد التأخر في أول  
اجتماع، أرجوك أمي، صبي قهوته في كأس ورقي ليستطيع أخذها  
معه

شكرت الجد ثيودور و الأم أريثا على حسن استقبالهم لي متمنيا رؤيتهم مرة أخرى، و أوصيتهم بنقل سلامي الى إليزابيث التي يبدوا أنها تغط في النوم، حملت حقيبتتي الوحيدة و توجهت رفقة جيمي نحو الباب.

كنت أنظر بإعجاب الى شوارع مانهاتن، بدى لي كل شيء كبير الحجم، الطرقات واسعة، و البنايات شاهقة، الجسور العملاقة، حتى السيارات عريضة، تبدوا مدينة حديثة، على عكس باريس، فالشوارع عندنا ضيقة، و معظم البنايات قديمة الطراز، و كأنها مدينة أزلية موجودة منذ الأبد.. أعرف نيويورك من خلال أفلام هوليوود كمعظم سكان العالم، فقد نالت هذه المدينة من الشهرة ما لم تنله غيرها، أحببت زيارتها منذ صغري لما كنت أحسب نفسي مغني راب، ألفت حينها الكثير من الأغاني رفقة آرثر، تجولنا معا في الأحياء الفقيرة حيث يكثر العرب و السود و غيرهم من سكان أوربا الشرقية لنستلم الكلمات و المواضيع لأن المجتمع الفرنسي لم يكن ملهما لهذا النوع من الفن، و كما هو الحال اليوم، كنت متأثرا حينها بأغاني توباك، سنوب دوغ، دكتور دري، جايزي، و حتى إيمينام و فيفتي سنت، ثم وبعد مرحلة المراهقة وجدنتي أعشق أغاني البلوز القديمة، ما أريد قوله هو أن الثقافة الأمريكية غرست في معظم شباب العالم عبر السينما و الفن، و الأنترنت عن طريق الشبكات الاجتماعية و عبر الإعلام الأمريكي المتميز في طريقة وصوله الى قلوب الشباب.. بعد قليل من التفكير أظن أن هذا ما قصده الجد ثيودور لما ثار علينا ليلة البارحة و وصفنا بالدمى المتحركة في يد الإعلام، قد يكون محقا نوعا ما، لكن ابداع الأمريكان في مختلف الفنون حقيقة لا غبار عليها..

- أرجوا أن تأخذني يوما ما في رحلة سياحية لمدينة نيويورك، لا أظن أن هذه المدينة تخفي عنك شيئا

- معك حق فرانسوا، لا تخفي عني هذه الجميلة شيئا، أحفظها كعاهرة عارية. قال جيمي هذا و انفجر ضاحكا ضحكة اعتزاز  
- أنا معجب حقا بالفرد الأمريكي من حيث الإنتاج و بالحلم الأمريكي عامة، لكن يا صديقي ألا ترى أنكم من الناحية الأخلاقية تنحدرون من سيء إلى أسوأ؟

- لا يا جدتي، لا أظن ذلك أبدا، فالأخلاق أمر نسبي يختلف من مجتمع لآخر، لقد حدثت معي ذات يوم أن درست مع طالب من أصل هندي و أخذنا نتحدث عن النساء طبعاً كما هو الحال دائماً، و إذ به يتهم البنات الأمريكيات بالغير محتشمت لأنهن يلبسن سراويل قصيرة جدا حتى على مرأى أهلهن، فأجبتته أن نساء الهند من يسيؤون التصرف لأنهن يلبسن ثيابا غير محتشمة، ما رأيك كفرنسي في فتاة تعري بطنها على مرأى من الناس جميعا؟

-بيدوا الأمر غريبا قليلا

-هذا ما أردت قوله، أنت تعلم أن في إفريقيا قبائل لا تلبس نساؤها أي شيء لتغطي ثدييها، و هناك قبائل لا يغطي رجالها مؤخراتهم، فهل تظنهم سيؤوا الخلق؟

- معك حق فيما تقول، و لكني أتكلم كفرد ينتمي إلى العالم الغربي، أي نفس فريقك؟

- حتى العالم الغربي لا تحكمه نفس العادات و نفس القوانين، هل نستطيع مثلا المقارنة بين المجتمع النيويوركي و التكساسسي؟ في نيويورك، يمنع زواج الفتاة قبل بلوغها ثمانية عشر و إلا اعتبر زوجها بيدوفيل، بينما تتزوج الفتاة في التكساس ابتداء من عمر السادسة عشر، أرأيت؟ مع أن النيويوركيين أكثر انفتاحا إلا أنهم يحددون عمر الزواج بثمانية عشر، و مع أن التكساسيين أكثر انغلاقا إلا أنهم يسمحون بزواج البنت و هي في السادسة عشر.

- حقا، كل شيء نسبي، كل شيء

الثامنة إلا خمس دقائق، دخلنا قاعة صغيرة، ذات جدران بيضاء ناصعة، تتوسط القاعة طاولة كبيرة بلون القهوة، كل كراسيها شاغرة إلا ثلاثا، جلسنا أنا و جيمي و بقي الكرسي الأخير وحيدا، أطلقنا التحية على الموجودين، منهم من رد و منهم من لم ينتبه إلى دخولنا، استرقت النظر الى وجوه الحاضرين محاولا معرفة اختصاصاتهم العلمية من هياتهم الخارجية عبر نظرات خاطفة كي لا أبدو فضوليا مزعجا. يجلس بالمقابل مني رجل مسلم، واضح من لحيته الطويلة و قلنسوته البيضاء، ذا بشرة سمراء، لعله هندي أو باكستاني، لا يبدو أنه متخصص في مادة رياضية ربما متخصص في أحد العلوم الإنسانية، أضحكني قليلا وجود يهودي الى جانبه، عرفته من قلنسوته السوداء الصغيرة هو أيضا، صاحب شعر أسود و بشرة بيضاء، ظننت أن اليهود و المسلمون أعداء بالفطرة و منظر تجاورهم بدى هزليا نوعا ما، هناك ملتح آخر على يساري، لكن لحيته هوجاء و شعره أشعث طويل إلى مستوى كتفيه، شاربيه يخفيان فمه، يشبه علماء الآثار نظرا للباسه الغير مرتب و كأنه اعتاد الحياة على أراضي التنقيب القاحلة، على يمين جيمي شابة بيضاء وسيمة و لكن تنقصها بعض الرتوشات كي لا تميز عن فتيات العصر لأنها تبدو وكأنها نامت في أحد الكهوف مئة عام ثم بعثت، لباسها من الطراز القديم كما أن منظر نظراتها المعوجتين فوق أنفها، أضاف لها عشرون سنة من العمر على الأقل..سألت جيمي في همسة ان كان قد التقى بالمجموعة فرد بالإيجاب..

الثامنة تماما دخل الرجل الأخير، يبدو في عقده السابع، تقدم ناحية الكرسي الشاغر في رأس الطاولة لكنه لم يجلس بل بقي واقفا، تمنع

جيدا في وجوهنا ملقيا التحية الصباحية مبتسما، بدى حضوره قويا حتى قبل أن يتكلم، ربما بسبب لحيته البيضاء المقصوصة بعناية و هندامه الكلاسيكي الأسود، بعد تمنعه في النظر إلينا ثبت نظره إلي مبتسما و قال بصوت هادئ:

- لا بد و أنك فرانسوا، لأنني تعرفت على الجميع في جلسة سابقة لفترة وجيزة و لم أحب شرح سبب وجودكم هنا حتى تلتحق بنا لم ينتظر إجابتي ، فقد اكتفى بإيماءة من رأسي ليكمل كلامه - للعلم فقط فرانسوا لقد ترددت قليلا قبل أن أقبل ترشحك للإنتظام إلى هذه المجموعة ببساطة لأنك حديث التخرج من الجامعة و لم يسبق لك العمل في ميدانك، لكن حدسي ألح علي في قبولك فهل لك أن تخبرني لماذا؟

كان سؤاله مفاجئا ما جعلني أرتبك، خاصة و أنه صرح بأنني الوحيد عديم الخبرة بين الجميع.. جعلني الارتباك أفقد صوتي و لغتي، دفعتني كمية الأدرينالين الكبيرة للجوء الى جواب هجومي لأجعل الشيخ يجيب مكاني

- علي أن أعرف الهدف من هذه المجموعة لكي أعرف سبب اختيارك لي سيدي

نظر الجميع الي باستغراب، ربما لأنهم يهابونه الى درجة لا تسمح لهم بالكلام بهذه الطريقة الى من يترأسهم، فقد لاحظت اعتدالهم في الجلوس و صمتهم لحظة دخوله القاعة، و لكن وصفه لي بعديم الخبرة جعلني في موقف سيء و ما زاد الطين بلة هو جهلي بهدف المجموعة، لكن الرجل الأنيق و على عكسهم تبسم و قال:

- و هل يغير سبب وجودك هنا في ماهيتك؟

- بل سيغير في نوع المعلومات التي سأطرحها عليكم..كنت محرجا جدا بسبب النظرات التي تثقني من كل جانب فلجأت هذه المرة الى الفكاهة للحد من التوتر الساري في أعصابي فقلت:

- لو أنك أخبرتني أن الهدف هو تنظيم عرض للأزياء لقلت أن سبب اختيارك لي هو جمالي الخارق..

عم صوت الضحكات القاعة فجأة بما فيهم صوت قهقهة الرئيس، ما جعلني أوصل:

-و ان كان السبب هو تنظيم حفلة راقية لقلت ان سبب اختيارك لي هو لأنني فرنسي و الفرنسيون معروفون بذوقهم الرفيع و بالبروتوكولات في مثل هذه الأمور

قال جيمي ساخرا:

- يبدو أن الفرنسي قد أخذ دروسا في النسبية قبل دخول القاعة قال الرئيس:

- حسنا جواب موفق، سأشرح سبب جمعكم و انتقائكم من بين مئات المترشحين..جلس الرئيس على الكرسي الشاغر و نقر على زر فوق الطاولة أشعل به ضوءا أحمر يتوسط الجميع و استسهل في الشرح: بينكم جميعا قاسم مشترك واحد،انشغالكم الدائم و الجدي في البحث عن سبب و كيفية وجود الكون و عن وجود الحياة، و مثابرتكم حتى عند وصولكم الى طريق مسدود..اعتدل الرئيس في جلسته،شد ربطة عنقه قليلا وواصل كلامه: اسمي نيكولاس وايت و رأس مركز البحث و التطوير بجامعة مانهاتن منذ ما يقارب الخمس سنوات، في نفس الوقت أنا بروفيسور في الفيزياء النووية و أدرس عدة مقاييس في كليات عديدة، منذ حوالي ستة أشهر كلفني عميد الجامعة بالقيام ببحث حول موضوع نشأة الكون ،سببه و طريقته، بما في ذلك نشأة الحياة و خلق الإنسان، لنكون بذلك مرجعا حديثا تعتمد عليه برامج

التعليم بكل أطواره الأساسي، الثانوي و حتى الجامعي، طبعا تختلف النظريات حسب الاختصاصات العلمية، حسب الإيديولوجيات و حسب الديانات أيضا، و هناك من الأبحاث المعقدة السابقة ما قد يجعلكم تتساءلون ماذا ستضيفون فيما قد قيل من قبل؟ أجيبكم على هذا بأن ما سنقوم به و لم يقم به أحد من قبل هو حوار هادئ هادف بين العلم، الإيديولوجيا، و مختلف الديانات السماوية الموحدة، لأن هناك من الأسئلة ما عجز الدين عن شرحه، و منها ما عجز العلم عن شرحه، انطلاقا من كل ما قلت فقد طلبت ممن كلفوني بهذا العمل أن يكون بحثنا من صنف الحوار بين العلمي و الفلسفي و الإيديولوجي و المتدين، سنوثق الأفكار المشتركة و نتباحث فيما أختلف فيه، لهذا أذكركم أن كل ما سنقولُه هنا سيسجل عبر الكاميرات الموجودة في زوايا سقف هذه الغرفة، و عبر هذا الميكروفون المثبت وسط الطاولة، أعلم أن منكم من سيتعصب الى رأيه و هذا شيء محبب لي شرط أن نلتزم بالاحترام و بالحجة، هناك المكتبة الإلكترونية الجامعية ستكون في متناولكم إذا ما أردتم الإطلاع أو التأكد من معلوماتكم و سأزودكم بكمبيوتراتكم لاحقا، كما أني سأوصي بكم في الوسط الجامعي في حال أردتم الاتصال بأي أستاذ جامعي، ستكون لكم من الميزات في الحرم الجامعي ما لن تكون لأحد، ستختارون غرفكم في أي حرم جامعي، سيكون لكم حق الحضور الى أي محاضرة سنتم، و الى أي مكتبة سنتم، كل ما هو مطلوب منكم هو حوارات بناءة، ان كانت في هذه الغرفة فهذا جيد، ان أجريتم حوارات خارج القاعة و رأيتم أن توثيقها سيضيف شيئا الى بحثنا فافعلوا و شاركونا بها، في نهاية هذه المقدمة أخبركم أني لن أكون حاضرا معكم في كل جلساتكم و لكني سأواضب على رؤية و سماع التسجيلات يوميا، يمكنكم اختيار أوقات عملكم و أوقات راحتكم، في

حال غياب أحدكم لسبب ما و أرجوا أن لا يحدث هذا كثيرا فلا بد له من الاستماع الى التسجيل الذي فاتته لنكون جميعا في نفس مستوى التعمق، تذكروا فقط أن ما نبحت عنه هو الحقيقة و لا شيء سوى الحقيقة

ما أن قال الحقيقة و لا شيء سوى الحقيقة، برق في ذاكرتي كتاب السيد ابراهيم الذي أهدانيه في حفل توديعي، لقد قال أن الكتاب لا يحوي إلا الحقيقة، لم أفتحه و لم أدري عما يتكلم، بل إنني نسيت أين وضعته، أحسست بانزعاج شديد لأن الرجل كان منفعلا جدا لما أعطاني اياه و كأنه يمثل شيئا قيما عنده لأضيعة أنا بعد بضع ثوان و من دون الحصول على أي فكرة عن محتواه..بينما كنت أحاول التنقيب في ذاكرتي عن أي أثر قد يقودني الى مكان الكتاب فاجأني الأستاذ وايت بأن وجه كلامه لي قائلا:

- و الآن سيد روسو هل لديك فكرة لما اخترتك للمشاركة في هذا البحث؟ ستعرف لنا بنفسك كما سيفعل الجميع و تخبرنا إن كنت مؤمنا بالله الخالق أم لا لتكون هذه حصة تعارف و تفاهم عن خطة الطريق..تفضل فرانسوا

-أدعى فرانسوا روسو، عمري خمسة و عشرون سنة، أحمل شهادة ماستر اختصاص هندسة وراثية من جامعة باريس و أنا لا أدري فيما يخص الله، لا أجزم بوجوده و لا بإنكاره مع أنني من أصول مسيحية، لكنني أجزم الآن أن سبب قبولي ضمن المجموعة هو بحثي الدائم عن خلق الحياة و الإنسان خصوصا و الأرض عموما منذ أن تعلم عقلي طرح الأسئلة، وما دراستي للبيولوجيا إلا محاولة لعثور عن جواب يشفي فضولي

و هل وجدت الجواب؟ سألني البروفيسور

- درست نظرية التطور بإمعان سيدي، و درست الخلية الحية بما تحتويه من مكونات و عضيات، وغصت في دراسة الوراثة و الجينات و كلما تعمقت أكثر زادت حيرتي أكثر فأكثر، جوابي هو لا، ربما عرفت كيفية نشوء الحياة من كائن حي إلى كائن حي و لكني بعيد تماما عن فهم نشوء الحياة الأولى ناهيك عن سبب وجودها

- سأصارك فرانسوا، من أسباب وجودك بيننا اليوم اختصاص والديك، فأبوك زميل محترم في المجال العلمي، لقد حضرت عدة ملتقيات علمية كان هو أحد المحاضرين بها و رأيت من مقابلة العمل أنك عرفت من علمه، لمن لا يعلمون، أبو فرانسوا هو البروفيسور فيليب روسو وهو عالم في مجال الفيزياء الفلكية، إنك بانضمامك إلينا ستأتينا ببعض أفكاره و أعلم أنك ستسأله إذا لزم الأمر و بهذا سيعمل أبوك معنا كمستشار و بدون مقابل، كما أن والدتك تدرس الفنون الجميلة و هو نشاط انساني بحث من شأنه أن يساهم في بناء الفكر الذي هو نشاط انساني بحث أيضا، و الدور الآن لجيمي أوبال فلتفضل

-أنا جيمي أوبال، و لأننا سنكون مجموعة من الأصدقاء يمكنكم مناداتي بجونيور، عمري ثلاثون سنة، متخصص في الفيزياء الذرية، ما جعلني أختار هذا التخصص هو بحثي الدائم عن كيفية و سبب نشوء الكون، و بما أن الذرة هي الوحدة الأساسية لبناء الكون..ثم نظر إلي و كأنه يقصدني بكلامه. كما أن الخلية هي الوحدة الأساسية لبناء الكائن الحي، فقد خيل لي و أنا في المرحلة الثانوية أنني إذا تعمقت في دراسة الذرة سأحظى بفرصة فهم الحقيقة الكاملة

-و هل وجدت الجواب جونيور؟

- تبين أن الذرة مكونة من مكونات أصغر، و المكونات الأصغر من مكونات أصغر و هكذا، و تقول نظرية الانفجار العظيم أن البداية

كانت بانفجار شيء طوله أقل من طول بلانك و هو شيء يكاد يكون مستحيلا، غير متناهي الكثافة، لتفوق حرارته عند الانفجار حرارة بلانك و تتعدى سرعته سرعة الضوء و كل ما أتحدث عنه هم جدران لا يمكن تعديهم إلا ربما في هذه المرة

- هل تقصد أن العلم لا يفسر كيفية اختراق عدة جدران و تعترف أن الله من فعل هذا؟

- أنا لا أو من بإله الكنيسة، و لكني أعلم أن العشوائية لا تنتج شيئا بهذه الدقة

- لك الكلمة سيد طوماس

- اسمي طوماس جاكوزي، أنا أمريكي من أصول إيطالية من عائلة علمية جدا، فقد اخترع أجدادي مضخة المياه المستعملة في الري و المروحة الآلية المستعملة في الطائرات و الجاكوزي المعروف طبعا و غير هذا، و كنت أطمع لأن اكتشف شيئا يجعلني أستحق الانتماء لهذه العائلة، فاخترت موضوع البحث عن أصل المخلوقات لأصل في النهاية الى سر خلق المخلوقات، أنا عالم إحاثة مختص في دراسة أحافير الإنسان، احترفت مهنة التنقيب و البحث عن أسلاف الإنسان منذ أكثر من عقد الآن، عثرت على مستحاثات مهمة لأنها تشرح بعض حلقات التطور المفقودة منها ما وضع في بعض المتاحف و منها ما وجه الى عدة جامعات للدراسة، و حلمي هو العثور على مستحاثة أول انسان عاقل، أول هومو سابينس، أو من يدعى في الأساطير الدينية آدم

- واضح أنك لم تجده بعد، و أنك لا تؤمن بوجود الله الخالق

أوماً طوماس برأسه موافقا على كلام السيد وايت

- الدور لك سيد اسحاق روبنسون

- أنا اسحاق روبنسون أمريكي يهودي ،أنا مؤمن بوجود الله الخالق المذكور في التوراة، أنا متخصص بدراسة التاريخ خاصة الحضارات القديمة، و مذكرة بحثي كانت حول الحضارة المصرية، لقد اخترت دراسة الحضارات القديمة اعتقادا مني أننا كلما نزلنا في سلم التاريخ، كلما اقتربنا أكثر من المنبع الأول للإنسان، و أملا في وجود كتابات أو رموز قديمة تتحدث باسم أبينا آدم الإنسان الأول مع أن سفر التكوين يتحدث عن الخلق، لكن فضولي يحثني على البحث عن أول شهادة انسانية، تتكلم التوراة باسم الرب أما أنا فأبحث عن شهادة الإنسان العاقل عن أول وجود له

- هل من تقدم في بحثك؟ سأل السيد وايت

- أمل الفصل بين ما هو حقيقي و ما هو خيالي في الكتابات المصرية القديمة مقارنة ما وجدت مع ما جاء في التوراة

- الدور لك سيد راهول

- السلام عليكم، أدعى راهول محمد من الهند، أنا مسلم، أحترف مهنة الطب منذ عشر سنوات، مختص في جراحة المخ و الأعصاب، كما أنني حاصل على دكتوراه في مقارنة الديانات، ومهتم بعلم الفلك و الجيولوجيا، علم النفس و الفلسفة، ما يفرقني عن الأغلبية هنا و يجمعني مع السيد اسحاق هو أنني مؤمن إيمانا راسخا أن الله هو الخالق، و ما يجمعني معكم جميعا هو البحث في طريقة الله في الخلق و أسلوبه في صناعة الحياة

- ما الذي جعلك تهتم بكل هذه الاختصاصات؟

- تعاليم الله في القرآن الكريم، انه يأمرنا بأن نسير في الأرض لنرى كيف بدأ الخلق، يأمرنا بالتدبر في السماء و في الأرض لمعرفة سببانه أكثر، و يخبرنا أنه سيرينا آياته في الآفاق و في أنفسنا

- ألا ترى أن هذا قد يشككك في دينك؟ أعني أن قرآنكم نزل قبل أربعة عشر قرنا، فهل سيمكنه مجارات نتائج التكنولوجيا الحديثة؟  
- بل إنني أجزم لكم أن لا شيء في القرآن يناقض ما برهن عليه العلم الحديث و ستكون لنا حوارات حول هذا  
- لقد تعمدت ترك السيدة الجميلة لتكون آخر باحث في هذه المجموعة،  
تفضلي:

- اسمي نادية بن غوريون أنا إسرائيلية و لي جذور عربية أيضا، أمي إسرائيلية من يهود أمريكا، ابنة هذه المدينة بالضبط، و أبي لبناني مسلم، أنا فيلسوفة و مختصة في علم اللاهوت، درست الأديان الموحدة الثلاثة بعمق، كما درست علم النفس و توغلت في النفس البشرية باحثة عن الخفايا التي جعلت من البشر هذا الوحش المفسد و القاتل

- أستنتج إذن أنك مؤمنة نظرا لدراستك للأديان الموحدة الثلاثة  
- أنا يهودية الجنسية، لكن في الحقيقة لست مؤمنة بوجود ذلك الإله العادل الموجود في التوراة، أظن أن الله هو صنعة بشرية خالصة، جاءت مع تطور الإنسان في مرحلة من الوعي المتقدم أين وجد نفسه في تحدي قساوة الطبيعة لوحده، فكون فكرة الرب الذي يحبه و يحميه من خطر الطبيعة بل و يفضله على سائر الخلق

- حسنا إذن هذه مجموعتكم مكتملة، لا شك أنكم لاحظتم أن كل واحد منكم له أكثر من اختصاص و له من العلم ما يؤهله لفهم علم الآخر، كما قلت في البداية، أحب الشراسة في الدفاع عن القناعات لكن في إطار الاحترام، ليس لأحد الحق في المساس بمقدسات الآخر، ناهيك عن الشتم و السب، كما أنني أنوط على أمر مهم و هو الحجة، نحن بصدد بحث علمي البرهان فيه هو الفصل، يعني أن صاحب الحجة هو صاحب الحق، طبعاً هذا لا يلزم أياً منكم باتخاذ قناعات و مبادئ

شخصية جديدة، و لكن العلم سيأخذ مجرى البرهان و الدليل، أرجو أن يكون هذا قانوننا الوحيد ..

وقف السيد وايت و اتجه الى أحد زوايا القاعة أين توجد طاولة زاوية صغيرة تحمل على سطحها آلة لعصر القهوة، وضع بها كبسولة بن أخرجها من علبة بجانب الآلة، وضع كأسا ورقيا و ضغط على زر التشغيل ثم استدار إلينا مبتسما و قال : القهوة على حساب المخبر لمن يريد..

صوت المرأة الوحيدة في القاعة رن سائلا:

- أظن أن علينا الاتفاق على طريقة البحث قبل كل شيء، لأنها ما سيحدد الخطوط الكبرى للنقاش، كما ستجنبنا المحادثات الجانبية المضیعة للوقت و الجهد

حمل السيد وايت كوب القهوة في يده و بقي واقفا قرب الآلة  
- و ماذا تقترحين سيدة نادية؟

- أنا أقترح ما جاء في كتاب تقدم المعرفة للكاتب بيكون أنه لا بد أن نعتمد في بحثنا على العلل الفاعلة و المادية من أجل تحرير العلم من عقم تلك النتائج الحتمية التي تنتج عن خلط العلم بالميتافيزيقا  
ضحك السيد وايت بصوت خافت عندما نظر الى وجوهنا وقال :  
- هل أنتم موافقون؟

حك طوماس رأسه و علامة الاستفهام تملأ تفاصيل وجهه  
- هل بإمكان السيدة نادية التكلم بالإنجليزية، لأنني حقيقة لم أفهم ما قالته

سألنا السيد وايت:

- أليس بينكم من يستطيع الشرح؟  
نظرنا جميعا إلى أوجه بعضنا مستغربين  
- تفضلي إذن أيها الشابة لتشرحي لنا قصدك:

- حسنا، نحن نعلم أن كل العلوم التجريبية أو الطبيعية انبثقت كلها من الفلسفة، خاصة الفلسفة اليونانية التي أسست لعلم الرياضيات، و علم الفيزياء و الفلك و غيرهم تحت اسم فلسفة الطبيعة ،فكانت الفلسفة الملاذ العقلي لتفسير أي ظاهرة كونية أو طبيعية و بالتالي كان لا بد من ضوابط تضبط أي تفسير فلسفي-علمي، من أجل هذا وضع أرسطو أربع علل و هم الصورية، الغائية، الفاعلية، و المادية.  
قال جيمي ساخرا:

- عدنا إلى لغة الحطب

- سوف أضرب لكم مثلا لتبسيط الفكرة، تمثال داوود لمايكل أنجلو ، العلة المادية في التمثال هي المادة التي صنع منها التمثال و هي الرخام، و العلة الفاعلة هي الإجراء المباشر الذي جعل تمثال مايكل أنجلو موجودا بالفعل بتحويل لوح رخامي الى صورة التمثال، أما العلة الصورية فهي الشكل الذي تمت صياغته في التمثال و هو شكل داوود ،و أخيرا العلة الغائية و هي الهدف الذي وجد من أجله التمثال و هو تزيين بعض قصور فلورنسا

- قال السيد وايت بعدما جلس على كرسيه ثانية: بلغة بسيطة تقصدين أنه على حسب أرسطو، من أجل تفسير ظاهرة ما علينا إيجاد العلل التالية، مادة الظاهرة، الفعل و طريقة الحدوث، الصورة النهائية للظاهرة، و الغاية من الحدوث

- نعم مع أي أحب الحفاظ على الكلمات المتداولة و المعروفة علميا، إذن أرسطو ساوى بين العلل الأربعة في تفسيراته كلها و اعتبر أن أي تساؤل يغفل عن واحدة من هذه العلل الأربعة يعد تساؤلا قاصرا، أما سيكون فقد اعترض على ادخال العلة الصورية و العلة الغائية أي باللغة الإنجليزية يا سيد جيمي الصورة النهائية للظاهرة و الغاية منها

- سأل اسحاق روبنسون : لكن لماذا؟ ما المشكلة في الصورية و الغائية؟

- المشكلة هي أنهما يؤديان غالبا إلى الغيب، فمن أجل تحرير العلم من عقم تلك النتائج الحتمية التي تنتج عن الخلط بين العلم و الميتافيزيقا علينا الأخذ بالعتان المادية و الفاعلية فقط سألتها بدوري:

- أتقصدين مثلا أنه من أجل تفسير ظاهرة خلق الكون علينا الاعتماد على مادة الكون، طريقة حدوث الخلق، لكن نغظ الطرف عن الصورة النهائية لهذا الخلق كما نغظ الطرف عن سبب خلقه، و هذا الأخير ما ظننته أحد أهداف هذا الاجتماع حسب ما فهمت من السيد وايت في مقدمة الجلسة

- نعم هذا ما قصدته لأننا إن غصنا في الغاية سنصل حتما الى طريق مقطوع في وجه العلم و سنلجأ حينها الى الخرافات و الغيبيات، لأن العلم قد أثبت أن كل ما حدث كان نتيجة الصدفة و الضرورة

- ما رأي المؤمنان بالله الخالق؟ سيد راهول و سيد روبنسون  
- رد اسحاق روبنسون :لم تخطئ السيدة نادية لما قالت أن العلم الحديث يعتبر كل ما يحدث ضرورة و عشوائية، و لكن هلا تجيبيني من فضلك، هل فسر العلم كل شيء؟ هل فسر العلم كل الظواهر؟ هل وجد العلم أجوبة عن طريقة التخاطر بين الأشخاص مثلا؟ هل وجد العلم أجوبة عن شهادات موثقة لأشخاص دخلوا غرف الإنعاش و كانوا مخدرين تماما ثم حكوا كل تفاصيل الأحداث التي جرت داخل قاعة العمليات بل و حتى خارج القاعة بعدما استعادوا وعيهم؟، هل يخبرنا العلم عن الروح؟

- أنا لا أقول أن العلم بكل ما وصل إليه من تقدم يجيب عن كل الأسئلة، و لكن العلم يتطور بسرعة كبيرة، و ستأتي تفاسير جديدة

مستقبلا، ربما لا تعلم أن المعرفة الإنسانية في وقتنا هذا تتضاعف كل ثماني عشرة ساعة، بينما كانت تتضاعف كل سنة ابان الحرب العالمية الثانية

نظر السيد وايت الى وجه راهول و سأله:

- محمد، ما رأيك؟

قال الطبيب بصوت هادئ:

- منذ القديم و الإنسان يعتقد أن الله مسبب كل شيء حتى و إن وجد تفسير علمي للظواهر و هذا ما يطلق عليه اليوم اصطلاح المصمم أو التصميم، في زمن ثورة العلم التي أطلق شرارتها نيوتن عبر القوانين الفيزيائية التي وصل إليها خاصة قانون الجاذبية، مالت الكفة الى حساب الحتمية لهذه القوانين، و بالتالي اتجه الرأي العام العلمي الى تبني فكرة الضرورة أو الحتمية بالرغم من كلام نيوتن الصريح بأن القوانين وحدها لا تكفي بل يجب وضع الكواكب في أماكنها الدقيقة و هذا نصه بالضبط" بالرغم من أن هذه الأجسام في الواقع تستمر في مداراتها تحت تأثير قوانين الجاذبية، إلا أنه لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تستمد ابتداءا الوضع المنظم لمداراتها من تلك القوانين" ، أظن أن نيوتن أرجع اتزان الكواكب الى الضرورة حسب القوانين الفيزيائية و الى هيمنة مصمم ذكي و قوي ليضع القوانين التي صنعها هو قيد الاشتغال لأن القانون لا يشتغل لذاته، بل لا بد له من مشغل، بهذا لم يعر نيوتن أي اهتمام للصدفة، و اعتمد مبدأ التصميم، لكن في القرن التاسع عشر اكتشف العالم الفرنسي لابلاس أن الكواكب تصحح انحرافاتنا بنفسها، بينما اعتقد نيوتن قبله أن الله من يصححها، وجواب لابلاس معروف حين سأله نابوليون عن موقع الله من معادلات الميكانيكا للأجرام السماوية، فأجابه لابلاس" لست بحاجة لتلك الفرضية" ،طبعا كان هذا العالم يظن أن السديم هو أصل نشأة

النظام الشمسي تحت تأثير قوى الجاذبية الطبيعية و بالتالي أعطى الصدارة للضرورة على حساب التصميم، و منذ ذلك العهد تخلى العلم التجريبي عن نمط التصميم كتفسير للظواهر الطبيعية، ثم جاء داروين بنظرية الإنتقاء الطبيعي ليقصي التصميم في اختصاص علمي آخر و هو علم الأحياء، إلا أنه في نفس الوقت الذي استغنى فيه العلم التجريبي عن التصميم، استغنى أيضا عن نظرة لابلاس عن الحتمية في كل شيء، و مع ظهور ميكانيكا الإحصاء و ميكانيكا الكم، أصبح نمط الصدفة محل اعتبار في علم الفيزياء، و لأول مرة أفسح المجال لكون يتسم بالعشوائية و بالتالي اعتبر نمطي الصدفة و الضرورة هما النمطان الأساسيان للتفسير العلمي و لا يمكن الغاء أحدهما من أجل الآخر

تبسمت نادية ابتسامة عريضة و قالت مبتهجة:

- أخيرا هناك من يشاطرنى الرأي و يتكلم نفس لغتي  
رد الطبيب بهدوء مبتسما هو الآخر:

- أشاطرك معلوماتك و لكني لا أشاطرك الرأي، لأنني أؤمن بأن الله خالق كل شيء ، المادة، و القانون، و الفعل، لأن عقلي لا يستوعب وجود كل هذا النظام البديع من الشمس و الكواكب و المذنبات عبر الصدفة و الضرورة وحدهما، بل أعتقد بوجود مصمم ذكي، و مع ذلك فإن هذا الاختلاف لن يكون معرقلا كبيرا لأننا سننتق على الطريقة و النتيجة، و سنختلف حتما في الخالق و الهدف أي بلغتك سيدتي سننتق في العلل المادية و الفاعلية و سنختلف في العلل الصورية و الغائية

- يبدوا هذا منصفا بالنسبة لي.. قال السيد وايت.. في الحقيقة أنا متفائل جدا ،لأنني لم أظن أنكم ستبدؤون تبادل أفكاركم بداية من هذه الحصة و ها قد فعلتم بطريقة حضارية و مشجعة، الهدف من هذا اللقاء هو

وضع خارطة طريق ،أي تقسيم البحوث على حسب الإختصاصات، ستكون البداية معك فرانسوا روسو، سأعتمد عليك في بحث شامل يحتوي أحدث النتائج و النظريات حول خلق الكون، بداية تكوينه، الطريقة، ولإزعاج نادية قليلا ابحت عن الغاية هذا في المرحلة الأولى من النقاش ..غمزني بعينه وواصل..أظن أنك ستحتاج بعض المشورة من البروفيسور فيليب روسو، هل تظن هذا ممكنا؟

- طبعا سيدي، مع أني أحفظ محاضراته عن ظهر قلب من كثرة ما ألقاها علي في مناقشاتي العديدة معه

- هذا جيد، دورك جيمي في هذه المرحلة هو مساعدة فرانسوا في شرح كيفية خلق الذرات الأولى التي كونت هذا الكون الفسيح، كيفية تنويعها، كيفية اتحادها من أجل تكوين مركبات معقدة، هل هذا ممكن؟ - نعم سيدي سأفعل، سأريكم أن الطبيعة سباقة لاكتشاف القنبلة الذرية و بملايير السنين عن الإنسان الذي يظن أنه باكتشافها قد روض الطبيعة

- حسنا لقد شوقتنا، سيد اسحاق روبنسون ستناقش المادة العلمية المقدمة من طرف فرانسوا و جيمي حسب النظريات القديمة ،حضارية كانت أم دينية، أي الاعتقاد حول خلق الكون في الحضارة المصرية القديمة ان وجد، و ما جاء في كتاب اليهود المقدس أي التوراة ،هل بإمكانك ذلك؟

- من دواعي سروري سيد وايت

- سيد راهول محمد، سأؤجل صفتك كطبيب في هذه المرحلة ،لأستغل معرفتك المعمقة في مقارنة الديانات و خاصة ما جاء في كتاب المسلمين المقدس أي القرآن و أمل أن تحصل لنا منه عن الأجوبة التي عجز العلم عن تفسيرها، أقصد معلومات عن الخالق أو المصمم، و معلومات عن الغاية من الخلق، هل هذا ممكن؟

- طبعا سيدي، سأكون مستعدا متى شئتم ان شاء الله
- دورك أيتها الجميلة نادية، هو مناقشة الزملاء فلسفيا و خاصة اسحاق و محمد حول حقيقة وجود الله و الغاية من الخلق لأنهما المؤمنان الوحيدان في هذه القاعة، هل بإمكانك ذلك؟
- سأكون سعيدة بذلك، أرجوا أن يتحلوا بروح رياضية و أن يتقبلوا الهزيمة، و أن يحترموا رأي الأغلبية الملحدة هنا
- مع أنني لم أستلطف اليهودي و المسلم بعد، إلا أن كلام الإسرائيلية استفزني، و تكبرها أزعجني و أنطقني دون أن أعي:
- ما هم عليه الأغلبية؟
- على الإلحاد..ردت واثقة
- من هم الأغلبية؟
- أنا، أنت، جيمي، طوماس و السيد وايت
- أنا لست ملحدا سيدتي، لست مؤمنا حقا و لكن لست ملحدا أيضا، أنا لا أدري
- اللا أدرية هي مرادفة عصرية للإلحاد، و مع ذلك لا تزال أغلبية
- و أنا لا أؤمن بالله الإنجيل، لكني أؤمن بوجود مصمم..قال جيمي قطع السيد وايت جدالنا قائلا:
- حتى أنا لم أقل رأيي في قضية الإيمان و قد صنفنتي اللطيفة نادية ملحدا، و ها أنا أوازن الكفف، في الفريق مؤمنان، ملحدان، ولا أدريان من أصل مسيحي و هذا يلزم الجميع باحترام رأي الآخر، ثم إنني أنبهكم أن الحقيقة لا تتبع الأغلبية دائما، فحين كان الناس يظنون أن الأرض مركز الكون، و أنها ثابتة، جاء كوبرنيكوس و خالف الجميع قائلا بأن الأرض ليست إلا كوكبا ضمن مجموعة من الكواكب و أنها تدور، و قال داروين بأن الإنسان لم يظهر إلا بعد ملايين السنين من خلق الأرض بينما كان الاعتقاد السائد أن الأرض خلقت

من أجل الإنسان، و لهذا فأنا أذكركم مرة أخرى أن الفيصل الوحيد بيننا هو البرهان

- سيدي ،لم تعطني أي واجب منزلي أقوم به..قال طوماس ساخرا  
لتعم الضحكات المكان

- لا تتسرع طوماس، سيكون دورك حاسما في المرحلة الثانية من النقاش و التي ستدور حول خلق الإنسان ،سيكون بحثك مكملا للبحث الذي سيقوم به فرانسوا حول نشأة الحياة على الأرض، فهل هذا ممكن؟

- طبعا سيدي..قلناها بصوت واحد أنا و طوماس  
- لم يتبقى لكم سوى اختيار الإقامة الجامعية التي ستمكثون فيها، اختيار أوقات العمل ،ثم ستتجهون بعدها الى الإدارة لإمضاء عقود العمل تحت الشروط المتفق عليها سابقا

- أظن أن أحسن إقامة هي هذه التي تجاورنا ،سنكون قريبين جدا، ولن يتحتم علينا أخذ أي وسيلة مواصلات و بالتالي تفادي سبب من الأسباب المحتملة للتأخر ..قال جيمي..أما عن الوقت فأظن أن الساعة التاسعة صباحا ستكون مناسبة للجميع، ما رأيكم؟

- قال الطبيب: كنت أفضل البدء مبكرا، لكن ان كانت الساعة التاسعة مناسبة للجميع فلا بأس

- سنقطع المقابلة منتصف النهار من أجل الغذاء، لنرجع الساعة الثانية زوالا الى غاية الخامسة مساءا ..أضاف جاكوزي

- نظر السيد وايت الى وجوهنا جميعا ليقرأ إشارة الجواب وقال: هذا جيد بالنسبة لي، هل هناك من يرى رأيا آخر؟

قلنا جميعا:

- بل هذا جيد

- أمامكم شهر على اللقاء القادم، يوم الإثنين الأول من الشهر القادم سنجتمع في محاضرة حول نشأة الكون من تقديم صديقنا فرانسوا روسو، الى ذلكم الحين، ركزوا جيدا وابتحوا في موضوعاتكم و في مواضيع زملائكم، لنكون متقاربين في أفكارنا..رفع كلتا يديه في حركة بهلوانية وأنهى كلامه بقوله: أراكم لاحقا

أول ما فعلته بعد إمضاء العقد الذي يجمعني مع مخبر البحث العلمي، هو الذهاب مباشرة الى الغرفة الجامعية أين وظبت ألبستي داخل خزانة حديدية، علقت على كل حائط في الغرفة صور أبي، أمي، آرثر، صوفي كما لم أنسى صورة المرأة الجميلة التي أراها في منامي و التي أعدت رسمها حديثا مستعملا الألوان في هذه المرة عكس المرات السابقة التي استعملت فيها قلم الرصاص ، ابتعدت عنها مسافة مترين و قلت مبتسما :نعم ،أنت أيضا من أفراد أسرتي..تمعنت قليلا في الغرفة، رغم أنها صغيرة نسبيا إلا أنها جميلة و نظيفة، بها مكتب صغير، خزانة، سرير، مطبخ صغير و حمام ،أخذت حماما ساخنا عله يخلصني من أثر السفر و الاختلاف الزمني ثم استسلمت الى النوم عبر أطول قيلولة قمت بها في حياتي كلها حتى استيقظت على طرقات الباب، نظرت الى الساعة، السابعة مساء، من عساه يطرق بابي؟ فتحت ..طبعا و من يكون غير جونيور

- ظننتك مت يا صديقي، ألا تزال نائما؟

- لم أعد كذلك بعدما طرقت الباب

- هيا، ارتدي ثيابك لنخرج، و إلا تحولت الى رجل الكهوف

- حسنا أدخل و انتظرني على المكتب بينما أستعد

خرجت رفقة جونيور، وجدنا طوماس ينتظر أسفل البناية، رحب بوجودي في الولايات المتحدة، و دلنا على سيارته الكاديلاك السوداء المعدلة

- مرحبا بك على متن العضلة الأمريكية صديقي الفرنسي، معي أنا وجيمي ستتعلم التقاليد الأمريكية على أصولها.. و أتم جملته بقهقهة مزعجة

- هل تعرفان بعضكما من قبل؟

رد جيمي:

- لا، لكن اكتشفنا أن لنا اهتمامات مشتركة، ربما ستشاركنا أنت أيضا، نحن في طريقنا لاكتشاف ذلك، أم أنك تظن أنني اخترت هذه الإقامة بالذات لأنها قريبة من المخبر حقا؟  
- لما إذن؟

- ان هذه الناحية من المدينة هي الأروع على الإطلاق، أولا لأن بها عدد كبير من البارات المستقطبة لأجمل الفتيات، الأمريكيات و السائحات من كل العالم  
- فهتمت ،وثانيا؟

رد طوماس:

- لأن فيها أجمل عدد كبير من البارات المستقطبة لأجمل الفتيات الأمريكيات و السائحات من كل العالم.. و تعالت القهقهات  
- هل لك صديقة في باريس؟ سألني جيمي  
- ليس حقا، لا أحب الارتباط الجدي، و لا أحب النساء الشاعريات ، ولا الطائشات

- أي نوع من النساء تفضل إذن

-أحب النساء المصراحات أنهن يبحثن عن المتعة، سواءا كانت متعة جسدية أو متعة قضاء الوقت الممتع

- ضرب جيمي كتف طوماس بقبضة عنيفة و قال ضاحكا:
- لقد أخبرتك أنه سينظم الى الفريق
- لقد بدوت لي من النوع الجدي داخل القاعة، لقد أخطأت في تقديرك
- هذا لا يمنع ذاك، أنا حقا جدي في عملي و فيما يحتاج الجد، لكني
- مرح جدا وقت المرح
- وهذا هو المطلوب فرانسوا
- أتعلم؟ أنت الوحيد الذي لم أخطئ في تكهن اختصاصك العلمي
- طوماس، لقد ظننت المسلم مختص في علم انساني، وظننت
- الإسرائيلية مختصة في الرياضيات، و لم احزر بالنسبة لباقي
- الحضور
- أنا أكره المسلمين بالفطرة.. قال جونيور
- أخيرا أنت تختلف عن جدك في شيء
- لا أدري لما يحبهم، عندما يحكي مغامراته معهم، وأشاهد همجيتهم
- في الأخبار أشك في صحة جدي العقلية
- أو أنه رأى في نساءهم ما لم يره في الأمريكيات.. قال طوماس
- ساخرا.. ألم تر كيف تخفين أجسادهن و رؤوسهن تحت أمتار من
- القماش، لعل في أجسادهن أعضاء جنسية زائدة، نحن نؤمن بالتطور
- ،ولأن العرب مريضين جنسيا لعل نساءهم طورن شيئا ما جعل جدك
- يهدي
- ألا تظنان أنكما عنصريان جدا بهذا الكلام؟
- عليك أن تتقبل أنك أكثر تطورا أيها الرجل الأبيض
- أوقف طوماس سيارته عند أحد الأرصفة، نزلنا وتبعتهم الى بار به
- صف طويل من الشباب الذين ينتظرون دورهم للدخول، لكن جيمي
- غمزني فتابعته، توجه الى البواب و همس له شيئا في أذنه فإذا بالأخير
- يفسح لثلاثتنا المجال للمرور.

يعج المكان بالشباب، موسيقى صاخبة، كل ألوان الطيف مشتعلة  
برئاسة اللون الأحمر الغالب على المكان، ساحة الرقص تتوسط البار  
ممتلئة براقصين محترفين و مبتدئين، لمح جونيور طاولة فارغة في  
الطابق العلوي فاصطحبنا إليها، ما إن جلسنا حتى طلب جيمي ثلاث  
طؤوس كبيرة من البيرة و ثلاث كؤوس ويسكي، تبسم لي و قال :  
- هذه بداية السهرة، لا نريد أن نفقد وعينا قبل منتصف الليل على  
الأقل

- طبعاً، فلدينا الكثير من العمل غدا  
نظر الي طوماس نظرة ساخرة و قال:  
- ليس لدينا عمل غدا، الموعد القادم بعد شهر، غدا سننام الى وقت  
الظهر، لعل آثار الكحول ستختفي الى ذلك الحين  
ثبت نظر جيمي ناحية الساقبي و قال متعجبا:  
- أنظروا عند المشرب ، أليست تلك الفيلسوفة الإسرائيلية؟  
بعد التمعن جزمت:

- نعم ،انها هي  
- لا تقل لي إنك ستعزمها للإنظام إلينا..قال طوماس في لهجة المحتج  
- و لم لا؟ سيكون اجتماع تعارف حقيقي، بدون أقنعة المثقفين، و  
بدون كاميرات و لا ميكروفونات  
- حسناً، لم لا تعزم المسلم و اليهودي لكأس من الويسكي ،ولا تنس  
أن توصيهما بارتداء قلنسوتاهما، سيكون ذلك رائعا  
- لا بأس بنادية طوماس، لا تكن شريرا، كفاك عنصرية..قلت  
لطوماس معترضا  
- لم لا تنزل أنت بوجهك الملائكي لتعزمها فرانسوا  
- و لم لا، سأفعل

هبطت الدرج و توجهت بصعوبة نحو المشرب بسبب حشود  
السكرارى الراقصين الى أن وصلت بجانبها، استرقت النظر الى ما  
تشربه فكانت ثلاث كؤوس صغيرة الحجم ما يعني أحد أنواع الكحول  
القوي، لم أرد مفاجأتها فأخذت كرسيًا طويلًا بجانبها و قلت للساقى:  
-كأس من نفس ما تشربه السيدة

لم تنظر إلي، لكنها وجهت كلامها الي قائلة:

- إن كنت تحاول استمالتى فأسلوبك رديء جدا

نظرت إليها بإمعان هذه المرة، لقد غيرت من هيأتها الصباحية، لم تعد  
ترتدي تلك النظارتين البشعيتين، أسدلت شعرها الأسود المتجدد على  
كتفيتها ، و لونت وجهها ببعض مساحيق التجميل، كما ارتدت قميصا  
زهريا يكاد يكشف ما تحته وتنورة سوداء بالكاد تتجاوز محاسنها، ما  
جلب انتباهي أكثر هو جسمها الرياضي الخالي من الدهون

- هل اكتفيت من التمتع أم أنك تريد أن أريك ما يوجد تحت القماش؟

- عفوا نادية، لم أقصد إزعاجك، كل ما في الأمر هو أنني أردت  
عزمك للالتحاق بطاولتنا

تفاجأت الإسرائيلية لما ذكرت اسمها ونظرت إلي بطريقة فاحصة  
،ربما لأنها لا تضع نظارتها

- أنت إذا، فرانسوا! أتقضي أول يوم لك على هذه القارة في بار؟

- للأسف جونيور هو صديقي الوحيد، علي بمرافقته أينما ذهب لكي  
لا أبقى وحدي، ويبدو أنه من رواد هذا المكان

- أهو هنا؟

- نعم..وأشرت بإصبعي الى الطابق الأول نحو الطاولة..في الحقيقة  
هو من رآك أولا و أراد عزمك

نظرت نادية باتجاه الطاولة رافعة يدها لإلقاء التحية، رد عليها جونيور  
و طوماس بنفس الإشارة

- من معه؟

- انه طوماس، عالم الإحاثة

- في الحقيقة كنت أريد البقاء وحدي، لكن لا بأس فليس من اللطف رفض عزيمة

سهرنا معا الى ساعة متأخرة من الليل، تبادلنا أطراف الحديث، شربنا حتى الثمالة، ثم حجت عني ذاكرتي و لم أتذكر إلا و أنا أفتح عيناى في غرفة لم أعرفها بألم يقطع توصيلات مخي، تفاجأت لما وجدت بجانبى جسدا عار لفتاة نائمة، لم أعرفها سريعا لأن وجهها لا يقابلني، لكن من الشعر الأسود المجدد عرفت أنها نادية، شعرت بخجل شديد لما اكتشفت أنى عار تماما أنا أيضا، أحسست بمغص شديد في معدتي و برغبة في التقيؤ، حاولت النهوض خلسة ليتسنى لي وضع بعض الثياب على جسدي المرتخي بسبب آثار الكحول، لكن ما ان تحركت حتى فاجأني صوت نادية سائلا عن الساعة من دون أن تفتح عينيها، نظرت يمينا و شمالا في الغرفة، عرفت أنى في غرفة جامعية لأنها تشبه غرفتي إلا أن المكان أحسن توضييا، وقعت عيناى على مكتب منظم عليه بعض الكتب، إطار متوسط الحجم يحتوي صورة لنادية مرتدية زيا عسكريا و صورة لطفلين في سن العاشرة تقريبا، و ساعة مكتب تشير إلى الحادية عشر، نظرت إلى النافذة وقلت في نفسي: صباحا

غادرت الغرفة رفقة نادية و توجهنا إلى كافيتريا قريبة، طلبت كوب قهوة و طلبت هي نفس الشيء ،غير أن ما فاجأني هو إخراجها لقارورة كحول صغيرة كانت تضعها في الجيب الداخلي، وافراغ كمية في كوب القهوة، أصابني ذلك بالغثيان لأنى ما زلت أعاني من أثر الشراب، نظرت إلي وقالت:

- لا تحاكني

- أنا لا أفعل

بعد خمس دقائق من الصمت المزعج سألتها:

- أنا لا أتذكر كيف رافقتك الى غرفتك

ضحكت نادية حتى رأيت أضرارها الخلفية، ارتحت لذلك لأنني كنت خجلا بعض الشيء، ثم قالت:

- لقد كنت في حالة يرثى لها من الثمالة، بعدما غادر جونيور رفقة فتاة رقصت معه في الملهى، و غادر طوماس رفقة أخرى ،وجدتني رفقة صبي صغير يبحث عن أمه، و لأنني لا أعرف غرفتك وجدتني مضطرة لأخذك معي لكي لا ترمى في الشارع ساعة اغلاق البار -أتقصدين أنه لم يحدث شيء بيننا ليلة البارحة؟

قهقهت ،ثم تنهدت و قالت

- كم افتقدت هذه البراءة عند الرجال، اطمئن ، حالتك الفيزيائية لم تكن لتسمح بحدوث شيء

- ولكن لما كنا عاريين؟

-أن أكون عارية في مضجعي فهذا أمر عادي، أما عن وجودك تحت غطائي برفقتي فالجواب عندك فرانسوا، أظنك تخاف النوم بمفردك أحسست بانزعاج شديد و بخجل جعلني أتجنب النظر مباشرة في عينيها ،أحسست أنني أريد تغيير الموضوع فتجرات و سألتها

- رأيت صورتك في الزي العسكري

- انها من ذكريات الخدمة العسكرية في اسرائيل

- تقصدين انك كنت منخرطة في الجيش؟

- لا، كنت مجندة احتياطية، في إسرائيل حتى النساء يقمن بالخدمة العسكرية

- هل قمت بعمليات عسكرية حقيقية؟

- هل سألتك عن أمك التي بت تناديها طيلة الليل؟

- يمكنك ذلك إن أردت
- حسنا، ماذا حلمت ليلة البارحة؟
- كيف عساي أتذكر ما رأيته في منامي و أنا لم أتذكر ما رأيته و أنا مستيقظ
- كنت تقول :أنت أيضا أُمي، و ظلت تكررهما مرات عدة، كنت تقول: كل شيء سيكون على ما يرام
- في لحظة استرجعت صورة المرأة التي أراها في منامي أحيانا، و تذكرت حلمي المعتاد
- بما أن لك رصيد في علم النفس سأخبرك، إنها امرأة أراها في منامي منذ كنت صغيرا، لقد حفظت معالم وجهها من كثرة ما رأيته، أراها تجري حاملة صغيرا بين يديها و تبكي، يخيل لي في المنام أني ذلك الطفل، أراها تنظر إلي بعينان مغرورقان و تقول : كل شيء سيكون على ما يرام، هل لك أن تتفلسفي قليلا و تحللي شخصيتي
- هل أنت طفل متبنى فرانسوا؟
- لا، قطعاً لا
- هل علاقتك بأمك جيدة؟
- بل ممتازة، مع كلا والدي
- لا أدري، لكن المؤكد هو أنك فقدت شخصا عزيزا عليك في صغرك
- لا أظن ذلك، و إلا لكانت أُمي لتخبرني بالأمر، لقد أقلقها هذا الأمر كثيرا إلى درجة أنها ألزمتني برؤية مختص
- وماذا فعل المختص
- تدعى الدكتورة هيلين، ما فعلته هو أنها أفقدتني عذريتي
- جعل كلامي نادية في حالة هستيرية من الضحك، بعدما استنفذت دموعها قالت:

- اعذرني فرانسوا، لكن فيك شيء من البراءة لم أعهده من قبل..فكرت برهة و هي ترفع شعرها من على وجهها و سألتني: لقد قلت أنك تحفظ تفاصيل وجه المرأة، هذا يعني أنك ترى نفس الوجه في كل مرة

- حقا

- ما يعني أن للمرأة وجود حقيقي، و أن لها مكانة عزيزة في نفسك، ربما تكون حاضنة لك، أقول هذا لأنك ناديتها بأمي، و هذه مكانة لا تمنح إلا للعزيز

- لم يسبق لي أن ناديتها بأمي، لعلني رأيت أُمي في منام البارحة و اختلط الحلمان، ومع ذلك فإني أرتاح حقا لرؤيتها، و لو كانت احدى حاضناتي كما قلتي لتمكنت أُمي من معرفتها، لقد رسمتها مرات عدة - أنت ترسم إذا

- نعم، لقد علقت صورتها قرب صورة أقاربي

- هل لك اخوة؟

- لا، لكن لي صديق اسمه آرثر، كلما حاولت استكشاف احساس الأخ، تراءت صورته في ذهني، اظنه سيستولي على والداي أثناء غيابي، هل هذا القدر من الصراحة في تفاصيل حياتي يخولني لأسألك عن حياتك؟

- حياتي عبارة عن قاذورة كبيرة، لا أنصحك بالاقتراب منها و إلا تلوثت روحك

- ملحة تتكلم عن الروح؟

- بالمعنى الاصطلاحي، أنا نتيجة لزواج مستحيل النجاح من أب عربي مسلم و أم أمريكية يهودية، هل يكفيك هذا لتخيل الجحيم الذي عشته طيلة فترة طفولتي؟

- يبدوا الأمر صعبا، فالأخبار لا تخلوا من أحداث المواجهات بين الإسرائيليين اليهود و العرب المسلمين، كيف حدث واجتمعا؟
- لقد آمنا بالحب، ووثقا في ربهما المشترك ثم لم يلبثا أن عرفا أن الحب مجرد وهم و أن ربهما لا يأبه لهما، لا أذكر يوما واحدا مر بسلام و بدون ضجيج أثناء إقامتي بجنوب لبنان، كل يوم يدخل أبي سكران و ينعت أمي باليهودية النجسة، وكأن بنات الملاهي اللاتي يقضي معهن الليالي الحمراء لسن كذلك، وكانت أمي تنعته بالعربي الهمجي المتخلف، الى أن بلغت سن الثانية عشر أين أخذتني أمي و فرت الى إسرائيل، وقررت جعلني يهودية متدينة
- هل كنت مسلمة قبل ذهابك الى إسرائيل؟
- كنت مسلمة في حضور أبي و يهودية في حضرة أمي و ملحدة مع نفسي، يكلمني أبي عن بطولات محمد و تكلمني أمي عن بطولات موسى و داوود و سليمان، و كنت في نفسي أقول لا أبي يقتدي بمحمد الذي لم يشرب الخمر يوما و لا أمي تشبه موسى الذي لم يقبل تكبر فرعون على قومه و لا تكبر قومه على أقوام آخرين
- أنت بهذا تؤمنين بالرسل
- أوّمن أنهم رجال تركوا بصمتهم في التاريخ، أنهم منهم حكماء في أقوامهم طغاة في غيرهم، ومنهم مقلدين لحكماء سبقوهم، مثل كل رجال التاريخ، حتى هتلر كان بطلا في أعين النازيين، لكنه مجرم في نظر اليهود
- اذا لم تهودي بعد ذهابك الى إسرائيل
- فعلت في البداية، واقتنعت أننا شعب الله المختار، قررت حينها ترميم حطام نفسي أو إعادة بنائها، بعدما أنهيت دراستي الجامعية التحقت بالجيش لتأدية الواجب

سكنت نادية و نظرتها ثابتة في الكوب الذي تحمله بين يديها ، سرحت في ذكريات أبعد من أن أتمكن من تخيلها ..أضافت كمية من الكحول الى كوبها و قالت

- لم تسألني عن بنتاي في الصورة

تفاجأت قليلا و قلت بابتهاج

- الجميلتان في الصورة، لم أعلم أنهما بنتاك، أين هما الآن؟

- انهما مع أمي في تل أبيب، أردت أن آتي بهما الى أمريكا لكن أمي أصرت على إبقائهما في الأرض المقدسة على زعمها، أسرت أن ينشأ نشأة يهودية صحيحة، لأنها تظن أن إخفاقي سببه نشأتي الإسلامية

- وكأنك توافقها على أنك أخفقت، بالنسبة لي أنت ناجحة، لا تزالين شابة و قد عاينت الحياة من كل زواياها، عشت في مجتمعين متضادين، أخذت ثقافتين مختلفتين، حصلت على شهادة جامعية محترمة، انخرطت في الجيش، تزوجت و أنجبت و ربيت بنتين جميلتين و هاجرت مرتين، تبدوا تجربة ثرية جدا

- في كل تجربة خضتها خسرت شيئا من نفسي، و أحسني الآن مفلسة روحيا

- لماذا؟

- تريد أن تعرف كل شيء في جلستنا الأولى، ألا تظن أنك تطلب الكثير؟

- بلى، عفوا على طفلي، لم أنتبه لنفسي، فحياتك مثيرة و غنية بالتجارب ما جعلني أتحمس و أنسى أصول الحديث

رجعت الى غرفتي و أنا أحس و كأني غر يكتشف العالم من حوله، فحياتي تبدوا مثالية و خالية من الأحداث، حان وقت الغذاء لكن لم

تكن لي رغبة في الأكل فآثار الكحول لا تزال تزعجني، قررت مهاتفة أبي لأطلب منه مساعدتي في بحثي، تشير الساعة الى منتصف النهار و بضع دقائق، حسب الإختلاف الزمني بين نيويورك و باريس، هم يسبقوننا بخمس ساعات ما يعني أنها الخامسة مساء بتوقيت باريس، تبدوا ساعة مناسبة للحديث، رفعت هاتفي مستعملا الأنترنت عبر ?الواي فاي لأنني لم أتذكر شراء شريحة هاتف جديدة، أدخلت كلمة المرور التي حصلت عليها من ادارة الإقامة سابقا، شغلت الماسنجر واتصلت بأبي، بضع رنات حتى سمعت صوت أمي في نبرة اشتياق حاد

- أهلا بني، كنت في انتظار اتصالك، أين أنت الآن؟ هل أنت بخير؟  
لقد اشتقت إليك كثيرا  
- أهلا أمي، أنا أيضا اشتقت إليكم، نعم أنا بخير، أنا الآن في حجرتي بإحدى الإقامات الجامعية الممتازة بمانهاتن، انها قريبة جدا من المخبر الذي أشتغل به.

- هل تتأقلم مع محيطك الجديد؟، هل كونت أصدقاء جدد؟  
- رويدا أمي، أنا هنا منذ يومين فقط، لكني أطمئنك أن رفاقي بالعمل ممتعين و قد بدأت قضاء بعض الوقت معهم، أخبريني ألا يزال آرثر معكم بالمنزل؟

- نعم، لقد رجوته ليبقى معنا و لو لبعض الوقت، لعله يملؤ بعض الفراغ الذي عم البيت بعد رحيلك، ثم انه شاب صالح، انه يساعدني في كل أعمال البيت، وفي شراء كل المستلزمات اليومية  
- هذا جيد شرط أن لا يحتل مكاني في قلبك  
- لا أحد يستطيع أن يفعل عزيزي

-أريد أن أسألك عن هدية أضعتها يوم حفلة وداعي، انها من السيد ابراهيم، سلمني إياها و رحل فوراً، كل ما أذكره هو أنه كتاب لكن لم يتسنى لي النظر إليه

- لم أجد أي كتاب، هل فتشت في حقائبك؟

- لقد أضعته في حينه، لم يتسن لي وضعه مع أمتعتي، هل من الممكن أن تبحثي عنه من أجلي

- حسناً سأفعل، وان لم أجده يمكنني الاتصال بالسيد ابراهيم ليعطيني عنوان الكتاب و سأجده حتماً في مكتبات باريس

- لا تفعلي أُمي، وإلا ظن أنني لم آبه لهديته، سيظهر الكتاب عاجلاً أم آجلاً، هل أبي بالبيت؟

- نعم إنه في مكتبه كعادته، لقد ترك هاتفه معي لكي لا يزعجه أحد - هلا تزعجيه قليلاً من أجلي ؟

لحظات حتى سمعت صوت أبي بنبرة من دخلت أحباله الصوتية في سبات

- كيف حالك بني؟

- أنا بأحسن حال أبي، هل مازلت تبحث عن المعادلة الواحدة التي تسيّر الكون؟

- أنا دائماً كما تعرفني

- أريد مساعدتك في بحث أقوم به من أجل عملي، لقد طلب مني كتابة بحث حول خلق الكون، لأن رئيسي في العمل يعلم أنني ابن أحد أشهر الفيزيائيين في العالم، لقد أخبرني أنه حضر بعض محاضراتك و أنه معجب بك، في الحقيقة انه زميل لك و يشاركك اختصاصك العلمي

- ما اسمه؟

- نيكولاس وايت، انه بروفييسور بجامعة مانهاتن، و يدير مركزاً للبحث و التطوير

- نعم، انا أتذكره، رجل أنيق و صاحب فكر متفتح، التقيته في ملتقى  
نظمته وكالة ناسا الأمريكية منذ ما يقارب الخمس سنوات و قد تبادلنا  
بعض الأفكار، انه رجل ذكي و أهم ما يميزه هو قدرته الخارقة على  
الإنصات و الاستماع، له ذهنية علمية متواضعة رغم مكانته  
المرموقة في الوسط العلمي، مريح أن أعرف أنه مسؤولك  
- لم يخبرني أنكما تحادثتما، ولكنه أخبرني أن أهم سبب اختارني من  
أجله للمشاركة في هذا البحث هو تعويله على استشارتي لك عند  
الحاجة، و بالتالي ستكون مستشارا بالمجان  
- صريح جدا

- أرجوا ألا يزعجك هذا

- أبدا، هذا علم، و العلم للمشاركة، عندي بحث جاهز لك يحتوي آخر  
النظريات، انه مرتكز أساسا على كتاب للفيزيائي الفلكي الأشهر في  
هذا الزمان، ستيفن هوكينغ عنوانه تاريخ كل شيء، بما أن لك قاعدة  
متينة في هذا الميدان لن تجد مشكلة في فهمه، لقد أعددت البحث من  
أجل الغير متخصصين و بالتالي فقد حذف كل المعادلات الرياضية و  
حاولت التمثيل بأمثلة من ما هو مألوف من أجل مساعدة القارئ على  
استعمال خياله، هل أبعثه لك على الإي مايل؟

- نعم، شكرا أبي، سأتصل بك ان احتجت إلى توضيح أكثر

- في أي وقت

- هناك سؤال آخر أريد طرحه عليك

- تفضل

- هل تعرف كل حاضناتي الاتي حضنني في صغري؟ أقصد  
أوجههن

- ربما، لا أدري، لما هذا السؤال الغريب؟

- لقد رأيت من قبل صورة المرأة التي رسمتها عدة مرات، تلك التي أراها في منامي تكرارا  
- واصل

- هل سبق لك و أن رأيت امرأة تشبهها، أقصد من حاضناتي السابقات، أو من محيطي القديم  
عم صمت مفكر لبضع ثوان ثم أتاني الجواب سؤالاً  
- لم لا تسأل أمك؟

- لا تخبرها أرجوك، لا أريد ازعاجها، انها كثيرة التفكير و سيقلقها  
سؤالي كثيرا

- ليس لدي جواب لك

- حسنا أبي، شكرا لك ،اسمعك قريبا

قضيت شهرا كاملا في البحث، عزمي جونيور و طوماس عدة مرات لأسهر معهم لكني لم أفعل، لأن الخجل لا يزال يملكني من تلك الليلة كيف لا و قد استفقت عاريا قرب امرأة لا أكاد أعرفها، لو كانت شريرة لنكلت بي ،لحسن الحظ أنها امرأة ناضجة.أدرس و أحضر صباحا، أخرج منتصف النهار من أجل الغذاء، لأرجع مباشرة الى غرفتي حتى الساعة الخامسة مساء، أخرج بعدها لوحدي أحيانا أو برفقة نادية أحيانا أخرى ،نقصد سونترال بارك للتنزه، أو الى مفترق الطرق الأشهر أين توجد ساعة مانهاتن الشهيرة ،أو أقصد أحد البارات الهادئة أين يعزفون البلوز، أشرب هناك بضع كؤوس فقط من أجل الإسترخاء، لأرجع الى غرفتي قبل الساعة العاشرة، كنت قد أنهيت بحثي الأول حول نشأة الكون، حضرت بعض الفيديوهات، وطلبت جهاز عرض، ساعدني أبي كثيرا عبر نصائحه و توجيهاته حول طريقة العرض و طريقة تقديم البحث و كيفية ترتيب الأحداث لتسهيل تمرير المعلومة للمتابعين، وقررت الخروج قليلا لأستنشق

- بعض الهواء النقي، قبل خروجي سألت نادية هاتفيا أن ترافقني، و ما هي إلا دقائق حتى التقيتها
- ألا يزعجك أن تجاور مسلما ؟
- من تقصدين بالمسلم
- هذا الهندي ، ألا يزعجك أن بابه يقابل بابك؟
- في الحقيقة أنا لا أعرف من يسكن بالغرفة المقابلة، كيف عرفت أنه هندي أو أنه مسلم
- لا أدري كيف تفعل لتكون غيبا هكذا، انه محمد راهول زميلنا في العمل
- آه!! لم أكن أعلم، لم أقابله أبدا منذ أقمت هنا، لكني أسمع صوت رجل يغني ألحانا عربية أحيانا في الليل، أما في النهار فلا أسمع له نفس
- انه يخرج من بيته باكرا جدا ليصلي صلاة الفجر، و لا يرجع إلا بعد صلاته اليومية الأخيرة صلاة العشاء، وما تناديه أنت بالغناء العربي هو قرآنهم، كتابهم المقدس
- عجبا كيف تعلمين عنه كل هذا
- لأنني راقبته، و لا أزال أراقبه، ان معرفتي العميقة بالمسلمين لا تسمح لي بأن أطمئن لهم
- ألسنت عنصرية في تعميمك؟ ان عدد المسلمين في العالم يفوق المليار، ألا تثقين في أكثر من مليار مسلم؟ ألا يوجد بين المسلمين أشخاص طيبون؟
- لا، كلهم همجيون متخلفون، وكلهم قتلة محتملون
- ان الإسلام ديانة يدخل فيها الناس من كل الأجناس و من كل القارات، يوجد في فرنسا الكثير من المسلمين من أصل فرنسي نقي مثلا، كما هو الحال في كامل أوروبا، و في آسيا، هناك الكثير من

المسلمين في سنغفورة، و أندونيسيا، والصين و حتى الهند، هناك باكستان و أفغانستان و غيرهم من الدول، حتى هنا في أمريكا، يوجد الكثير من المسلمين والملاكم محمد علي كلاي أحدهم، و كذلك الحال في استراليا و نيوزلندا الجديدة، كيف لك أن تقرري أنهم أشرار - إنهم بإسلامهم يتبعون رسولهم محمد حتما عنهم و إلا لما دخلوا الإسلام، أتعلم كيف يدخلون الإسلام؟

- لا

- بمجرد أن تؤمن و تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، و هذا يعني أن تتبعه في كل ما يقوله، و الكثير مما يقوله محرض ضد كل غير مسلم، فأنت في نظر المسلم كافر لا بد من قتلك - أتقصدين أنهم بإسلامهم يتخلون عن كل مبادئهم الأولى ليلبسوا مبادئ جديدة؟

- نعم، ولهذا هم متشابهون في كرههم للناس الآخرين، و لهذا لم تلتقي ببارك بعد أسبوع كامل من الإقامة، انه يتجنبك لأنه لا يحبك - ماذا يفعل طوال اليوم أثناء غيابه عن الإقامة؟

- لا أدري، لكنني لن أتفاجأ إذا وجدت أنه يقوم بتنصيب خلية إرهابية - لا أدري ان كان كلامك عن المسلمين دقيق، حسب رأيي لا يجب إلباس الناس تهم جاهزة، لقد درسنا في كتب التاريخ عن الكثير من الجرائم المرتكبة باسم الدين و باسم الرب، يطلق عليها أصحابها الحروب المقدسة، وهذا حتى في التاريخ القديم من فترات ما قبل الإسلام

- أوافقك الرأي، أنا لم أقل ان المسلمين هم الأشرار الوحيدون على هذه الأرض، ولكنهم أحد هؤلاء المفسدين، ان الإسلام هو آفة هذا العصر، و على العالم اقتلاعه من جذوره و القضاء عليه و إلا فالموت مألنا جميعا.. قهقهت نادية وكأن الجرعات التي تشربها من

حين لآخر بدأت تؤثر على حركاتها وقالت: المضحك هو أن المسلمين لما لا يجدون من يقتلون يفتكون ببعضهم، انظر إليهم لقد حاربوا الفرنسيين و الإنجليز بضراوة حتى أخرجوهم من أراضيهم، و لما لم يجدوا عدوا جديدا انقسموا فرقا و بدأوا حربا جديدة ضد بعضهم

- هذه تدعى الطائفية، و هي ظاهرة مرتبطة بالمستوى الحضاري للأمم و ليست ظاهرة اسلامية، لقد حدث هذا في أوروبا في عصور انحطاطها، و حدث في أمريكا قبل نهضتها، وحدثت بين المتدينين البروتستانت و الكاثوليكين و الأرثوذكس، و ما يحدث في بلاد المسلمين هو ما حدث في أوروبا قبل مئات السنين، انها حرب أهلية قذرة، حتى إن ادعى أصحابها القداسة

وصلنا قرب مطعم صغير في أحد الشوارع الثانوية المقابلة للإقامة الجامعية، رائحة اللحم اقتادتني الى طاولة بأحد زوايا المحل، جلسنا متقابلين بعدما طلبنا هامبرغر و كأسين من الجعة، كعادتها، أضافت نادبة كمية من الكحول القوي الى كأسها

- هل لديك مشكلة مع الكحول؟ سألتها مبتسما لكي لا أتلقى صفة فاجأني تبسمها هي الأخرى و جوابها البالغ الهدوء

- أرجو أن يكون هذا سرنا الصغير

- غريب ، انت تملكين رغم هذا بنية رياضية قوية

- لطالما واطبت على الرياضة منذ صغري، واشتد عضدي في

تدريبات الجيش، ومازالت مواظبة عليها ثلاث مرات أسبوعيا

- ألا يؤثر الكحول على مستواك البدني

- انت تشرب لتسترخي و تثمل، و أنا أشرب لأعي و أستيقظ

- منذ متى بدأت المبالغة في الشرب

- منذ كنت في الجيش، عرفت بعض الأحداث المؤلمة ، تحملت كثيرا حتى فاق الألم قدرتي، فوجدتني ألجأ الى الكحول، أتعلم؟ حين تحس أنك فقدت كل شيء ، لن يهتمك شيء بعدها، حتى نفسك -حتى ابنتيك؟

ثبتت لساني بفمي بنظرة ثاقبة فقلت في نفسي: هذه هي الصفحة التي انتظرتها

- لقد فقدت زوجي في الجيش، وفقدت بعض رفاقي، وفقدت روحي - في عمليات عسكرية؟

- نعم، في قطاع غزة بالضبط، اشتبكنا مرات عدة مع الإرهابيين و كنا نهزمهم عسكريا في كل مرة، غير أنهم يتأقلمون ويطورون أساليبهم الخداعية مرة بعد مرة، انهم كالأشباح يظهرون ،يقتلون ،ثم يختفون من دون أثر، يتبعون حرب العصابات و لهذا فمواجهتهم شبه مستحيلة، نضيق عليهم، نحاصرهم، نقطع عليهم المدد و الطعام و الدواء، ومع هذا يتكاثرون كالآرانب، لا يملون و لا يخافون، أتعلم ماذا قالت لي احدى نساءهم بعدما انفجرت بالقرب منها قنبلة أفقدتها كلتا قدميها و أقعدتها الكرسي المتحرك؟ قالت الحمد لله لأنني لم أفقد جهازي التناسلي ،سوف أنجب حفنة من الرجال يطردونكم من أرضنا أو يستشهدون، هل تعلم أن نساءهم يزغردن فرحا حين يموت أحد أفراد أسرتهن في مواجهتنا.

- صعب جدا أن تواجهوا قوما يرون أنهم على حق و أنكم تغتصبون أرضهم، قوم لا يخافون الموت بل و يحبونها لأنها باعتقادهم طريق مختصر يؤدي مباشرة الى الجنة، ولكن صارحيني، ألا تظنون أنهم أحق بالأرض منكم؟ انها مسكنهم منذ آلاف السنين - بل هي أرضنا المقدسة، أرض أنبيائنا و أجدادنا منذ عهد جدنا إسرائيل، موسى، داوود، سليمان بل و حتى المسيح

- أصبحت مؤمنة الآن!

- كما أخبرتك، أنا أو من بوجودهم كحكام و ليس كأنبياء

- في رأيي، هذا لا يعطيكم الحق في أخذ الأرض بالقوة، تخيلي لو أن  
المسيحيين يطالبون اليوم بتلك الأرض لأن نبيهم نزل بها، ستكون  
فوضى عارمة

- لقد اشترى اليهود تلك الأرض من العرب مقابل مبالغ خيالية

- حتى ان كان ما تقولين صحيحا فالأرض أرضهم، تخيلي لو أنني  
أشترى قطعة أرض هنا بالولايات المتحدة الأمريكية و أعلنها أرضا  
مستقلة و أرفع عليها علما جديدا، هل ستقبل أمريكا أو الرأي العام  
بهذا؟ أبدأ، ملكيتي للأرض تعطيني حرية التصرف فيها، أن أغرسها  
أو أن أبني فيها و حتى أن أتركها بورا، لكن لا يعطيني الحق في  
اعلانها دولة مستقلة أو أتبعها لأي دولة أخرى

- الأمر أكبر من أن تفهمه، لا بد لك من فهم الكتب المقدسة أولا،  
العهد القديم و العهد الجديد بل و حتى قرآن المسلمين يعطينا الحق في  
الرجوع الى أرضنا، ان هذا كميثاق تم برمه قديما أين حكم على بني  
اسرائيل التشرذم في الأرض لمدة معينة عقوبة لأخطاء اقترفوها، ثم  
ليعودوا إليها بعد انقضاء الأجل، هل تتخيل لو تمضي لي على وصل،  
ثم و بعد انقضائك يخبرني أحفادك أنهم لا يعترفون بهذا الوصل؟

- ومن وثق لكم ما تقولين؟

- الأنبياء

- فقط؟

- ومن تريد؟

- ميثاق من طرف واحد؟ أين كان العرب حينها؟

- كانوا مجموعة من البدو يسكنون هذه المنطقة و غيرها، لكننا كنا  
أصحاب كتاب و حضارة

- أين هو هذا الميثاق؟

- قلت لك في الكتب المقدسة

- ساعديني على الفهم لأن الأمر اختلط علي، أنتم تطالبون بهذه الأرض باسم الرب، و هم يقاومونكم باسم الرب، والأنبياء حكموا بينكم باسم الرب، و أنت لا تؤمنين بالرب لكنك تؤمنين بالأنبياء على أنهم حكماء، و أنا أعلم أن حتى الحكماء يخطؤون ان لم يعصموا من طرف رب مطلق الحكمة، أظن أن الوقت مناسب لطلب الفاتورة في هذه الأثناء طلبت من الناذل الفاتورة، فأخبرني أنني لن أدفع إلا ثمن الجعة، أما العشاء فقد تم دفع ثمنه من طرف شخص يحتل طاولة في الزاوية المقابلة، استدرنا أنا ونادية لتتعرف على هذا الكريم و كانت لي مفاجئة و لنادية فاجعة، انه راهول محمد، الطبيب الهندي الذي كان بداية موضوع حديثنا ،يجلس رفقة اسحاق روبنسون المؤرخ، طاولتهما مملوءة بالأوراق المبعثرة يتوسطها كوبين من القهوة

- ألا تظنين أنه يتوجب علينا شكره؟

- حتى في كرمهم ينتقصون

- ماذا تقصدين؟

- هل ترى أنه من الصائب أن تكرم شخصا بأن تدفع عنه فاتورة

الطعام و تتركه يسدد فاتورة المشروب؟

- لا بد أن له سببا، ليس من اللائق الخروج مباشرة دون شكره

- حسنا فليكن

اتجهنا نحو الطبيب و المؤرخ، ألقينا التحية عليهما، فردا علينا بحفاوة و ابتسامة عريضة وزاد على ذلك بأن عزمنا على شيء نشربه، بدى لي أنه من غير اللطافة أن أرفض طلبهما غير أن وجود نادية معي جعلني أتردد خاصة و أنها قبل وقت قصير كانت تحذرنني من أن أتق

بالمسلم، استرقت نظرة الى وجهها لأحصل على إشارة جسدية أفهم  
منها رأيها، لكنها أراحتني بما هو أفضل من الإشارة  
- هل لي الحق في طلب ما أريد؟  
رد محمد و البسمة لم تغادر فمه:  
- في ماعدا الكحول نعم..قالها و هو يجمع أوراقه المتناثرة على  
الطاولة لإفساح مكان لنا  
أردت تلطيف الجلسة بمزاح خفيف:  
-و ماذا قد نشرب بعد العشاء، لا أظن أن القهوة هي الخيار المناسب  
في ساعة كهذه، ستسبب لنا اضطرابا في النوم  
- يمكنك شرب شراب الزنجبيل أو بعض النعناع مثلا، سيساعدانك  
على الهضم و الاسترخاء، أو حتى بعض الماء الصافي  
- وما يمنعني من شرب بعض الجعة..قالت نادية  
- لا أحد، إلا أنني لن أدفع ثمنه  
- اعذرنى سيد راهول لجهلي بمبادئك، أنا ممتن لك لأنك أكرمتنا و  
أشكرك على ذلك، لكن فضولي يدفعني لأعرف لما قد تدفع ثمن أي  
شيء نطلبه إلا المشروبات الكحولية  
- الأمر بسيط سيد روسو، أنا مسلم و الخمر محرم في الإسلام  
- لكنك لن تشربه  
- حرام أن أشربه و حرام أن أساعد شخصا آخر على شربه  
نظرت إلي نادية في ابتسامة مأكرة ثم توجهت الى الطبيب بالكلام  
قائلة:  
- ألا تظن أنك تفرض قناعتك علينا؟  
ألقي الطبيب نظرة استغاثة الى السيد روبنسون ،فنطق الأخير موجها  
كلامه الى نادية

- هل ستلبون رغبة شخص مسكين يطلب منكم مبلغا بسيطا ليشتري به بعض الكوكابين؟
- طبعا لا
- ولم لا؟ ألا تظنون أنكم تفرضون قناعاتكم على هذا المدمن المسكين؟
- مثالك خاطئ، أنت تشبه شيئان مختلفان
- لا أرى فرقا شاسعا بينهما، كلاهما مفقد للعقل، كلاهما يحجب العقل، كلاهما يسبب الإدمان، كلاهما مضر بالصحة، أنيريني و سهلي الأمر علي، ما الفرق بينهما؟
- المخدرات هي مواد ممنوعة
- من منعها؟
- كل القوانين بما فيها القوانين الدولية
- من وضع هذه القوانين الدولية؟
- هم أشخاص مختصون
- ولم تظنين أن لهؤلاء المختصين الحق في فرض آرائهم على الناس؟
- هذا عملهم، انهم ينطلقون من دراسات و أبحاث هدفها وضع قوانين تنظم المجتمعات
- قال محمد:
- بالضبط، غير أن الذي أمرني بتجنب الخمر هو أحكم الحاكمين، هو الحق سبحانه، وليس هناك من هو أعلم بالنفس البشرية منه، هو خلقنا و علمنا كيفية الحفاظ على أنفسنا
- أحسست أن المحادثة ستأخذ لغة أجهلها فسألته بلهجة فضولية:
- من تقصد؟ الله؟
- فمن؟

انتفضت نادية غضبا في مكانها و قالت بصوت عنيف:

- من الغبي أن تكلم ملحدا عن قوانين الله لأنه سيراك مجرد مخرف  
- ألا تعترفين بأن الله وضع لعباده قوانين تحكم بينهم و تنظم  
مجتمعاتهم؟

- هل عندك قصر في الفهم؟ أنا لا أومن بالهك و لا بقوانينك  
أحسست أن من واجبي إيقاف نادية عند هذا الحد لأن الرجل عزمنا  
معا و بدل أن تشكره ها هي تتعدى حدود الأدب لتصفه بقصر الفهم  
- من فضلك نادية أن تنتقي ألفاظك، للرجل كامل الحق في تبني  
مبادئ ما لم يفرضهم على أحد، انه لم يفرض علينا الإقلاع عن  
الشرب، كل ما فعله هو أنه عزمنا على أي مشروب ماعدا الكحول،  
فإن أسررت يمكنني دفع ثمن الشراب عنك و لكن بالنسبة للسيد  
راهول و السيد روبنسون فكل ما نستطيع فعله تجاههما هو شكرهما  
رد علي الهندي بصوت هادئ ، و بنفس الإبتسامة المعتادة :

- لا بأس سيد روسو، يبدوا أن لنادية مبادئ تتناقض مع مبادئ، لقد  
أخطأت الحكم عليها لأنني كنت أظن أن جميع الإسرائيليين متدينين  
بحكم أن دولتهم تأسست على مبادئ دينية

- عفوا سيد راهول، لقد تفاعلت و لم أنتبه لكلامي، سوءافك الرأي  
على أن دولة اسرائيل تأسست على أسس دينية و لكن هذا لا يعني أن  
جميع مواطنيها متدينين، بالإضافة إلى أنها تتبنى الديمقراطية في  
نظامها.. رفعت رأسها فخرا و أتمت: انها النظام الديمقراطي الوحيد  
في المنطقة

- جيد أنا أحب الديمقراطية، هل هذا يعني أن اسرائيل تقوم باستفتاء  
شعبي لكل المواطنين لانتخاب نظام الحكم؟ أقول هذا لأنني أرى في  
الأخبار انتفاضات شعبية من العرب ضد نظامكم

- الاستفتاء يطال كل من لديه الجنسية الإسرائيلية، أنت تتكلم عن الفلسطينيين العرب

- عفوا، يبدو أن علي مراجعة دروس الجغرافيا، لأنني أتذكر و أنا صغير كانت هناك دولة عربية اسمها فلسطين، لم أعد أراها في الخرائط الحديثة، يبدو أن دولة اسرائيل حديثة النشأة قد ابتلعتها و لم يبقى من تلك الدولة غير شعبها الفلسطيني - إلى ما ترمي؟

- لقد اختلط علي الأمر، اسرائيل دولة أسست على أسس دينية معتدية - بذلك على أرض لها أهلها أخذة شرعية ما فعلت من الرب، من المنطقي أن أظن أن كل يهودي سيقطنها لأسباب دينية و إلا لكان هذا اعتداء على أصحاب الأرض، و لكن هذا ليس واقع الأمر، ثم انها تتبنى الديمقراطية في حكمها من دون أن تشرك أصحاب الأرض في قراراتها

- أصحاب الأرض قد غادروها و باعوها بأثمان بخيسة بكل إرادتهم، ثم اننا نحن الإسرائيليين لم نذهب إلى الأرض المقدسة، لقد عدنا إليها، إنها لنا منذ القدم

أشار السيد راهول بغمزة بعينه الى إسحاق و هو يبتسم بسمة سخرية مشيرا بيده الى إسحاق الذي لم ينطق ببنت شفة بعد قائلا:

- لن أتكلم في التاريخ في حضور مختص

- أنا ممن يدعون المؤرخون الجدد، أجزم لك سيدتي أن الأدلة على وقوع مذابح و محارق في حق الشعب الفلسطيني يفوق الأدلة على وقوع المحرقة النازية

تمكن الغضب من نادية واحمر وجهها، توجهت الساقية طالبة قارورة كاملة من الويسكي، وضعتها وسط الطاولة في محاولة منها لإثارة غضب محمد و اسحاق، ملأت كأسا صغيرا و شربته على

نفس واحدة، أغمضت عيناها أثناء البلع، زفرت كما يزفر التنين الذي يخرج نارا ثم أشارت بإصبعها الى إسحاق قائلة في صوت غاضب لكن خافت

- أنت خائن، أفهم لما يدافع هذا الإرهابي عن العرب، لكني لا أفهم لما يخون يهودي مؤمن بالتناخ شعبه

لم يتأثر السيد راهول و لا السيد روبنسون بكلامها كما فعلت أنا، وصفت المسلم بالإرهابي و اليهودي بالخائن، أحسست بالذنب و كأني سبب ما وقع، لقد تعدت نادية الحدود و كان لا بد من تصحيح الأمور لأنني حقيقة لم أفهم ما حدث لها لتغضب بهذه الطريقة البشعة

- أنا أعتذر عما حصل سيدي، لا أفهم لما غضبت نادية بهذه الطريقة، يبدو أنها أكثرت من الشرب..وقفت ماسكا يد نادية ..هيا نادية لقد تأخر الوقت و علينا الانصراف

-اجلس أيها الغر، ما بيني و بين هاذين الرجلين يفوق عمره مئات السنين، على الأقل رأيت حقيقة مشاعري تجاههما، لكنهما يخفيان حقيقة مشاعرهما نحوي و نحو بعضهما تحت غطاء النفاق، لا يمكن ليهودي و مسلم أن يتفقا إلا إن جبن أحدهما، في أغلب المرات يجبن العربي المسلم، لكن في حالتنا هذه جبن اليهودي، ربما لأن المسلم ليس عربيا هذه المرة، أو لأن اليهودي لا يحس بانتمائه الى شعب الله المختار و يساوي نفسه بالمسلم المنحط

قال محمد :

- اجلس فرانسوا، نعدك بأن لا نسب و لا نشتم و لا نغضب حتى ان فعلت هي، لكن لا بد لك أن تعرف الحقيقة

- لست مهتما جدا بحقيقة تثير الفتنة وسط مجموعة تلتزم بمنهج البحث العلمي، و لا تتفني في كثير، بل لا تعينني اطلاقا، لست

يهوديا و لست مسلما، و لا أنتمي الى الشرق الأوسط، لما قد أهتم بما  
تختلفون فيه؟

- ألسنت إنسانا؟..سألني محمد

- بلى، و الشيء الوحيد الذي أحبه في البشر إنسانيتهم، ان كان لا بد و  
أن أو من بمبدأ ما فسيكون الإنسانية

- من واجب كل إنسان التنديد بما يضر بأخيه الإنسان، لا يمكن أن  
ترى رجلا مسلحا يعذب طفلا صغيرا و تتغاضى عنه بحجة أن الأمر  
لا يعينيك؟ لا يمكن أن ترى وحشا يغتصب طفلة، يقتل شيئا على  
كرسيه المتحرك، يقتلع أشجارا تروي تاريخ الأجداد من مئات  
السنين، يذبح الأطفال تحت أنظار أمهاتهم، و يهدم المستشفيات على  
رؤوس العجزة و تقول إن الأمر لا يعينيك

استلم إسحاق الكلمة متوجها بها الى نادية التي سقت نفسها بجرعة  
اضافية

- أنا لست خائنا، أنا يهودي ملتزم بما أملاه علي الكتاب المقدس، أما  
أنت فصهيونية تؤمنين بأسطورة شعب الله المختار و بالأرض  
الموعودة

- أتقصد أنك لا تؤمن بأننا شعب الله المختار؟

- الصهيونية أفهمتكم و أفهمت العالم أن اليهودية قومية، كما فهم  
العرب لاحقا أن الإسلام يعني العروبة، و هذا خطأ، فاليهودية ديانة  
كما هو الإسلام، وليس للقومية مكان هنا

- لكنك تعلم أن اليهودية نزلت على بني اسرائيل، هذا هو الشعب الذي  
اختاره الله

- لكي نجمع الناس تحت تعريف شعب لا بد أن تتوفر بينهم لغة  
مشتركة، تقاليد مشتركة، إقليم مشترك على الأقل، إسرائيل اليوم  
عبارة عن متحف أنثروبولوجي، شعب غير متجانس البتة، منهم من

أتى من ألمانيا، من شتات الإتحاد السوفياتي، من أمريكا، من الدول العربية، كل فرد يحمل في ذاكرته تراث بلده الأصلي - لكن يوحدنا الدين اليهودي

- أكثر من نصف شعب إسرائيل بين ملحد و علماني، لا يوحدكم سوى جشعكم، لأن الدين تتشاركه شعوب كثيرة، و المثال أمامك محمد راهول هندي مسلم، هذا لا يعني أنه عربي و أن عليه أن يستقر ببلد عربي

- لا تكلمني عن الإسلام، ان رسولهم أخذ كل شئ عن اليهودية و ادعى أنه رسول الله، ألا تقولون أنكم خير أمة أخرجت للناس؟ أليس هذا اقتباسا من شعب الله المختار؟  
رد راهول بصوت هادئ وواثق:

- في الحقيقة التوراة و الإنجيل و القرآن أنزلوا من مصدر واحد و هو الله، لهذا نجد هذا التشابه الكبير بين الكتب السماوية غير أن القرآن هو الكتاب الوحيد بين الثلاثة الذي لم يلحقه أي تحريف لأن الله سبحانه توعده بحفظه و السبب هو لأن محمد صلى الله عليه و سلم هو آخر الرسل و لن ينزل كتاب آخر ، أما عن خير أمة فقد وضع الله شروطا لنيل هذا الشرف ،فقال سبحانه في القرآن الكريم: كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر، و تؤمنون بالله، هذا هو المقصود بخير أمة و ليس كما يعتقد البعض أن المقصودين بالكلام هم العرب أو مسلمو الجنسية، أو كما تعتقدون سيدة نادية بنو إسرائيل، فإن توفرت هذه الشروط الثلاثة مجتمعة في أي أمة على وجه الأرض فستكون هذه خير أمة، مهما كان انتماؤها القومي

بينما كنت أفكر في كلام المسلم كانت عيناى تتبعان حركات نادية الغير متزنة و كأن لسانها خانها لتعبر عن رفضها لكلام المتدينين

عبر حركات غير إرادية. قاطع إسحاق لحظة التفكير بسؤال وجهه  
لنادية

- هل تعلمين كيف نشأت دولة إسرائيل على الأقل؟

- علمني يا مدرس التاريخ. قالت نادية باستهزاء

- هل تعلمين أن مؤسس دولة إسرائيل ثيودور هيرتزل كان ملحدًا؟ و  
كان آخر همه هو مكان إقامة دولة صهيونية، كل ما كان يهمله هو  
إقامة دولة مستقلة، فأشاروا عليه بدولة فلسطين بحجة تحريك  
الأسطورة الدينية التي من شأنها أن تساعد في استقطاب يهود العالم  
- تتكلم عنه و كأنه أسر لك بما تقول

- لقد فعل، عبر مذكراته، لقد خصص الجزء الأول منها للرد على  
الرابيين و الحاخامات لأنهم اتهموه بتزوير الدين، لأن الصهيونية  
تدعوا إلى ما نهت عنه التلمودية و التلخية اللتان تقولان صراحة:  
إياكم أن تدبروا لعودة جماعية للأرض المقدسة

- هؤلاء اللذين تتكلم عنهم مجرد جناء صعب عليهم مغادرة بلدان  
إقامتهم، كما هو الحال معك

- لقد ولدت بإسرائيل، و درست وكبرت هناك، لكنني غادرتها لأنني لم  
أعد أتحمّل المزيد من الكذب، تحت كل بناية، عمارة، مدرسة، جامعة  
كنت أحس وجود الآلام و الدموع، رفات الذكريات الجميلة، قرونا من  
الأحداث، مئات من الأجيال، كنت أحس معاناة الأنبياء الذين ماتوا و  
عذبوا من طرف بني إسرائيل: حازقياء، آرمياء، عيسى، كنت أتوهم  
صوت أطفال العرب وهم يلعبون، أسمع معاول العرب و هم  
يحرثون، و ألحان النساء العربيات و هم يغزلون و ينسجون، أسمع  
أهات أشجار الزيتون و جذورها تقتلع بواسطة الآلات الإنجليزية و  
الأمريكية الصنع

- لست أنت من يقرر أحقية إسرائيل بالأرض المقدسة، هناك قانون دولي يفصل في النزاعات الدولية عبر الأمم المتحدة  
- نعم، القانون الدولي الذي قال عنه وزير إسرائيل الأول خرقة بالية، و الأمم المتحدة التي وصفها نتانياهو ببيت الأكاذيب  
- تاريخ إسرائيل أقدم من بن غوريون و من هيرتزل، تاريخنا موثق منذ أبينا إبراهيم، و ابينا اسرائيل  
- لعلمك فقط سيدتي، النبي الكريم ابراهيم هو أب مشترك بينكم و بين المسلمين، فهو أب اسحاق و جد يعقوب وهو اسرائيل كما أنه أب إسماعيل الجد الأقدم لرسولنا محمد عليه و على كل الأنبياء السلام  
-نحن بنو اسرائيل من قدسنا تلك الأرض  
- الأرض المقدسة هي الأرض التي يسود فيها شرع الله..قال إسحاق..و لأنك استشهدت بالتاريخ فسأفصل لك ما وثق في هذا الباب، قبل أن يعبر أجدادنا العبرانيون أرض كنعان قادمين من وراء النهر، كانت هذه الأراضي عربية يقطنها الفلسطينيون، و لعلمك فإن أقدم مدينة في العالم هي مدينة أريحة و هي موجودة منذ ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد، أما سيدنا ابراهيم و الذي عاش حوالي ألفين سنة قبل الميلاد فقد عبر إلى أرض كنعان آتيا من العراق سنة ألف وثمان مئة قبل الميلاد بأمر من الرب، ذكر التناخ هذا مستعملا تعبير "أرض غربتك" ، لهذا أرجوا ألا تمتلكي أرضا باسم كتاب يصفها بأرض الغربة، لم يطل أبونا إبراهيم الإقامة بهذه الأرض لأن بها مجاعة فأنحدر إلى أرض مصر رفقة زوجته العراقية سارة، ثم رزق بإسحاق، لما كبر ابنه بعث أبونا إبراهيم عبده إلى بابل ليأتي بزوجة بابلية لإبنه إسحاق، فعاد العبد و معه زوجة إسحاق وهي رفقة أم النبي يعقوب المعروف بإسرائيل، لما كبر هذا الأخير و أراد الزواج

هاجر إلى العراق ليتزوج رحيل أم يوسف و بن يامين، و لبنا أم الأحد عشر صبطا، ولد كلهم خارج أرض كنعان المعروفة بفلسطين قاطعت المؤرخ سائلا في حيرة:

- أتقصد أن زوجة ابراهيم و زوجات يعقوب و أولاده كلهم من خارج إسرائيل؟

- أقصد أن كل أسباط الأمة من خارج فلسطين، و أربع أمهات الأمة من خارج إسرائيل، فحتى يوسف تزوج مصرية

- ثم ماذا؟..سألته كطفل يرجوا أمه لتكمل له قصة ما قبل النوم

-عبر اسرائيل و أولاده الى مصر في فترة يوسف، حيث استخدم يوسف اخوته لبيقوا هناك أربعة مئة سنة أي إلى غاية 1450 قبل الميلاد أي حتى كلم الله النبي موسى

- أربعة مئة سنة من بعد النبي إبراهيم قضاها بنو اسرائيل خارج اسرائيل الحالية؟..سألت مندهشا

- نعم، جاء أبونا إبراهيم من أرض العراق الى أرض فلسطين، لكنه لم يستقر بها أبدا، لا هو و لا بنوه طيلة أربعة مئة سنة نظرت الى نادية التي اتخذت اللامبالاة سلاحا ضد المؤرخ اليهودي و سألتها:

- من أين لكم ميثاق اكتساب الأرض إذن؟ لا أنتم منها، و لا تزوجتم منها، و لا تكاثرت بها

- أولا، أمر الله أبينا إبراهيم للتوجه إلى الأرض المقدسة، ثم تكليم الله لموسى بهذه الأرض و أمره إياه بالعودة ببني إسرائيل

- تجلى الرب لإبراهيم في بلاد الرافدين، و كلم موسى خارج أرض كنعان بينما كان متوجها الى مصر

- لكنه وعد موسى هذه الأرض و جاء في التناخ بأن الرب وعد موسى بأن يفرغ له الأرض

استدرت أنا و محمد الى اسحاق لنسمع جوابه، تنهد وقال بصوت متأسف:

- انه السفر الأكثر دموية في التناخ، كتب أن يوشع جاء بجنوده الى بلدة فذبخوا كل من فيها من رجال، نساء، أطفال حتى البغال و البقر و الحمير

- كيف يعقل هذا؟ انه تطهير عرقي..موجها كلامي الى نادية

- ليس هناك قيام دولة من دون تضحية

فاجاني جوابها الخالي من المسؤولية و من الرحمة، أردت التأكد من أنني لست مخطئا في تقديري فسألت المؤرخ :

- ما هي أطول مدة اتصل بها اليهود بهذه الأرض؟

- أقل من أربعة مئة سنة

- وما عهد المسلمين بهذه الأرض؟

- ألف و مئتين سنة..أجابني محمد متعمدا تمديد الألف..فتحها عمر و أبو عبيدة ثم فتحها صلاح الدين بعدما وقعت في أيدي الصليبيين، و في المرتين تم الفتح من دون سفك دماء، لقد قبل سكان القدس الدين الجديد بصدر رحب، و حتى أولئك الذين ظلوا على المسيحية أو اليهودية فقد عاشوا حياة كريمة وسط المسلمين، رغم أن الصليبيين ذبحوا حوالي سبعين ألفا من العرب حين دخلوها إلا أن صلاح الدين الأيوبي لم يأخذ بالنأر

- يعني أن من اتصلوا بهذه الأرض ألف و مئتين سنة متواصلة ليس لهم الحق فيها، و لكن من جاء من خارجها، و تزوج من خارجها و تكاثر خارجها، و ذبح أهلها، و لم يستقر بها إلا لمدة أربعة مئة سنة له الحق فيها، علما أن الألف و مئتان سنة تخص المسلمين أما العرب الكنعانيين فهم ملاك الأرض الأصليين

-في الحقيقة ليس هناك أي جيواستراتيجي أو قانوني دولي أو مؤرخ يعطي الحق لأي كان بإعادة تعيين حدود إقليمية جديدة لأي دولة في العالم مرتكزا على أوضاع تاريخية من مئتي سنة فما بالك بألفي سنة وهي المدة التي قضاها اليهود خارج فلسطين

- إذا رجعنا بالتاريخ كل هذه المدة ستتغير معظم الجنسيات في العالم، فلم يكون للأمريكيين وجود مثلا، و يمكن لمصري أن يكتشف أنه من أصل فينيقي، ويكتشف الكردي أنه من أصل مصري.. غمزني محمد مبتسما وواصل ضرب الأمثلة..ويمكن لفرانسوا أن يكتشف أنه من أصل أمازيغي أو عربي، من يدري؟

- يمكنكم أن تشككوا في أصولكم لأنكم غير يهود، لكن عرقنا صاف، وأرضنا لنا حتى من قبل أن ندخلها أول مرة

هنا أردت التدخل كوني مختص في الهندسة الوراثية:

- لماذا اذن نلاحظ أن اليهودي اليمني له كل الصفات الفيزيولوجية للرجل اليمني، طوله، شكله، لون بشرته و الأمر ينطبق على اليهودي الألماني و الأرجنتيني، و السوفياتي سابقا، أليس معنى هذا أنه قد حصل اندماج عبر الزمن و غلب على اليهودي طابع كل منطقة؟

- مع ذلك فإن عرقنا لم ينقطع منذ ألبينا إسرائيل

- تقولين هذا لأنك لم تقرئي كتاب القبيلة 13 الذي تحدث عن تلك المملكة النتارية التي اعتنق أهلها الديانة اليهودية، ثم و بعد حرب ضد تحالف روسي بيزنطي قضي عليها و تشتت شعبها في أوربا و روسيا و هم يشكلون اليوم معظم يهود العالم، ألا يقلقك سيدة نادية أن تعرفي اليوم أن أكثر يهود العالم ليس لهم أي قرابة دم مع النبي يعقوب، أضيفي الى هؤلاء اليهود الذين هاجروا الى الأندلس و عاشوا رفاهية لم يعرفوها من قبل، و لما سقطت الأندلس هاجروا الى بلدان شمال

افريقيا و انتمو بعدها الى الدولة العثمانية، عليك أن تتقبلي سيدتي أنه لا وجود للعرق اليهودي، هناك ديانة يهودية و فقط - لا أتخيل ما قد يحل بالعالم لو طالب كل عرق بأحقته التاريخية في امتلاك الأراضي، سيكون من حق المسلمين المطالبة بإسبانيا لأنهم امتلكوها لمدة ثمان مئة و تسع و ثلاثين سنة و من دون عنف و لا تقتيل لسكانها الأصليين بل و حرروهم من الإضطهاد و أقاموا حضارة يشهد لها التاريخ و المعمار الذي لا يزال قائما، كما أنه سيتمح للإسبان حق المطالبة بالمكسيك و أمريكا اللاتينية كلها، و للهنود الحمر المطالبة بمنهاتن و كندا، و للإنجليز حق المطالبة بأمريكا

-هل سمعتم من قبل في علم الإجتماع بما يسمى بقانون التدافع، هذا ما يحدث على أرض اسرائيل، نام العرب و دخلوا سباتا عميقا، صادف ذلك استفاقة شعب اسرائيل، فدفعت حضارتنا النامية حضارتهم الفانية الى طيات التاريخ، نقطة الى السطر لأنني لن أناقش أكثر شخصان يحملان كل هذا الكره لإسرائيل و للأمل الأخير الذي من شأنه انهاء التخلف الذي عتش بمنطقة الشرق الأوسط، هل سترافقني فرانسوا أم أنك تحتاج الى غسيل مخ

لم أحبذ كلامها هذا، و مع هذا كان علي الإنصراف لأن الساعة شارفت على منتصف الليل ،استأذنت من الأستاذين مبررا رحيلي بما ينتظرني في الغد من القاء المحاضرة المتعلقة بنشأة الكون ..غادرت المجلس و عقلي يطرح من الأسئلة أكثر مما عرف من الحقائق اليوم

# بداية خلق الكون

روحي مسجونة في فكرة  
-فيكتور هيجو-

الساعة التاسعة صباحاً، الكل يجلس حول الطاولة الكبيرة، افتتح السيد وايت الكلمة بتحية صباحية بعدما أشعل الميكروفون المثبت وسط الطاولة، عزمنا على قهوة بعدما أعد لنفسه واحدة، قبلت دعوته بتلief عني أتخلص من آثار نقص النوم، رافقتني نادبة نحو جهاز العصر و علامات الإفراط في الشرب بادية على عينيها رغم نظارتها السميكتين

- في المقابلة الماضية طلبت من فرانسوا استشارة والده البروفيسور فيليب روسو من أجل القيام ببحث حول نشأة الكون، أرجوا أن تكون جاهزاً فرانسوا

- طبعاً سيدي، لقد أعددت بعض الصور التي من شأنها أن تساعدنا على فهم بعض الظواهر، سوف أصل الكمبيوتر بجهاز العرض و هل قاما السيدين روبنسون و راهول بما طلب منهما؟

- نعم سيد وايت، لقد سهرت مع السيد روبنسون ليلة البارحة في محاولة منا لجمع بعض النصوص التاريخية و الدينية لإسقاطها على ما سيأتي به السيد روسو لنرى مدى اكتمال الصورة قاطعته نادبة قائلة

- أو مدى تنافيها

- هل تقترحون أن نبدأ بالمادة العلمية

- لقد تشاورنا أنا و محمد البارحة و رأينا أن نعرض بعض النصوص المستخرجة من المخطوطات القديمة و من الكتب المقدسة أولاً دون الغوص في شرحها ثم ننتقل الى المادة العلمية لنعود بعدها و نقيس ما برهن بالعلم مع ما أتى بالنقل

- ببساطة لأن الكتب المقدسة تشير الى كيفية الخلق و لكنها لا تشرح الظواهر كما يفعل العلم

- حسناً إذن من منكما سيبدأ؟

- سأبدأ أنا سيدي لأعرض أولاً ما وجدته في المخطوطات المصرية القديمة، ثم أنتقل إلى ما جاء في سفر التكوين لأحيل الكلمة إلى محمد ليحدثنا بما وجد في القرآن

- في هذه الأثناء سيضبط فرانسوا جهاز العرض، لك الكلمة سيد اسحاق روبنسون

- حسب الدراسات المتعلقة بالديانة المصرية القديمة فإن البداية كانت بإله واحد يدعونه أتوم الذي كون نفسه في المياه الأبدية نون قبل أن تتكون السماء و الأرض، وقف أتوم فوق حجر ال بن بن على أحد تلال هليوبوليس فوجد نفسه وحيداً، و فكر أن يخلق له رفقاء فحمل من نفسه ثم تفل فكان الإله شو و هو إله الهواء و الإلهة تفتوت إلهة الحرارة، و أنجب شو و تفتوت الإله جب إله الأرض، و الإلهة نوت إلهة السماء، ثم أنجب هذان الإلهان الإله أوزوريس إله الخلود، الإله ست إله الليل و الإلهة إيزيس إلهة الفجر و الإلهة نفتيس إلهة الفسق ، و يمثل هؤلاء الآلهة التاسوع المقدس الذي عبده المصريون باعتباره تجلي للإله الواحد أتوم و ذلك قبل أن تتجمع السلطة في يد حورس إله النهار ابن أيزيس و أوزوريس

هذا ما جاء في الديانة المصرية القديمة، أما ما جاء في سفر التكوين الأول من التوراة فهو الآتي:

في البدء خلق الله السموات و الأرض و في اليوم الأول خلق الله النور، و في اليوم الثاني خلق الماء و السماء، و في اليوم الثالث خلق الأرض و ظهرت النباتات و في اليوم الرابع ظهرت الشمس و القمر و النجوم، و في اليوم الخامس ظهرت الأسماك و الطيور، و في اليوم السادس ظهرت الحيوانات البرية و ذكور و إناث الإنسان ثم استراح الله في اليوم السابع

- هل علينا حقا الإنتباه إلى هذا الهراء سيد وايت، أيعقل أن مخبرا بهذا الوزن يحتمل كلاما بهذا القدر من السخافة بين جدرانه؟  
شعرت بغضب شديد ضد نادبة التي لا تفوت فرصة إلا وهاجمت المتدينين، لكن السيد وايت فاجأني بهدوئه المبالغ فيه لما طلب من المسلم أن يجيبها

- لا بد للسيدة نادبة بالتخلي عن أحكامها المسبقة التي ثببت تفكيرها العلمي، كما قال زميلي اسحاق فإن الكتب المقدسة تحوي الكثير من الإشارات، لكنها ليست كتبا علمية بالضرورة و لهذا فإننا نجدها خالية من التفاصيل، أما بالنسبة للمخطوطات فعلىنا استنباط الحقائق العلمية من النصوص الأدبية التي تكونها فمثلا يمكننا فهم خلق اله الهواء و إلهة الحرارة على أنه خلق للمادة، وخلق اله الأرض والهة السماء على أنه خلق للمكان و خلق إله الخلود و آلهة الليل و الفجر و الغسق على أنه خلق للزمن و بهذا سنعرف مراحل خلق الكون حسب الديانة المصرية القديمة

- أريد منك سيدة نادبة أن تفيدنا ببعض ما جاء في الفلسفة اليونانية حول خلق الكون كونك مختصة في الفلسفة

تجرعت نادبة رشفة قهوة و استرسلت في الشرح

- لما كان العقل الفلسفي في ذلك الحين عاجزا عن تصور امكانية الخلق من العدم، فقد لجأ أرسطو الى القول بوجود مادة ليست كالمادة، لم تتشكل و لم تكتسب أي صفات و أسماها الهبولى Heoli، وقال إن هذا الهبولى قديم أزلي خلق الله منه الكون، معنى هذا أن ما فعله الله هو تشكيل الهبولى و تنظيمه و لم يوجد الوجود من العدم

- و لكن أرسطو لم يشرح كيف أوجد الله الهبولى؟

- لا

- ما رأي القرآن سيد راهول

- الآيات التي تتكلم عن خلق الكون كثيرة في القرآن، سأذكر بعضاً منها في هذه المقدمة، ثم سأفصل و أشرح هذه الآيات بعد أن يكمل السيد روسو التفسير العلمي، يقول الله تعالى " ان ربكم الله الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يدبر الأمر، ما من شفيع الا بإذنه، ذلكم الله ربكم فاعبدوه، أفلا تذكرون" و يقول سبحانه " وهو الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" و يقول " الذي خلق السماوات و الأرض و ما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، الرحمان فاسأل به خبيراً" و في موضع آخر قال " و الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يعرج في الأرض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها و هو معكم أينما كنتم و الله بما تعملون بصير" و قال سبحانه " وجعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها، و قدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى الى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض انتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين ، و أوحى في كل سماء أمرها، و زينا السماء الدنيا بمصابيح و حفظا، ذلك تقدير العزيز العليم" و قال في سورة الأنبياء الآية الثلاثون: أولم يرو الذين كفروا أن السماوات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما و جعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون" ، لقد جاء القرآن في زمن كان يعتقد فيه أن الكون الذي نحيا فيه قديم أزلي و سيبقى للأبد و أنه لا نهائي و أنه ساكن و ثابت في مكانه لا يتغير، و أن الكون شامل للعناصر الأربعة التراب و الهواء و الماء و النار و حول هذه الكرات الأربع تدور السماء بنجومها، لكن القرآن كذب تلك الخرافات السائدة و أكد أن الكون مخلوق له بداية، و ستكون له في يوم من الأيام نهاية و مؤكداً أن جميع أجرام السماء في

حركة دائبة و جري مستمر و أن السماء ذاتها في توسع دائب، كما أخبرنا أن السماوات و الأرض كانتا في الأصل جرما واحدا ففتقهما الله لتتحول مادة هذا الجرم الأول الى الدخان الذي خلقت منه الأرض و السماء، ثم و بعد كل هذا الوجود أكد لنا الله سبحانه أن الكون سوف يطوى ليعود كهيبته الأولى جرما واحدا ينفثق مرة أخرى الى غلالة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، و سماوات غير السماوات ، لأشرح الآيات بلغة العصر فإن القرآن أخبرنا أن الكون ابتداء بجرم أولي وهي يوم الرثق الأول، ثم يوم الفتق و هو ما يعادل الانفجار، ثم تحول الجرم الأول عند فتقه الى دخان و خلق كل من الأرض و السماوات من الدخان الكوني و هذا مستنبط من قوله تعالى في سورة فصلت الآية الحادية عشر " ثم استوى الى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض اعنيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين"، ثم مرحلة عودة الكون بكل ما فيه الى جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأول الذي بدأ منه الخلق و هذه هي مرحلة الرثق الثاني أو بالمصطلح القرآني طي السماء أو ان أردتم المصطلح العلمي الإنسحاق الشديد للكون، لتأتي مرحلة الفتق للجرم الثاني أي انفجاره و حتمية تحول الجرم الثاني بعد فتقه الى غلالة من الدخان الكوني و إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية و سماوات غير السماوات التي تظننا اليوم و بداية رحلة الآخرة و هذا معنى الآية الثامنة و الأربعين من سورة ابراهيم " يوم تبدل الأرض غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار"، هذه هي الصورة الكلية الجامعة لقصة الكون حسب ما جاء في القرآن الكريم

- لا بد أن تعترفا سيدي أن العلم أثبت أن خلق الكون على حالته التي نعرفها اليوم تطلب ملايين السنين و ليس ستة أيام كما تزعمان

- الأيام هنا تعني المراحل، لأن اليوم الذي تقصدينه سيدة نادية هو الوقت اللازم للأرض لأن تدور دورة كاملة على نفسها في حين أننا نتكلم عن خلق الكون، أي قبل خلق الأرض و الشمس و الكواكب، و لو كنت ضليعة باللغة العربية لاكتشفت ذلك

كنت مندهشا جدا لما أتا به السيد راهول من كتاب كنت أظنه لا يتعدى الأمور الدينية، لأن كل ما قاله يتطابق تماما بما كشفه العلم الحديث الذي اعتمد على التكنولوجيا المتطورة و على عقول سلسلة من عباقرة العالم

- أظن أن الوقت حان للسيد روسو ليخرجنا من هذا الجدل

- حسنا سيدي، لكم ذلك، عرضت صورة للكون على الشاشة و استرسلت: ان ما اكتشفه العلم عن الكون في القرن الأخير يفوق ما اكتشف عبر تاريخ الإنسانية السابق كله، منذ حوالي أربعة عشر قرنا بدأ خلق هذا الكون العملاق بمجراته التي لا تحصى، و حتى الوقت و الفراغ و قوى الطبيعة بحد ذاتها قد وجدت من لا شيء، اذا نظرت الى رقعة من السماء ليلا، حتى و لو كانت صغيرة سترى جزءا صغيرا من نسيج المجرات العملاق، هذا لن يمثل أكثر من جزء من المليون من الكون المنظور من كوكبنا الصغير، رغم هذا فهذه تعتبر عينة صغيرة كافية لنجد مفتاحا للماضي و الحاضر و ربما المستقبل أيضا، أول ما ستلاحظه و أنت تتأمل النجوم تحت سماء صافية هو وجود اللون الأحمر أو الوردي الذي يلون المجرات و هذه صورة لكي أعجل لكم بالملاحظة

- وكأنا ننظر إلى السماء عبر زجاج مصنوع باللون الوردي.. علق طوماس.. لكن ما معنى ذلك؟

- اذا حللنا صورة لسيارة سريعة جدا تمر من قربنا فإننا سنسمع صوت محركها يزداد ثم و بمجرد أن تبدأ بالابتعاد سيبدأ صوت

محركها بالتضاؤل، تدعى هذه بظاهرة دوبلر، الشيء ذاته يحصل مع الضوء، لو أن أعيننا أكثر حساسية للضوء لأمكننا ملاحظة أن السيارة تتحول الى اللون الأزرق أثناء اقترابها، و تحمر بعض الشيء أثناء ابتعادها، نفس القواعد تنطبق على الفضاء، جميع المجرات البعيدة حمراء بعض الشيء، لذا و بتطبيق نفس المبدأ الفيزيائي البسيط فلا بد أنهم يبتعدون أيضا، أي أن الكون كله يتمدد في جميع الإتجاهات و يصبح أكبر و أكبر كبالون ينتفخ، و لهذا فلكي نعرف من أين أتى الكون سنحتاج لإيقاف الزمن و جعله يمشي الى الوراء - حسنا سيد روسو أول حقيقة علمية نخرج بها من مقدمتك هو أن الكون في اتساع، هل لزملائك ما يريدون اضافته؟

- نعم سيدي، أريد القول أن اكتشاف توسع الكون حقيقة تم اكتشافها في هذا القرن، إلا أن الله أعلمنا بها منذ أربعة عشر قرنا، تقول الآية الكريمة في القرآن " والسماء بنيناها بأيد و انا لموسعون" - الذاريات

47

- هل كان رسولكم فلشيا؟

- بل كان أميا لا يحسن القراءة و لا الكتابة

- لعله أخذها من الكتب السابقة. قالت نادية

- لم يذكر أي عالم هذه الحقيقة من قبل، و لا أي كتاب مقدس

- واصل سيد روسو

- لكي نفهم كيف خلق الكون لا بد لنا أن نرجع بالزمن بما فيه الكفاية ليصبح كل شيء قريب كفاية من بعضه بحيث أن كل شيء موجود سيجتمع في نقطة واحدة هي بداية كل شيء، سنرجع بالزمن 13.8 مليار سنة حيث انفجر الكون ببساطة الى الوجود عبر حدث يسمى الانفجار العظيم

سألني جيمي:

- لكن ما الذي انفجر؟

- لكي أكون صريحا، كتبت كتب كثيرة حول اللحظة التي تلت الانفجار، لكن لا يوجد عالم واحد يستطيع تفسير مادة الانفجار الأول، لقد تبدت عند حدوث الانفجار العظيم أي عند بداية خلق الكون خمسة معالم خارقة لا تخضع للقوانين الفيزيائية السائدة الآن و لا يمكن للعلم وحده أن يفسرها:

أولا :صغر النقطة التي حدث فيها الانفجار و التي تدعى المفردة singularity و هي أصغر من طول بلانك و وفقا لقوانين الفيزياء يستحيل وجود المفردة بهذا الطول اللامتناهي في الصغر

ثانيا: الكثافة اللامتناهية للمفردة بحيث أنها من المفترض أن تحوي كتلة الكون الحالي كله في نقطة أصغر من طول بلانك، و هي بلا شك تفوق أعلى كثافة عرفت في الكون حتى الآن و هي كثافة النجم النيتروني

ثالثا: أحدث الانفجار الأعظم حرارة تجاوزت درجة حرارة بلانك البالغة  $10^{32}$  درجة مطلقة أي ما يعادل عشرة مليار مليار مليار درجة مطلقة كلفن

رابعا :تجاوز سرعة تمدد الكون الوليد سرعة الضوء بمقدار مليار مليار مرة

خامسا: كانت القوى الطبيعية الأربعة متوحدة في قوة واحدة داخل المفردة اللامتناهية الصغر، وقد أثبتت الحسابات الرياضية أن الحصول على طاقة توحد هذه القوى في قوة واحدة يستلزم بناء مسرع يبلغ حجمه حجم المجموعة الشمسية ، لا أحد يدري كيف توحدت هذه القوى الأربعة في المفردة

احتج طوماس قائلا

- ان لم تشرحوا لنا ماهية القوانين الأربعة المتحكمة في الكون، و هذه الثوابت الفيزيائية قد لن نتمكن من متابعتكم

قبل أن أنطق لمحاولة الشرح، رفع جيمي يده مستأذنا لأخذ الكلمة - إن القوانين الأربعة هي:

القوة الأولى: قوة الجاذبية *gravitation force* و هي المسؤولة عن سقوط الأجسام تجاه مركز الأرض، و مسؤولة عن تشكل المجرات و النجوم و الكواكب إذ تمسك الأجرام في أفلاكها و هي أضعف القوى الأربعة

القوة الثانية: و هي القوة النووية الشديدة *strong nuclear force* هي التي تمسك نوى العناصر و هي التي تربط الكواركات ببعضها لتشكل البروتونات و النيوترونات، كما تربط هذه الجسيمات ببعضها لتشكل نواة الذرة، ويؤدي تحطيم الذرة في الانفجارات النووية الى انطلاق جزء من هذه القوة النووية الشديدة و هذا هو مبدأ عمل القنبلة الذرية

ثالثا: القوة النووية الضعيفة *weak nuclear force* و هي المسؤولة عن النشاط الإشعاعي للنظائر المشعة، فيتحول العنصر المشع بعد اطلاق جسيمات بيتا الى نظير آخر أو الى عنصر آخر ،مثال ذلك تحول اليورانيوم الى رصاص

رابعا: القوة الكهرومغناطيسية *électromagnétique force* و هي التي تحفظ الكتلونات الذرة السالبة الشحنة في مداراتها حول النواة موجبة الشحنة، كما تؤدي دورا مهما في التفاعلات الكيميائية و انتشار الضوء ،و من استخداماتها موجات ارسال التلفزيون و اليليفونات المحمولة

- ربما من المفيد أن تذكر الغير فيزيائيين ببنية الذرة سيد ثيودور

- تتكون الذرة من نواة موجبة الشحنة ،تدور حولها الكترونات سالبة الشحنة في مدارات، مثلما تدور الكواكب في مداراتها حول الشمس، وتتكون النواة من البروتونات موجبة الشحنة و نيوترونات متعادلة الشحنة و كتلتهما متساوية في العدد أو قد يوجد بينهما فارق عددي بسيط تبعا لنظائر العنصر المختلفة، غير أن ذرة الهيدروجين تمثل استثناء لهذه القاعدة لأن نواتها تحوي بروتونا واحدا و لا تحوي نيوترونا، و تتكون كل من من البروتونات و النيوترونات من ثلاث جسيمات أصغر تسمى الكواركات، و ينبعث الضوء على هيئة نوع آخر من من الجسيمات مهمة الكتلة تسمى الفوتونات و أكبر مصدر لها على الأرض هو الفرن النووي المجاور لنا أي الشمس

- سيد طوماس هل استوعبت ما تفضل به زميلك؟

- تماما سيدي، أرجوا أن ينتقل الى الثوابت الأخرى

- ماكس بلانك هو عملاق الفيزياء الألماني، حاصل على جائزة نوبل عام 1918 و هو مؤسس الكم، هو ما حدد ما يدعى بثوابت بلانك وهم:

طول بلانك Plank lenght و هو الطول الأصغر الذي يتحول أي جسم أقل منه الى طاقة تأخذ شكل ثقب أسود يبتلع أي شئ يقترب منه، حتى الضوء و يساوي جزءا من مليون مليار مليار مليار من السننيمتر 10-22

حرارة بلانك Plank temperature وهي درجة الحرارة التي لا يمكن تجاوزها وفقا لقوانين الفيزياء و تبلغ مائة ألف مليار مليار مليار درجة مطلقة

ويمثل طول بلانك و حرارة بلانك جدارين لا يمكن تجاوزهما فيزيائيا ،أما الجدار الآخر هو سرعة الضوء البالغة حوالي ثلاث مئة ألف كيلومتر في الثانية

- عفوا زملائي ، لكن هل علي أن أفهم من خلال كل ما قلته عن خصائص المفردة بتجاوزها كل هذه الجدران، و بلغة بسيطة أن الكون وجد من عدم؟

نظرنا جميعا الى أعين بعضنا و علامات الإستفهام تعلوا وجوهنا -أظن الوقت قد حان للتفسير الديني للكون، ما رأي الكتب المقدسة في هذا

- لا أظن أن التوراة تطرقت لهذا التفصيل

- ما رأي القرآن

- قال الله تعالى " كن فيكون"

عم صمت متفكر أجواء القاعة حتى نطق طوماس

- أفضل هذا الرأي على كل المعطيات الفيزيائية المستحيلة

- هل لك أن تتجه الى ما هو ممكن فيزيائيا سيد روسو

- حدث الانفجار العظيم في ظلمة تامة، لأن الضوء لم يكن موجودا

حتى ذلك الحين، حتى الفضاء لم يكن موجودا ، لم تكن المفاهيم

النمطية كالزمان و المكان موجودة، لقد كان مجرد نقطة ضئيلة من

الطاقة غير متناهية الحرارة، ثم تمددت مع ومضة مهولة من الإشعاع

من أصغر من ذرة الى حجم برتقالة في أقل من جزء من تريليون من

الثانية، تمدد الكون و كبر و برد مع كل لحظة تمر، بغضون مائة

ثانية كان الكون بحجم نظامنا الشمسي أي بحجم بضع تريليونات من

الأميال، أثناء بداية تبرد الكون تكونت المادة في شكل عدد لا يحصى

من الجسيمات تحت الذرية، نصف هذه الجسيمات كانت مصنوعة من

المادة، البقية كانت مصنوعة من شيء يسمى المادة المضادة، و

عندما تلتقي المادتان تفنيان بعضهما مطلقتين وميضاً من الطاقة

- ألا يرجعنا هذا الى النقطة الصفر؟

- لحسن الحظ كان هناك من المادة أكثر بقليل من المادة المضادة، لم  
ينجوا إلا جزء من المليار من المادة  
- هل نعرف ماهية هذه المادة؟

- نعم، تشكلت الفوتونات، الكواركات، و الإلكترونات و النيوترونات  
مع جسيماتها المضادة، وقد نتج عن تصادم الكواركات مع مضاداتها  
الى تلاشي كليهما و لم يبقى منها إلا واحد من كل بليون كوارك هي  
التي شكلت بروتونات و نيوترونات ذرات كوننا، كما أدى تصادم  
الفوتونات مع بعضها الى نشوء الإلكترونات و جسيماتها المضادة  
البوزيترونات، تصادمت هاتين الأخيرتين معا و تلاشت تاركة القليل  
من الإلكترونات

- أرجوا أن تتفضل جيمي بشرح كيفية نشوء الذرات  
- بعد لحظة الانفجار العظيم بمائة ثانية، انخفضت درجة حرارة  
الكون الى بليون درجة و هي تعادل درجة حرارة قلب أكثر النجوم  
سخونة، عندها قامت القوة النووية القوية بربط البروتونات و  
النيوترونات ببعضها مكونة أنوية الذرات، في البداية تكونت أنوية  
ذرات الديوتيريوم Deuterium و هو المعروف باسم الهيدروجين  
الثقيل و التي تحتوي على بروتون واحد و نيوترون واحد، ثم اتحدت  
أنوية الديوتيريوم مع مزيد من البروتونات و النيوترونات لتتكون  
أنوية الهيليوم التي تحتوي على بروتونين و نيوترونين، كما تكونت  
كميات ضئيلة من عنصر الليثيوم الأثقل، ثم و بعد هذا أي بعد بضع  
ساعات من الانفجار العظيم توقف انتاج نويات الهيليوم، و لمدة مليون  
سنة استمر الكون في التمدد و التبريد دون حدوث شئٍ آخر يذكر، الى  
أن انخفضت درجة الحرارة الى ثلاث آلاف درجة، لم يعد  
للإلكترونات سالبة الشحنة و الأنوية موجبة الشحنة طاقة حركية كافية  
للتغلب على قوى الجذب الكهرومغناطيسية بينها، فبدأت بالتلاقي

لتكوين الذرات، فتكونت ذرات الهيدروجين التي تتكون من بروتون واحد يدور حوله الكترون واحد و شكلت خمسة و سبعون بالمائة من كتلة الكون الوليد بالإضافة الى خمسة و عشرون بالمائة من ذرات الهيليوم المتكونة من بروتونين و الكترونين، طبعاً بالإضافة الى كمية ضئيلة من عنصر الليثيوم الأثقل، بعد هذا جاءت مرحلة تكون المجرات

- شكراً جيمي ما كنت لأشرح الأمر بهذه البساطة المفيدة، عندما بلغ عمر الكون مليار عام أصبح حجمه أصغر قليلاً من حجمه الحالي، و هبطت درجة حرارته الى قرابة درجة حرارته الحالية، وقتها كانت كثافة بعض المناطق تزيد بمقدار واحد من مئة ألف عن كثافة باقي أجزاء الكون، في هذه المرحلة تكون ما يسمى السحب الكونية ، أو الغبار الكوني، أو السديم، و أخذت هذه المناطق في التجمع نتيجة قوى الجاذبية، فتزايدت كثافتها، كما بدأت بالدوران حول نفسها و هكذا ظهرت المجرات Galaxies و ظهرت مجرتنا درب التبانة Milky way عند انقضاء قرابة تسعة مليار عام من خلق الكون، و استمرت المجرات في التباعدي. ثم أخذت بالوفا أحضرته معي رسمت على سطحه بعض الدوائر و استرسلت.. هذه الدوائر تمثل المجرات و يمثل البالون الكون، عند اتساع الكون ستبتعد المجرات عن بعضها كما هو الحال بالنسبة للدوائر المرسومة على البالون عند نفخه

- حسناً لم لا تستريحون قليلاً، لقد أمرت لكم ببعض الحلويات و بعض الشاي أو العصير ان أردتم ،طاولة الطعام في الغرفة المجاورة، سنرجع بعد حوالي ربع ساعة

كانت نادية أول من خرج في استعجال، توجهت مباشرة الى حمام السيدات في آخر الرواق، خطر لي أنها ذهبت لتتأمل خلايا مخها ببعض الكحول، أما أنا ففقداني الجوع الى الطاولة حيث بدأت بتناول

بعض المملحات مع العصير، انظم إلي جيمي بحركاته البهلوانية المعتادة و قال لي:

- أنت رجل يصعب الإتصال به

- لماذا؟ أنت تعرف غرفتي

- لم أكن في الجوار طوال الأيام الماضية، لقد كنت عند جدي و أردت

الإتصال بك من أجل التنسيق، أنت تعلم، أتكلم عن البحث

- معك حق، لم أتذكر شراء شريحة لأنني أستعمل الأنترنت في

الإتصال

- خذ، لقد أحضرت لك شريحة جديدة، ضعها حالا في هاتفك حتى لا

تضيعها

- لقد فاجأتني، شكرا جونيور لما أقلقت نفسك من أجلي؟

- لم أفعل، جدي من فعل، لقد سألني لقاءك مرة أخرى، و احتجت

بعدم قدرتي على الإتصال لإنعدام الشريحة بهاتفك، فذهب بنفسه و

اشترى لك واحدة

- اشكره نيابة عني جونيور

- ستشكره بنفسك، لقد رافقتني هذا الصباح الى هنا، و أصر أن نقضي

الليلة عنده

- لكن لما؟

هنا تدخل طوماس ساخرا و بقايا الطعام عالقة بشاربيه الطويلين

- انتبه روسو انه شيخ غريب الأطوار

ضحكنا من تعليق طوماس الذي لا يمل التهريج، هو و جيمي يشكلان

فريقا رائعا، بيدوان صديقان منذ القدم رغم أن تقابلهما لأول مرة

يرجع الى أسبوع واحد

- قل لي روسو، أنت و اليهودية، هل بينكما شيء؟ لقد رأيتكما معا

عدة مرات، بيدوا أن بينكما تواصلا

- لا لا أبدا، ليس بيننا أكثر من صداقة حديثة التكوين ، بالإضافة إلى
- أني لا أعرف أحدا سوى هذا الفريق
- لقد رأيتك البارحة في المطعم الصغير المقابل للإقامة، كنت برفقتها، ثم انتقلتما الى طاولة المتدينين
- ألقيت نظري في الغرفة لأبحث عن المتدينان، لكني رأيت اليهودي لوحده يرتشف قهوته و يتصفح جريدة نيويورك تايمز
- هل تعلم أن الرجل من أغنى أغنياء هذه المدينة
- من اسحاق؟
- نعم
- لا يبدووا عليه ذلك
- ان اليهود يتحكمون بهذه الولاية لأنهم يملكون معظم ثرواتها، بل يتحكمون بالبلاد كلها
- ماذا عن المسلم؟ هل تعرف عنه شيئا؟، يبدووا رجلا غامضا بعض الشيء
- كل ما أعلمه هو أنه ينشط في الشبكة الإجتماعية
- ماذا تقصد؟
- لقد قابلته صدفة في أحد الأحياء الفقيرة ، كان يعالج بعض المرضى العاجزين عن التنقل الى المراكز الإستشفائية
- كيف علمت عنه كل هذا؟
- لأنني في الشبكة الإجتماعية بدوري، لكني أساعد بطرق أخرى، أنا أوزع الأطعمة و الأدوية، و كنت عند أحد العائلات المحتاجة بمنطقة البرونكس عندما قابلته يعالج عجوزا تعاني من أحد الأمراض العصبية
- و هل يقوم بهذا مجانا؟ ..سألت نادية متدخلة بدون مقدمات
- أليس هذا معنى متطوع؟

- هذا ما تظنه لأنك ساذج، انه يساعدهم مقابل أن يتحولوا الى الإسلام  
قهقهه طوماس ضاحكا و قال

- فليتحولوا الى عبادة النار مادام يساعدهم، الناس لا يجدون ما  
يأكلون و لا يأبهون لكل هذه الترهات

- صراحة نادية، ألا تظنين أنك تلفقين أحكاما جاهزة تلبسينه اياها؟

- تقول هذا لأنك لم تخالطهم، لو عرفتهم كما عرفتهم أنا لعرفت أنني  
على حق

نظر اليها جيمي نظرة مشمئزة و قال:

- حتى ما يقال بشأن اليهود ليس بالشيء الطيب، ألا يقال أنهم سبب  
فساد العالم، هل هذا يعني أن نعمم الحكم عليك انت من دون أن  
نعرفك؟

دخل السيد وايت الغرفة لينبهنها الى أن وقت الإستراحة قد انتهى  
التحقنا بغرفة المناقشة حيث وجدنا السيد راهول بمكانه الذي يبدوا أنه  
لم يبرحه و بيده بعض الأوراق

- ألم تشعر بالجوع سيد راهول؟

- بلى سيد روسو، لكني أحب صيام يومي الإثنين و الخميس

- لكننا لسنا بشهر رمضان الذي تصومونه على ما أظن

- لا، ليس بعد، انه صيام تطوع فقط، أما صيام رمضان فهو واجب  
على كل مسلم يستطيعه

كلما تحدثت الى محمد أو كلما تحدثت عنه، أحسست بفضول يدفعني  
لمعرفة ما تحتويه تلك الجمجمة المختبئة تحت القانسوة البيضاء،  
كانت الحكمة بادية على وجهه المشع نورا رغم سمرته الهندية. بعدما  
أخذ الجميع أماكنهم استرسلت في الشرح:

- سأحدث الآن عن مولد الجيل الأول من النجوم، فقد بدأ غاز  
الهيدروجين و الهيليوم في المجرات في تكوين تجمعات منفصلة على

شكل سحب أخذت تتكثف بشدة تحت تأثير جاذبتها، و عندما تقلصت هذه التجمعات تصادمت ذراتها ببعضها فارتفعت درجة حرارتها و تزايد الضغط داخلها بالقدر الكافي لتبدأ تفاعلا نوويا اندماجيا يحول المزيد من ذرات الهيدروجين الى هيليوم مع اطلاق الطاقة الزائدة على هيئة حرارة و توهج، و عندما تتوازن قوى الجاذبية داخل هذا الفرن النووي مع قوى التمدد الناشئة عن الحرارة الناتجة يستقر النجم

و يصبح نجما ناضجا Mature Star

- هذا ما يسمى بالاندماج النووي

- نعم ، هذا الاندماج النووي هو ما أنتج لنا باقي عناصر الجدول الدوري، لا أدري ان كان جيمي يستطيع مساعدتي في شرح هذا - طبعاً، لقد حصل وليم فولر William Fowler عالم الفيزياء النووية الأمريكي على جائزة نوبل عام 1983 لوصفه كيفية تكوين العناصر الثقيلة عن طريق اندماج نويات ذرات الهيليوم داخل نجوم الجيل الأول، و قد أرجع فولر هذا الاندماج الذي حصل رغم تنافر النويات موجبة الشحنة الى الضغط الهائل داخل هذه النجوم، و يستمر الاندماج المتسلسل داخل نجوم الجيل الأول منتجا باقي عناصر الجدول الدوري ،مثلا عندما تتحد نواة ذرة الهيليوم التي تحوي بروتونان و نيوترونان مع ذرة مماثلة ينتج عنصر البريليوم، ثم تضاف اليه ذرة هيليوم فتنتج ذرة الكربون التي هي أساس جزيئات الحياة، و مع اضافة ذرة هيليوم أخرى ينتج غاز الأوكسجين، و من اتحاد ذرتين من الكربون تنتج ذرة الماغنسيوم، و بإضافة ذرة هيليوم تنتج ذرة السيليكون، و من اتحاد ذرتي سيليكون يتكون عنصر الحديد الذي يكون لب كوكب الأرض و هكذا

- و تتوقف نواتج الاندماج النووي على كتلة النجم، فنجم كتلته واحد الى ثلاث كتلة شمسا يتوقف فيه الاندماج عند عنصر الكربون، و

نجم تبلغ كتلته ضعف هذا ينتج السيليكون و نجم أكبر من ذلك يستمر فيه الاندماج النووي حتى يتحول الى كتلة من الحديد

- ان العناصر الأثقل تتجه نحو مركز النجم بسبب الجاذبية، و العناصر الأخف وزنا أي ذرات الهيدروجين و الهيليوم تتجه نحو السطح و بالتالي يصبح للنجم طبقات تماما كالبصلة، العناصر الأقرب الى المركز أي الأثقل كتلة في هذه المرحلة هي الحديد، تم تلي طبقة من عنصر النيون و الأكسجين مثلا، ثم الهيليوم فالهيدروجين، ثم و في مرحلة ما و لأن الحديد لا ينتج طاقة عند اندماجه تبدأ النيران بالخمود، يتراكم هذا الحديد في مركز النجم ، و بفعل الجاذبية يزيد الضغط أكثر فأكثر و تستعر حرارته الى أن تزيد بمئة مرة عن درجة حرارة مركز شمسنا فينهار النجم و ينفجر و هذا ما يسمى بالسوبرنوفا التي تمثل موت النجم وولادة شيء جديد

- بالضبط، تنفجر النجوم التي تزيد كتلتها أربعة و عشرين ضعف كتلة شمسنا انفجارا كليا أو جزئيا محدثة سحابة كونية هائلة تسمى سحب الجيل الثاني التي تختلف عن السحابة الأولى التي أعقبت الانفجار العظيم في أنها تحتوي بالإضافة الى الهيدروجين و الهيليوم على بعض العناصر الثقيلة التي تكونت من الاندماجات النووية داخل النجم المنفجر، ثم تتكثف السحابة الثانية مكونة الجيل الثاني من النجوم، و يتكرر نفس الشيء لينشأ عنه الجيل الثالث من النجوم، في الأجزاء الموجزة من الثانية التي تلي الانفجار، موجة صدمة عملاقة تمر عبر النجم بحيث يندمج بعض الحديد مشكلا عناصر أثقل كالذهب و البلاتين و الرصاص

- أفهم الآن لم تحب السيدات الذهب، انهن لا يطلبن منا فقط أصعب الأشياء، بل و من الكون أيضا، هل تتصورين سيدة نادية أنك تلبسين في إصبعك جزء من قلب نجم منفجر؟

تعالّت الأصوات بالضحك

- الى أي جيل من النجوم تنتمي شمسنا؟

- الى الجيل الثاني أو الثالث، فقد تكونت منذ حوالي 4،7 بلايين سنة،  
فعندما بردت بعض بقايا السحابة التي كونت الشمس تشكلت كواكب  
المجموعة الشمسية ، وكان ميلاد كوكب الأرض

خدش اسحاق رأسه بأصبعه في حركة تلقائية حائرة ثم قال:

- هل هناك أدلة ملموسة على صحة هذه النظرية؟

- هناك شبه اتفاق بين علماء الكونيات على صحة هذه النظرية،  
فبالإضافة الى البراهين الفيزيائية التي ذكرناها، يمكن ملاحظة بعض  
الإنفجارات الصغيرة المشابهة في الكون حتى الآن، بل و يمكن  
تجريب بعض الأحداث مثل اندماج المادة و مضادات المادة، تكوين  
نويات مستقرة لبعض الذرات، أسر الإلكترونات حول النويات لتكوين  
ذرات الهيدروجين و الديتريوم و الهيليوم، أكبر مشروع في العالم  
لدراسة الجسيمات تحت الذرية هو مشروع CERN و يعرف  
بالهيئة الأوروبية للدراسات النووية European Organisation Of  
Nuclear Research لكن و مع هذا لا تزال عاجزين عن معرفة  
ما حدث بالضبط في أول واحد ضرب عشرة أس ثلاثة و أربعون من  
الثانية من عمر الكون الوليد

- ثم ماذا؟ سألني طوماس في لهفة طفولية

- ثم جاء ميلاد الأرض

قاطعني السيد وايت بإشارة كما يفعل المنشط الإذاعي

- قبل أن تتطرق الى خلق الأرض، هل لك أن تعيد اختصار كل ما  
قيل حتى الآن؟

- حسنا، لقد تبدت عند حدوث الانفجار العظيم أي بداية خلق الكون  
خمسة معالم خارقة لا تخضع للقوانين الفيزيائية السائدة الآن و لا  
يمكن للعلم وحده أن يفسرها

أولا: نشأة الكون من العدم المطلق Absolue Nothingness، و  
أقصد المفردة Singularity و هي أصغر من طول بلانك ، و وفقا  
لقوانين الفيزياء يستحيل وجود المفردة بهذا الطول اللامتناهي في  
الصغر

ثانيا :بداية نشأة الكون بخمس ظواهر خارقة للقوانين الفيزيائية  
المعروفة الآن ،فالمفردة بالإضافة الى طولها المستحيل لا نهائية  
الكثافة بحيث أن كتلتها عادت كتلة الكون الحالي كله، ثم درجة  
حرارة الانفجار التي تجاوزت درجة حرارة بلانك و تجاوز سرعة  
تمدد الكون الوليد لسرعة الضوء بمقدار مليار مليار مرة و أخيرا  
تجمع القوى الأربعة في قوة واحدة داخل المفردة

ثالثا: سريان الكون من حالة اللانتظام المطلق أو ما يعرف بالشوش  
Chaos و التبعثر Entropy و ما يصاحبهما من توزيع سيء  
للطاقة، الى حالة الإنتظام و الإستغلال الأفضل للطاقة أي بناء المادة  
بدلا من فقدان الطاقة ،ومن البنية الأيسر الى البنية الأعقد

- هل من معقب ؟ نعم سيد راهول

- لما كانت ظاهرتي الشوش و التبعثر تقتضيان اتجاه عناصر  
المنظومة الى المزيد من التبعثر و الفوضى و فقدان الطاقة ، ما هو  
التفسير العلمي لكل هذا النظام البديع؟

قال جيمي:

- لعلها الصدفة

- الصدفة تطرح ملايين الإحتمالات، لما اختارت الإختيار الأمثل علما أنه الإختيار الأصعب و الأقل احتمالا؟ في مناسبة كهذه قال أنشتاين إن الله لا يلعب بالنرد
- وما تفسيرك لهذا سيد راهول؟
- ان الإتجاه الى نظام أكثر كفاءة و أعقدية يحتاج تدخلا ذكيا و فعالا من خارج المنظومة، كل المستحيلات التي ذكرها السيد روسو تؤكد وجود التصميم الذكي و التطور الموجه الذي لا دور للمصادفة فيه
- أنت تقصد إلهك
- أقصد الله الخالق الذي قال في سورة فصلت الآية الثالثة و الخمسون "سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"
- ان كنت تملك أدلة على ما تقول فهاتها بدل التكلم بخرافات الأجداد
- سأفعل، بعد أن يكمل السيد روسو كلامه عن خلق الأرض
- في الوقت الحالي أظن أن هناك ما هو أهم من خلق الأرض اتجهنا جميعا صوب طوماس و سألناه في صوت واحد
- ماذا
- الطعام

عند الخروج، أمسكني جيمني من ذراعي قائلا:

- إن جدي ينتظرنا بأحد المطاعم الجميلة ، لقد حجز لنا مقعدين معه
- لماذا كلف نفسه؟

-أظنه أحس بقرب أجله و خاف أن نرثه..وقهقه كعادته

- بعد ثلاثين دقيقة ركن جونيور سيارته بأحد المواقف الكبيرة وسط المدينة، ترحلنا لمدة خمس دقائق الى أن وصلنا الى المكان المقصود، تفاجأت لما قرأت اسم المطعم ، فلافل المأمون ، قلت لجيمي:
- انه مطعم عربي

- نعم، أنت تعرف جدي، يعشق العرب

اتجه جونيور نحو الإستقبال و قال:

- لنا حجز باسم أوبال ثيودور

- آه حسنا، طاولتكما في الزاوية هناك، سأرافكما اليها

توجهنا الى طاولة تقع قرب الحائط الزجاجي حيث كان الشيخ بانتظارنا، ألقينا التحية عليه فوقف ليرد علي التحية، و عزمي على الجلوس

- شكرا سيد ثيودور على كرمك من أجل الغذاء و من أجل شريحة الهاتف

- كيف تبقى أسبوعا كاملا بدون هاتف؟ ألا تفكر في شعور والديك حين لا يستطيعون الإتصال بك؟

- بلى سيدي، لقد اتصلت بهم أكثر من مرة عبر الماسنجر نظر الي مستغربا

- عبر الأنترنت جدي

- حسنا، كيف وجدت عملك الجديد

- رائع، لقد شاءت الصدفة أن تضعني وسط مجموعة رائعة

- الصدفة؟! هل تؤمن حقا بالصدف؟

- إن لم تكن الصدفة فماذا أسميها سيد ثيودور

- لا تتنادني بالسيد أرجوك، نادني جدي ..هز كتفيه مبتسما و كأنه يسخر من كلامي..أظنكما جائعان، فلنطلب الطعام

رفع يده سائلا الناذل

- ماذا ستطلبان؟

- لا أدري، لست خبيرا بالمطبخ العربي

- دعاني أتول أمركما أيها الغران..ثم توجه الى الناذل بالكلام..احضر لنا طبقا من الكباب ، طبقا من المحشي و طبقا من الفلافل مع بعض النبيذ الأحمر و اختر ما ستقدمه لنا كمقبلات
- نظرنا أنا و جيمي الى بعضنا و ضحكنا
- ألا يمكننا تناول طعام أمريكي جدي؟
- أو فرنسي؟
- عليكما الخروج من قوقعتكما، لم تعودا طفلين يبيكان للحصول على رقائق الشيبس
- لقد بدأ فرانسوا فعلا بالخروج من قوقعته..ضحك ضحكة شريرة و واصل كلامه..أتعرف جنسية صديقة فرانسوا الجديدة؟ انها اسرائيلية و كأن كلام جيمي صدم الشيخ الذي تصلب مكانه و نظره يثقبني
- انها أحد أفراد المجموعة العلمية..قلت مبررا
- صهيونية؟
- اسرائيلية يهودية الأصل لكنها ملحدة كما تزعم
- لما أسمع بيهودي ملحد أو علماني يتخيل إلى ذهني قهوة دون كافيين، مالك و مالمفسدين فرانسوا، ظننتك أكثر حكمة
- لكنك لا تعرفها، لما حكمت عليها مباشرة بالفساد
- في الفترة التي احتلت فيها ألمانيا شمال فرنسا، ماذا كنت لتعتقد عن الألمان الذين تواجدوا في فرنسا
- ما كنت لأقبل وجودهم الإستعماري، لكن يبدو الأمر مختلفا مع اسرائيل
- ما الذي يعطيهم شرعية الإحتلال
- لا أدري، لست خبيرا بقضايا الشرق الأوسط

- رغم هذا تظن أن لهم شرعية الإستولاء على أراضي لها أهلها الشرعيين، هذا ما يفعله الإعلام بعقولكم الغبية، يجعلكم تقبلون الأخطاء و كأنها مسلمات

- لم أقل إني أؤيد وجودهم، ولكن ببساطة الأمر لا يعنيني، أنا أخالطها لأنها زميلتي فقط، ليس أكثر من هذا

- لن أَرْضَى لنفسي بمخالطة قتلة الأطفال و العجزة - هل هم كذلك؟

- طبعاً، ألم يهدموا بناية كاملة على رأس سكانها من أطفال و نساء من أجل النيل من الشيخ المقعد، فقط لأنه زعيم روعي للمقاومة؟ هل تعلم عنم أتكلم؟

- لا

- الشيخ ياسين، شيخ متقدم في السن، مقعد لا يستطيع حتى تحريك كرسيه المتحرك، بل كان طريح الفراش حين هدموا عمارة على رأسه، ألا ترى كيف يطلقون الرصاص الحي على شبان ثائرين لا يملكون سوى الحجارة للدفاع عن أنفسهم؟

- أخبرتني نادية أن الجيش الإسرائيلي جيش دفاعي - طبعاً، أحسن دفاع هو الهجوم

في هذه الأثناء جاء النادل بالطعام و كنت ممتنا له لأنه قاطع هجوم الشيخ

- ما رأيك جيمي بالطعام العربي

- يبدوا لذيذاً مادام يحتوي على الكثير من اللحم

- هل أخبرك جيمي أنكما ستقضيان الليلة عندي؟

- نعم، شكراً لك جد ثيودور، لكني لا أحب أن أثقل عليك

- أنا رجل وحيد بني، و أكثر ما أحبه هو أن يزعجني ضيف يأتيني من بلد آخر لأنني أحب مشاركة القصص و الآراء مع سكان العالم، هذه هي الأنترنت المتاحة لي

- قل لي جدي أين ستنتظرنا الى حين خروجنا من المختبر؟

- لقد قضيت كل مصالحي التي أتيت من أجلها، ربما سأغفوا قليلا في السيارة

- لا يا جد ثيودور، سوف تنتظرني في غرفتي الجامعية، بها سرير مريح كما أنها مرتبة سوف تعجبك  
- فليكن

- كان طعاما لذيذا و دسما، و كنت لأستمتع أكثر لو حصلنا على قيلولة ليس اليوم فرانسوا، اليوم سوف تقص علينا قصة خلق الأرض  
- حسنا فلنبدأ، لكن ان سمحت سيد وايت أريد أن أسأل رأي اسحاق كدارس للتاريخ عن ما جاء عن خلق الأرض حسب الدراسات القديمة من دون أن ينتظر إسحاق رأي البروفيسور استرسل في الشرح  
-ان جميع الحضارات القديمة المصرية، البابلية، الآشورية، حضارات الشرق الأقصى و الحضارتان اليونانية و الرومانية، كلهم وضعوا الأرض في مكانة مركزية الوجود، كما جعلوا الإنسان محور اهتمام الآلهة، و قد جسد النظام البطليموسي الذي وضعه الرياضي الفلكي السكندري بطليموس 75-165 ميلادي، النظام الأكثر تماشيا مع ما جاء في سفر التكوين الذي يتصور أن الأرض هي مركز الكون و أن تدور الشمس و باقي الأجرام حولها، هذا الإعتقاد جعل الكنيسة الكاثوليكية تتبناه في طيلة العصور الوسطى لأنه يجعل الإنسان كأننا متفردا، لا أدري ان كان للقرآن رأي آخر

- القرآن يوافق تماما على جعل الإنسان متفردا و على أن الكون في خدمته، سواء وقعت الأرض في مركزه أم لا، لكنه لم يفصل في الحقائق العلمية و اكتفى بتحديد خطوطها العريضة و وكل أمر التفاصيل الى الإنسان ليبحث و يستكشف في بداية الخلق "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق"

- أكمل من هنا سيد روسو

- توصل الرياضي الفلكي البولندي كوبرنيكوس Copernicus 1473-1543 ميلادي الى أنه يمكن تفسير حركة الكواكب كما يمكن وضع المعادلات التي تحدد مداراتها بشكل أيسر لو وضعنا الشمس في مركز الكون بدلا من الأرض لتدور الأرض و باقي الأجرام حولها، ما سبب له الكثير من المشاكل لتشكيكه في مفاهيم بطليموس المقدسة عند الكنيسة، و هذا ما حدث أيضا مع الفلكي الإيطالي جاليليو Galileo Galileo 1564-1642 ميلادي الذي أثبت فرضيات كوبرنيكوس الرياضية من خلال التليسكوب، و قد وافق هذا نهاية العصور الوسطى المظلمة في أوروبا و بداية العصر الحديث، لتتوالى الإكتشافات الفلكية المذهلة التي قللت شيئا فشيئا من خصوصية كوكب الأرض و بالتالي من خصوصية الإنسان، حيث برهن أن الشمس ليست هي مركز الكون، بل أنها ليست حتى مركز مجرتنا، بل أنه ليس للكون مركز على الإطلاق، و ساد الفهم الخاطئ أن الكون أزلي لا بداية له و بالتالي لم يعد هناك حاجة للبحث عن خالق الكون

قاطعني السيد وايت مخاطبا نادبة

- ولهذا بنيتي أحب طرح كل النظريات الممكنة حتى لو كانت مجرد أساطير، فما قد يبدوا بديها و مبرهنا اليوم قد يظهر أنه خاطئ في

زمن قادم، فما هو العلم في زمن ليس ببعيد قد اعتبر الأرض مجرد هبأة لا اعتبار لها و جعل من الإنسان مجرد صدفة أحدثتها الطبيعة - لا يزال الأمر على هذا الحال سيد وايت، لا يزال العلماء يعتقدون أن خلق الكون و بالتالي الإنسان مجرد صدفة، الأمر الجديد هو البرهنة على أن للكون بداية

- ألا يجعلك هذا تبحثين في موجدته، و في سبب وجوده؟

- أظنها الصدفة سيدي

- واصل فرانسوا

- لقد أصبحت الصورة كالاتي، نزع عن الإنسان كل الخصوصية التي خصته بها الأساطير و الفلسفات القديمة و مختلف الديانات، و ظهر و كأنه أحد أنواع الحيوانات التي ظهرت عشوائيا بالصدفة على سطح صخرة تدور حول نجم لا وزن له، في مجرة من ضمن بلايين و بلايين المجرات، فقال بعض المختصين أن هناك على الأقل مليون حضارة على الأقل في مجرتنا من دون تقديم براهين، و أخبر آخرون أنه في أي كوكب اذا ما توفر ثالث الطاقة، المواد العضوية و الماء فستكون الحياة، و أخيرا أخبرنا أحد زعماء الإلحاد المعاصرين و هو أستاذ البيولوجيا الجزيئية في بريطانيا أننا نحن البشر في القاع، لا تصميم، لا غاية، لا خير و لا شر، لا شيء إلا الضياع

-أنا أشاطره الرأي تماما، رأيت سيد وايت، مع كل علمه و خبرته ها هو يرى ما أرى

- عفوا بنيتي، إن الرجل رجل علم كثير، لكنه من ناحية الفلسفة فهو متواضع جدا، ظننتك كمختصة في الفلسفة تعين محدودية العلم مقارنة بالفلسفة التي هي أم العلوم، فالعلم يعتمد مدى تقدم التكنولوجيا، بينما الفلسفة فتعتمد على اتساع العقل، أليس كذلك سيد راهول؟

- و هو كذلك، يقول الله تعالى "فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون"  
أي أهل الإختصاص، قد أستفيد من أي عالم لكن في مجال علمه فقط،  
قد يفيدنا أستاذ البيولوجيا في ميدان البيولوجيا، لكني لن آخذ برأيه في  
مجال الفلسفة و الدين

- فعلا، فكما تقدم العلم نكتشف أمورا جديدة من شأنها أن تؤيد بعض  
الآراء القديمة أو تنفيها تماما، فهاهي الكرة تترد الى الجانب الآخر، و  
يتبين مع تطور العلم أكثر فأكثر أن الأرض كوكب متفرد في موضعه  
و في صفاته ، أي أنه بعيد جدا من أن يكون مجرد هباءة لا اعتبار  
لها، لقد قرأت كتاب الكوكب المتميز The privileges planete  
لأندهش من الصفات المثالية و المتفردة لكوكب الأرض، فمجرتنا هي  
المجرة الأمثل، كما أن الأرض تقع في المنطقة الأمثل من المجرة،  
فمجرتنا أخذت الشكل الحلزوني Spiral Galaxy أي تتكون من  
جسم و ذراعين يلتفان حول الجسم، و يقع في مركز جسم المجرة ثقب  
أسود يبتلع أي جسم يقترب منه أما الذراعان فمزدهمان بالنجوم غير  
المستقرة نتيجة للتجاذب الشديد بينهما، كما أن أغلبها من النجوم  
المتفجرة، كما أن حجم مجرتنا يمكنها من جذب كميات كبيرة من  
الهيليوم و الهيدروجين مما يعني مزيدا من العناصر الثقيلة كالكربون  
و النيتروجين، فالمجرات الصغيرة فقيرة من هذه العناصر، لهذه  
الأسباب أصبحت منطقة اتصال جسم مجرتنا الحلزونية بذراعيها هي  
المنطقة المثلى لنشأة حياة مستقرة، و تعرف هذه المنطقة باسم المنطقة  
القابلة للسكنى ثم ان هناك القمر الذي يدور حول الأرض ليحدث  
ظاهرتي المد و الجزر فيمكن بذلك الماء من الدوران في هذه المساعة  
المائية الشاسعة مما يقلل من الفارق بين درجات الحرارة بين المناطق  
الباردة و الساخنة على الأرض، كما يحمل الماء بعضا من مكونات  
الشواطئ الى المحيطات و البحار ليوفر للحيوانات المائية بعض

احتياجاتها الغذائية، كما اكتشف العلماء عام 1993 دورا بالغ الأهمية للقمر في المحافظة على زاوية ميل محور الأرض و هو ما يؤدي الى وجود فصول السنة و يجعل معظم مناطق الأرض قابلة للسكنى، كما أنه علينا ذكر أن طبيعة الأرض بجوفها المنصهر و قشرتها المتكونة من صفائح متراصة تطفوا فوق اللب المنصهر و المثبتة بواسطة الجبال كأوتاد، كل هذا ضروري لوجود و تنوع الحياة على الأرض، ثم ان هناك الموقع الأمثل للأرض من الشمس حيث يوجد الماء في هيئاته الثلاث الغازي، السائل و الصلب، أذكر أيضا حجم و جاذبية الأرض فلو كان حجم الكرة الأرضية أكبر أو أقل مما هو عليه فعلا لاستحالت الحياة، فلو كانت أقل لما استطاعت تكوين الغلاف الجوي و لما حافظت على بخار الماء و لا الهواء و لو كانت أكبر مما هي عليه لاستحالت الحياة من شدة الجاذبية، أمر آخر مهم و هو سرعة دوران الأرض حول الشمس البالغ 30كلم في الثانية، فلو كانت أكبر من ذلك لقتفت الأرض و خرجت من مسارها و لو كانت أقل لطال النهار فتحرق الشمس كل شيء على سطح الأرض، سأذكر أيضا العباءات الواقية للأرض و هي ثلاث، العباءة الخارجية و هي مجال مغناطيسي يعكس العواصف الشمسية التي تهب على جميع كواكب المجموعة الشمسية، العباءة الثانية و هي طبقة الأوزون التي تحمي الأرض من الأشعة الكونية الضارة، و العباءة الثالثة و هي الغلاف الجوي، بالإضافة الى وجود الماء على الأرض الذي هو أساس كل حياة

-ما رأيكم فيما عرضه فرانسوا؟

- أنا أرى أنه اختار عرض النظرية بطريقة توافق وجود الخالق، و قد ركز على وجود الكثير من الظواهر الغير محتملة بالصدفة، و هذا في نظري تقصير في حق الحقيقة الكاملة، فهناك الكثير من النظريات

التي تبين أن الكون يمكنه أن يكون من دون خالق، لم لم يتكلم السيد روسو عن نظرية الكون المتذبذب مثلا *Uscillating universe* التي تشبه نظرية الانفجار العظيم لكنها ترى أن الكون نشأ من انفجار عظيم أعقبه انسحاق عظيم أعاد الكون الى حالة المفردة ثم أعقب ذلك انفجار عظيم آخر ثم انسحاق عظيم و هكذا الى ما لا نهاية في القدم، أي أن هذا التذبذب أزلي ، و بالتالي لن تكون هناك بداية مما يجعل احتمال وجود الخالق غير ضروري

رفع راهول يده طالبا الإذن للإجابة

- لأن العالمان الروسيان اللذان أتيا بهذه النظرية عام 1963 قد رجعا عنها بعد سبع سنوات من طرحها لعدم استطاعتهما تقديم أدلة عليها  
- و ما رأيك في النظرية التي تقول أن هناك كون هائل أزلي أنتج العديد من الأكوان منها كوننا الحالي

- هذا الإعتراض هو امتداد للإعتراض السابق مع اختلاف واحد، و هو نسب الأزلية الى كون أم ، لكن أصحاب هذه النظرية يعجزون عن تفسير أزلية هذا الكون كما عجز من سبقهم عن تفسير كوننا الحالي، في هذا الصدد يؤكد عالم الكونيات بيبلز P.J. Peebles أن هاتين الأطروحتين هما فرضيتان و لم ترتقيا الى وصف النظرية التي لا بد لها من حقائق أو معلومات تسندها

- في الحقيقة، ليس ضروريا أن كل موجود له بداية لا بد له من موجد أو مصدر سابق عليه

- هذا غير منطقي للأسباب الثلاثة:

أولا: هناك ادراك بشري ببداية فكرة أن كل حدث له سبب، و هو ما يسمى بقانون العلاقة بين الحدث و المسبب *Law of Cause ans*

*Effect*

ثانياً: ان العدم المطلق لا يملك موردا و لا دافعا لإنتاج شيء ما، و لو افترضنا ذلك فلن يكون العدم عدما مطلقا

ثالثاً: مشكلة الملاحظة الكبرى هو تصورهم أن القول بإله خالق يتعارض مع المنهج العلمي، و لكن قولي لي سيدتي، ألا يتعارض خروج شيء من لا شيء دون سبب مع المنهج العلمي؟ منطقكم هذا يقضي على المنهج العلمي

- ما أجمل العلم، جميل الى درجة أنه أنسانا الوقت، هل سنتقابل في الأسبوع المقبل ليكمل لنا السيد روسو رواية خلق الحياة؟  
- هذا جيد سيد وايت، سيكفيني أسبوع لتحضير البحث، طبعاً ان وافق الجميع

دخلت رفقة جيمي الى غرفتي الجامعية، فوجدت الجد ثيودور واقفا يتأمل لوحتي المعلقة على الجدار بتمعن مثير للفضول

- أهلا جدي ،ظننتك نائما، لماذا أنت واقف

- ألا تراني أتأمل اللوحة ثيودور؟ لمن هذه فرانسوا

- إنها لي، لقد رسمتها حديثا

نظر إلي نظرة استهزاء و قال

- ظننتها امرأة، لا تشبهك الرسمة كثيرا

-لم أفهم سؤالك جد ثيودور، أقصد أنني من رسمها

- و؟ الجواب على سؤالي

لم أجد داعيا لإعادة سرد قصة المرأة في المنام فأجبتة دون تفكير

- انه مجرد وجه نسوي، لكن الصورتان الأخرتان هما صورتا أبي و أمي

ألقى الجد ببصره على الصورتان من دون أن يلقي لهما بالا، ثم عاد لتأمل الرسمة عن كثب، بدى غريبا و هو يقترب جدا من الصورة حتى لم يعد يفصل بينهما أكثر من شبر واحد، و قال بصوت خفيف و كف يده على خده في وضعية تفكير

- بل هي أكثر من وجه ترسمه روسو، أكثر بكثير

دخلنا بيت الجد ، و تفاجأت بوجود السيدة أريثا و الأنسة اليزابيث، في الحقيقة لقد سررت بذلك لأنني بدأت أشتاق الأجواء العائلية، ألقيت التحية على الجميع، ثم توجهنا الى الحديقة أين جلسنا على طاولة خشبية تحمل على سطحها حليبيا، قهوة، و بعض الشاي بالإضافة الى فطائر التفاح و الفراولة، تناولت منها ما استطعت، ثم صببت قهوة سوداء بدون سكر لأتخلص من ذوق السكر العالق بلساني، تبادلنا

أطراف الحديث، و كنت أنصت لكل متكلم محاولا معرفة تفاصيل حياته، و خاصة إليزابيث لأنني بدأت أعجب بها، إلا أنها أبعدتني عن التفكير فيها بسبب أنها كثيرة تكرار كلمة حبيبي السابق، لما انفردنا سألتها:

- أنت تكثرين من قول حبيبي السابق، أظنك لا تزالين تكنين له المشاعر، و إلا فلما كل هذا الحديث عنه؟

قهقهت بصوت به بعض الوقاحة و قالت

- أنا لا أقصد شخصا واحدا، لدي الكثير من الأحباء السابقين، فأنا امرأة محبوبة

- ألم تعثري على رجل صالح تعيشين معه دون أن تحمليه لقب سابق

- هكذا يفكر الفرنسيون إذا؟

- بل هكذا أفكر أنا، أنت تذكريني بصديقة فرنسية تدعى صوفي، امرأة متحررة و تكره القيود

- هذا يعني أنك تستطيع فهمي، أنا أو من بشدة بالحرية، لا أحب أن أنحصر في مكان ضيق

- و هل العيش مع حبيب واحد بضيق من مساحتك؟

- نعم، جدا، ماذا لو كنت مع رجل و أعجبني آخر

- واصلني

- هل الأحسن أن أخون حبيبي أم أن أفارقه و أصادق الرجل الجديد

- الأحسن أن تكبجي هذه الشهوات ، ستصبحين مهووسة

- هل أنت قس أو ما شابه؟

- لا، قلت مستنكرا

- هل أنت شاذ؟

- أبدا! لكن أراك تفقدين السيطرة على نفسك

- هذه هي الحرية

- أبدأ، قد تصدقين في أنك تحررت من قيود المجتمع و الدين، لكنك  
أمسيت مقيدة بأهوائك ، و أظن أن هذا أخطر، لأن النفس لا تشبع،  
كلما أعطيتها سألتك المزيد، ألا تسمعين من حين لآخر بوفاة شخص  
ما اثر جرعة مخدرات زائدة؟ هذا ما يحدث معه، تطالبه نفسه بأن  
يشبعها، وكلما أعطها طلبت المزيد، حتى قضت عليه  
وأنا أشرح لها كانت نظراتها الثاقبة تشع حنقا، فخيل لي أي اخترت  
المثال الذي أزعجها

- المخدرات مجرد مثال، اخترتها لأن طريقها قصير، لكن الأمر  
نفسه مع كل مشتريات النفس إن نحن انصعنا لها و أعطيناها كل ما  
تريد

حدقت إيزابيل قليلا الى عياني، ثم استأذنت معللة ذهابها بمساعدة  
امها في تحضير العشاء، أما أنا ففهمت من استئذانها شيئا، الأول هو  
أني لن أتحمّل صداقتها، و الثاني هو أنها لن تتحملني أكثر من بضع  
دقائق قد خلت

طلبني الجد لأجلس معه في صالون بيته الشاسع، جلست على أريكة  
سوداء فخمة، أحسست أنها ابتلعتني و كأنها صممت لأصحاب  
الأجساد الضخمة، أغلق الجد الباب و أشعل مصابيح الثرية الخافتة و  
كأنها شموع معلقة، رائحة جلد الأرائك ممزوجة برائحة الحطب  
القديم الذي يشكل أغلب ديكور الصالون تعمان المكان، اتجه الشيخ  
الى زاوية الغرفة الكبيرة حيث يوجد جهاز موسيقى لم أرى مثله إلا  
في الأفلام، يعلوه بوق نحاسي أصفر مرتكز على القاعدة حيث وضع  
الجد قرصا رغم عمره إلا أنه يبدو جديدا من حالة غلافه الورقي،  
غلب الهدوء صوت أسكن منه، موسيقى هادئة ، تعتمد على آلات  
أصلية، أصواتها متناغمة، لذيدة، دافئة، جعلتني أشعر و كأن أحدهم  
يدلك مخي و أعصابي، أخرجني صوته السائل من حالة الإسترخاء

- أفضّل القهوة أم الشاي؟
- في هذا الوقت و بعد ما تناولنا قبل قليل، أفضل قارورة جعة ان أمكن
- مع قليل من الويسكي؟
- لا جدي، لا يزال الوقت باكرا
- خرج ثيودور مرة أخرى، ربما ليأتيني بما طلبت، فوقفت أتأمل المكان، يبدوا و كأنه بني في فترة الحرب العالمية الثانية، رأيت بعض الكتب الموضوعه بطريقة عشوائية على سطح خزانة أرضية، سمحت لنفسي بقراءة بعض العناوين، بعضها يخص الحرب العالمية، و بعضها يخص دول شمال افريقيا، كتاب يطل بنصف عنوانه المحتوي على كلمة الجوسسة
- هل تحب الكتب؟
- استدرت صوب الصوت و كان الشيخ يحمل قارورة تنصب قطرات البرودة، شكرته و أحببت و أنا أجلس على الأريكة
- أعشق الكتب
- ماذا تقرأ عادة؟
- اما كتبا علمية أو روايات علمية خيالية ، و لكن لا بأس بتكسير الروتين من حين لآخر بكتب من أصناف أخرى، و خاصة كتب تطوير الذات
- ألا تحب التاريخ؟
- ليس كثيرا
- مع أنه يعلم الإنسان عن نفسه أكثر مما تفعل العلوم الأخرى
- لقد تعلم الإنسان عن نفسه الكثير بواسطة العلوم الطبية في القرن الأخير

- أظنه تعلم الكثير عن الجسد الذي صنفه العلم الحديث على أنه آلة تحتوي على معدات متخصصة، فالقلب آلة ضخ، و العضلة أداة تحريك، و المخ أداة تحكم و تفكير، و المعدة جهاز هضم، و هكذا - ألسنا كذلك؟

نظر الي بتعجب رافعا حاجبا واحدا

- طبعا لا، لسنا مجرد آلات، نحن بشر، نحن كائنات ذكية مبدعة، نحن كائنات نحب تقليد الله الخالق رغم محدوديتنا - لقد أجرى العلماء دراسات عميقة على المخ، و أصبحنا اليوم نعلم مراكز الذاكرة، مراكز الإبداع و الفنون، مراكز المنطق و الحساب، و مركز التفكير، لهذا فنحن آلة بلغت من الدقة و الإبداع حدود العجز، و لكن و مع هذا لسنا أكثر من آلة - و قد سمعت أن علماءكم قد وصلوا حتى الى تحليل الحب عند الإنسان، ألا يقول البيولوجيون اليوم أنها كيمياء، ليست أكثر من هذا؟ - حقا جدي، انها كذلك

- ألم يخطر ببال هؤلاء أن هناك من يستعمل هذه الأجهزة؟ هل تعتقد فعلا أنك هذا الجسد، لست أكثر؟

- نعم، مع أنني أصارحك أنني أحس بأنني أكثر من ذلك - خطأ العلم الحديث و منهجية البحث العلمي هو تخليه عن كل ما هو ما وراء الطبيعة، و ثقته العمياء في العلم التجريبي الذي رغم تطوره النسبي يبقى عاجزا تماما في شرح الكثير من الظواهر - ماذا تقصد؟

- الإنسان ككتاب، قيمته ليست في ورقه و حبره، قيمته في محتواه الفكري، الإنسان يتعدى الجسد الى الروح، روحك هي شخصك الحقيقي، روحك هي التي تستعمل مخك في التفكير، و قدمك في

القصء، و ىءك فى الكءابة، و هى الذى ءأمر المء بافرار مائة الءب لءى ىسءءب ءسمك لهذا الإءساس

- لم ىءم اءباء وءوء الروح، و لهذا فالعلم ىنظر الىها على أنها ءرافة أءاء أو أسءورة أولىن

- علمك هذا أءرم فى ءق الله الءالق، و أءرم فى ءق الروحانىاء، أنءم المءعلمىن أءبباء الى ءرءة أنكم ءءءقءون أن الإنسان بءءقىءه الذى ءءلمء عنه قبل قليل مءرء صءفة ظهرت من ءون ءالق، و أنه مءرء آلة ءءضع لقوانىن الطبىعة كما ىفعل الصءر، أءبرنى ، كىف ءعرف الءىاة من ءون ءكر الروح؟

و كأن الءء ىءضر معى لمءاضرى القاءمة، فسؤاله ىءءلنى الى موءوع بءءى مباءرة

- أءن أن الءىاة هى مءموعة ءفاعلاء فى الءلىة ءمكن هذه الأءىرة من القىام بوظائفها الءبوىة و من ءءاءر ءاصة، علما أن الءلىة هى الوءءة الأساسية للكانن الءى، انها بمءابة الءرة بالنسبة للمائة

- ما الفرق اذا بىن ءلىة ءىة و أءرى مائء ءءوها

- الأولى ءقوم بوظائفها الءبوىة، و ءالنىة لا ءقوم بأى وءىفة

- نبىه ءءا أنء ىا بنى، و كأنك أمسء ءءور من قرنه، اءرء لى ما الذى ءعل الءلىة ءالنىة مىءة

- لا أءرى ..قلت ءءلا

- قل لى، ما الفرق بىنهما على المءءوى الءرى؟

- أءنهما مءءابىبن، لا بء أن ىءءوىا على ءراء مءمائلة

- هل ءعلم بنى أن مءونات الإنسان من ءىء العناصر و النسب ءءببه كءبىرا مءونات ءءراب

- و مع ذلك فالإنسان كائن حي ذكي، و التراب مجرد جماد، أعلم هذا جيدا، هذا ما نحن عليه للأسف، هذه هي حقيقة الأمر، لسنا بذلك القدر الذي أعطيناه لأنفسنا  
- بل اننا أعظم قدرا

- هل تظن جدي أن وجود الإنسان على الأرض شئى إيجابي، أنا لا أعتقد ذلك، كانت الأرض لتكون أفضل في غياب الإنسان  
- كانت الأرض لتكون بدون أي قيمة لولا أن الإنسان عمرها، وكانت مجرد نباتات و حيوانات و لا شيء غير ذلك، أنت لا ترى كل الحضارات المتتالية التي ميزتنا عن سائر المخلوقات، كل ما بناه الإنسان من جمال و تعمير، كل الفنون الموجودة منذ ظهور الإنسان  
- لكن هناك في المقابل كل الحروب التي افتعلها الإنسان، كل الجرائم التي طالت الإنسان و الحيوان و النبات، التدمير، القتل، الظلم، أنا أرى أن الإنسان آلة فساد

- اسمع بني، المفسدون في الأرض أقرب الى الحيوان المفسد منهم الى الإنسان، فحتى عالم الحيوان مليء بالمفسدين، الخنزير مثلا حيوان مفسد، القرد حيوان ظالم، الحية حيوان قاتل، بل و حتى الميكروبات منهم المفسد الذي لو غاب عن الأرض لكانت أفضل، هذا واقع، أما الإنسان فهو المخلوق الذي تميز عن كل المخلوقات الأخرى بالعقل

- ليس الأمر سيان، تقتل الحيوانات لتعيش و في بعض الأحيان لتفرض نفسها في الطبيعة القاسية

- من الناحية المادية، حتى الإنسان يفعل ذلك لنفس الأسباب، انه يفرض نفسه حتى مع بني جنسه، لما تظن أن ما وصلنا إليه من آلات الدمار و أسلحة للقتل يختلف عن الأسلحة الطبيعية للحيوانات ؟ ففي النهاية كل ما قام به الإنسان هو استغلال لموارد الطبيعة و قوانينها

التي لم يخلق منها شيئاً، و بالتالي حتى القنبلة الذرية و أسلحة الدمار  
الشامل لا تختلفان عن مصيدة يقوم بها حيوان ما من أجل القضاء  
على حيوان آخر، التفكير المادي يفرض عليكم أنتم الماديون قبول  
الأمر على هذا النحو و بالتالي فلا يحق لكم تجريم الإنسان كما لم  
يحق لكم تجريم الحيوان و النباتات السامة

- لولا العقل الذي يميز الإنسان لكان الحق معك  
- ما تعريفك أنت للعقل؟

- هو عملية يقوم بها المخ، و الإنسان يتميز به لأنه و ببساطة يملك  
الفص الجبهي الذي يملك القدرة على هذه الوظيفة  
-في هذه الحالة، هل يمكننا اجراء تغييرات في هذه المنطقة لنزيد من  
قدرة العقل؟

- هناك بعض التمارين التي من شأنها زيادة نسبة الذكاء  
- انت تساوي إذن بين الذكاء و العقل؟

- نعم

- أنت مخطئ، العقل أكبر من أن يكون ذكاءاً، هناك حيوانات ذكية و  
ماكرة، هناك من أصحاب الإعاقات الذهنية من يفوقنا ذكاءاً،  
المتوحدون مثلاً لهم من الذكاء ما يبهرنا ، الى درجة أن من تسميات  
مرض التوحد مرض العباقرة، لكنهم من حيث العقل بسطاء جدا  
-ما العقل في تقديرك اذن؟

- انه كالروح، لا يمكن لمسه، بل لعله يكون جزءاً من الروح أو ربما  
يكون أكثر من مجرد جزء، أنا أعتقد أن العقل يستعمل المخ كأداة  
لتطوير نفسه، و بالعودة الى موضوعنا السابق فإنني أعتقد أن العقل  
هو الشيء الوحيد الذي يمكن الإنسان من تجاوز أنانيته التي هي أصل  
فساده، إن الإنسان المفسد يستعمل ذكاءه من أجل أطماعه، لكنه لا

يستخدم عقله، و بدون هذا الأخير لن يتعدى الإنسان مستوى الحيوان  
الذكي، كل المفسدون في الأرض مجرد حيوانات ذكية

- أنت تتكلم عن الذكاء الروحي

- سمه كما شئت

- الذكاء الروحي هو ما يمنح الإنسان ذلك الحب الذي يجعله يفكر في  
أخيه الإنسان و في كل حياة تحيط به، و يقدم مصلحة الجميع على  
أنانيته

- ما رأيك اذن في هذا الإنسان الذي يقدم المصلحة العامة على  
المصلحة الخاصة، هل ترى أن الأرض بغيابه أفضل؟

- لا، لكن هؤلاء قلة، كم من أم تريزا في العالم؟، كم من غاندي؟

- كما أن المفسدين قلة

قلت في صوت المتفاجئ

- قلة؟ كل هذا الفساد في الأرض، و تعتقد أن المفسدين قلة؟

- نعم، فلنقارن مثلا بين عدد من يحمل السلاح في سوريا و بين عدد  
المهاجرين مجموع مع عدد من يحتمل الظلم و من يقاوم الظلم في  
صمت، ان اعتبرنا أن كل المسلحين أشرار، و كل من أمسك يده عن  
سفك الدماء أخيار، فإن الكفة ستميل الى الأخيار، هؤلاء الذين رغم  
القهر فضلوا سبيل السلام؟ ما نسبة عدد الصهاينة الظالمين مع عدد  
الفلستينيين أصحاب الحق، ما نسبة عدد مقاتلي الحلف العربي مع  
عدد اليمينيين الأبرياء؟ ما نسبة عدد المقاتلين الليبيين مع عدد  
المواطنين البسطاء، ما نسبة عدد الظالمين القاتلين في بورما مع عدد  
النازحين الى بانغلاديش؟ ان للظلم دوي و ان للسلام سكون، هذا ما  
يجعلك تلاحظ الظلم دون أن تنتبه للسلام، زد على هذا، أن هناك  
الأغلبية الساحقة ممن يحملون السلاح يتبعون الأوامر من دون تفكير،  
هذا لا يبرؤهم لكنهم ليسوا بنفس شر رؤسائهم المخططين، لقد

شاركت في الحرب العالمية مع الحلف ضد القوة النازية، أتعلم أكثر  
ما كان الجنود من كلا الكتلتين يتمنونه؟

- الفوز؟

- بل انتهاء الحرب، قل لي فرانسوا، هل تحسب نفسك انسانا صالحا؟

- أظني كذلك

- لم؟

- لأنني لا أظلم أحدا، و لا أقتل كما أنني صديق للبيئة

- هذا لا يجعلك صالحا، في أحسن الأحوال سيجعل منك شخصا

محايدا بين الصالح و الطالح

- كيف أكون صالحا اذن حسب رأيك

- أن تفعل ما من شأنه إصلاح العالم، ألسنت تنتخب في وطنك

المعروف بديمقراطية؟

- بلى

- وعلى أي أساس تختار من بين المترشحين؟

- أختار من يملك برنامجا من شأنه اصلاح احوال البلاد

- أي بلاد؟

- فرنسا طبعا

- حتى و ان كان البرنامج ظالما لشعوب أخرى؟

فكرت برهة لأن السؤال فاجأني لكني أجبته بصراحة

- في الحقيقة، آخر ما قد يهمني في أي برنامج هو سياسة الدولة

الخارجية تجاه العالم الثالث، قد أدقق في السياسة مع دول الإتحاد

الأوربي فقط، ولا أتعدى ذلك

- مع أن سكان العالم الثالث هم من بني جنسك، و أزيدك أن أكبر

سبب لتخلفهم هو تدخل دولكم العظمى في سياستهم الداخلية لأنه ليس

من مصلحة فرنسا و بريطانيا العظمى و أمريكا إحلال السلام في

- إفريقيا و آسيا، هذا الذي اخترته مخططا لدولتك هو من يقوم بزرع الفتنة بين الإخوة لإشعال فتيل الحرب التي قد توذي بآلاف الأرواح البريئة من أطفال و شيوخ و نساء ليوصل نهب خيراتهم صمت الشيخ هنيهة ليمنحني بضع ثوان من التفكير ثم سألني
- ألا تزال تعتقد أنك انسان صالح؟
  - لا أدري، لم أفكر في الأمر على هذا النحو
  - هذا لأن مدرستكم علمتكم أن مصلحة الوطن أهم من مصلحة الإنسان، هل تعلم ما هو الوطن
  - هو حيز جغرافي..
  - بلا بلا بلا ... قاطعني ساخرا... جيل كامل من آلات تكرار الكلام ،
  - الوطن هو العالم، و المواطن هو الإنسان
  - هذه أمور نسبية جدي
  - و كل ما هو نسبي يحتاج الى مرجع ليصبح مطلقا.. فقهه مواصلا كلامه.. أم أنك تظنني جاهلا بالفيزياء؟
  - و ما هو المرجع؟
  - بالنسبة لي هو الله، أما و انك لا تؤمن به فستظل في النسبية ما حبيبت
  - ان كان الله موجودا، فلم يتركنا لأنفسنا؟، لم لم يتدخل و يعلمنا ؟
  - لقد فعل، و إلا فماذا كان ابراهيم و موسى و عيسى و محمد يفعلون
  - أحسست ببعض الإحباط من إجابته و قلت في نبرة بها بعض الجراءة
  - أرجوك جدي، أنا أتكلم عن اصلاح حال البشر و أنت تحدثني عن رجال يأمرون الناس بالعبادة و الصلاة، هل من شأن هذا إيقاف الحروب؟

- العبادة أكثر مما تظن، انها طريقة حياة، انها تعلم الناس حب بعضهم، و تجبرهم على احترام بعضهم، و تحرم عليهم الإعتداء على بعضهم

- و لهذا فأكثر الصراعات الموجودة هي صراعات إثنية، ديانة ضد ديانة، و مذهب ضد آخر داخل نفس الديانة، و قبيلة ضد قبيلة داخل نفس المذهب، و أخ ضد أخ داخل نفس القبيلة، أنا أرى حال العرب، لقد أفنو بعضهم، و لا أظنهم سيتوقفون عن الإقتتال ما لم يعتنقوا العلمانية، أليس هذا ما حدث في أوربا إبان العصور المظلمة؟ إلى أن تنحى الدين جانبا و أخذت العلمانية مقود الحضارة

- هذا ما فعله الجهلة بالدين، و أقنعوك أنه دين، الدين الذي أنزله الله الى الناس عبر الرسل هو دين واحد، و كل رسول جاء ليذكر الناس ، فكل الرسل في صف واحد و ليس كما يعتقد البعض على أنهم أديان متصارعة ،ها أنت نسيت و تحتاج الى مذكر، ألم تقرأ الكتب المقدسة؟

-قرأت بعضا من العهد القديم و بعضا من العهد الجديد لما كنت مراهقا أثناء بحثي عن أصل الإنسان و الغاية من خلقه، لكني سئمت كل تلك الخرافات و لن أطيق التوغل فيها ثانية، لهذا فأنا أحتاج الى ارشاد جديد، فلو كان الله موجودا لما تركنا لأنفسنا

-ألا ترى أنه يركك كل يوم، و يبعث لك برسائل توعية؟ لكنك لا تصغي و لا تنتبه

-لقد راقبت بريدي الإلكتروني قبل قليل كما أفعل يوميا، و لم أجد غير رسائل شوق من أمي التي ترعاني كل يوم  
- رسائل الله لا تبعث عبر الإلكترونيات  
- لم أعد أستعمل البريد الكلاسيكي

- ولا عبر البريد الكلاسيكي، انها تبعث الى عقلك مباشرة، و على وعيك استيعابها

- لعل التغطية سيئة في كل الأماكن التي أعيش فيها  
- هل تظن وجودك هنا في أمريكا مجرد صدفة؟، هل تظن أن لقاءنا هذا مجرد صدفة؟ هل تظن أن العمل الذي جنّت من أجله و مقابلة زملاء من شتى التخصصات صدفة، هل تظن أن فكرة البحث عن أصل الإنسان و الغاية من خلقه التي راودتك في مراهقتك كما زعمت صدفة؟

- نعم أظن ذلك

وقف الشيخ و اتجه نحو الباب فاتحا إياه و قال  
-ستعرف يوما ما أنها ليست صدفة، أعلم أنك مرهق ،اذهب لتستريح قليلا سنلتقي على طاولة العشاء

- استمتعت بالعشاء حقا، منذ فترة لم أذق أكلا منزليا
- بصحتك بني، لم لا تأتي إلى منزلي في المرة القادمة رفقة جونيور؟ سأعد لك كل ما تريد
- سأفعل يوما ما سيده أريثا، أنا أشكركم جدا على كرمكم هذا ، و أخص بالشكر الجد ثيودور
- يبدو أن أبي أعجب بك جدا، فمع أنه يحب التحدث الى الناس من الجنسيات المختلفة إلا أنه لم يهتم بأحد كما يفعل معك
- قل جدي، لم يسبق لك و أن عزمت أحدا على مكالمة انفرادية كما فعلت اليوم مع فرانسوا، خاصة من الشباب ، ألسنت تظن أننا جيل من الحمقى؟
- بلى، أنتم كذلك، أنتم مجموعة من الدمى المتحركة
- قالت اليزابيث بنبرة ساخرة
- لعل في داخل فرانسوا روح شيخ كبير تتحدث بالحكمة
- قل لي بني، هل أزعجك بهذا الإهتمام الزائد؟
- أبدا جدي، بل أنا أشكرك على كل ما تفعل من أجلي
- إنك مادة خام لشخص يفكر، لك القدرة لتكون شخصا عظيما، و أنا لا أحب اهدار الأشياء الثمينة النادرة
- قالت اليزابيث في حنق
- أنت نادر حقا، لكن بهذه الخاصية قد تكون عرضة للنبد
- توقفي اليزابيث من ازعاج الضيف
- عقب جونيور ساخرا من أخته
- أنت حاقدة عليه لأنه لم يأبه لإغراءاتك، لست نوعه المفضل، تقبلي الأمر
- بل أكره المدعين للحكمة
- قال الجد في محاولة منه لإغضابها

- لأنك لا تملكين ذرة منها ربما  
وقفت اليزابيث في حركة تلقائية عنيفة و قالت  
- لقد شعبت، انقطعت شهيتي فجأة  
احسست بالحرج الشديد لما تفعله اليزابيث، و لم أفهم سبب كرهها  
المفاجئ، لكن هاتفي أنفذني لما اتصلت صوفي على الماسنجر فجأة  
- ليس من عادتي مغادرة طاولة الطعام، لكن الإتصال من فرنسا و  
باحترساب فارق الوقت فإنهم يتصلون في ساعة متأخرة، لا بد أن  
يكون أمرا مهما  
ردت الأم بحنانها المعتاد  
- على راحتك بني، خذ وقتك  
ابتعدت عنهم قليلا لكي أتكلم في راحتي ، جلست على أريكة في بهو  
البيت و أعدت الإتصال بصوفي لأن اتصالها انقطع  
- أهلا صوفي، أنا سعيد لسماع صوتك، لقد اشتقت اليكم  
- أهلا فرانسوا، كنت لأسعد أكثر لو أخبرتني أنك اشتقت لصوتي  
أحسست ببعض الإطمئنان لما بدأت كلامها بعتابها التافه المعتاد لأن  
هذا يعني أن لا سبب خطير في اتصالها  
-لقد اشتقت اليك صوفي، تعلمين ذلك  
-حسنا، فليكن  
-ماذا تفعلين في هذه الساعة المتأخرة  
-لم أستطع النوم، و فكرت أنك مستيقظ، انها حوالي التاسعة مساء  
بنويويورك، أليس كذلك؟  
- بلى، كيف حالك؟ ما الذي يؤرقك؟  
-الوحدة فرانسوا، منذ أن غادرت و أنا أشعر أنني وحيدة و لم أعد  
أطيق هذا الشعور  
-ألا تلتقين بأصدقاء؟

- كنت صديقي الحقيقي الوحيد

- و آرثر؟

- لم يكن يوما ليصادقني لولا وجودك، أنت تعلم أنه لا قاسم مشترك بيننا

- انك تعرفين آرثر، انه رجل حساس جدا، عليك أن تخفي من مزاحك معه، ألم تلتقيا طيلة فترة غيابي؟

- لقد اتصلت بك لأحدثك بشأنه

- ما به؟ أرجوا أن لا يكون قد أصابه مكروه

- أرجوا ذلك أيضا

-بدأ قلبي في التسارع، و أردتها أن تأتيني بآخر القصة

-أسرعي، أخبريني ماذا يحدث

-لقد تحول الى الإسلام

و كأن ساعة ما أصابنتي، أحسست ببرودة تسري في عروقي، و بفشل ذريع في أطرافي، أصبح وزن الهاتف في يدي ثقيلًا فجأة، و لم أجد ما أقول غير:

-اعتنق الإسلام؟، دين المسلمين؟

-نعم

- هل أخبرك هو بنفسه؟

-نعم

- كيف حدث هذا؟

- منذ أن غادرت و هو يقضي كل وقته في غرفتك، لا يخرج إلا للعمل، أو ليشتري حاجيات لأمك، بعد ثلاثة أسابيع من هذا اتصلت بي والدتك لأنها قلقت عليه فقد لاحظت انعزاله المستمر، و لما حدثته في ذلك قال أنه يقوم بأهم بحث في حياته و أن هذا سبب تركيزه، و طمأنني أنه لا يوجد سبب للقلق

- لما لم تخبرني أمي
- لم ترد اقلاقك
- لم لم تخبريني في حينها
- لم يعترف لي إلا في هذا اليوم السابق، فكرت في عدم ازعاجك
- لكني لم أطق تحمل الخبر لوحدي، وها أنا أخبرك الآن
- كيف كان حاله و هو يخبرك
- ستتفاجأ، لم أره أكثر سعادة طيلة فترة صداقتنا مما رأيتته البارحة
- غريب، و لم هو سعيد
- قال أنه سعيد لأنه استطاع أخيرا معرفة الحقيقة المطلقة
- ماذا؟ و هل هناك حقيقة مطلقة؟ أظنه يهدي، كيف تصرفا أبي و
- أمي عند سماعهما هذا الخبر؟
- تظن أمك أن غيابك أثر عليه و طلبت منه زيارة هيلين ، و يظن
- أبوك انه يمر بمراهقة متأخرة و أن لا شيء يدعوا للقلق
- سأتصل به في الصباح لأعرف ماذا يحدث بالضبط، نامي الآن و
- سأعيد الإتصال بك لاحقا
- رجعت الى الطاولة لألتحق بالأسرة و أنا أفكر في ما أصاب آرثر
- هل كل شيء على ما يرام بني؟
- نعم سيدة أريثا، غير أنني تلقيت خبرا غريبا و لم أهضمه بعد
- أرجوا أن يكون والداك بخير
- نعم، إن صديقة لي اتصلت لتخبرني أن صديقنا المقرب قد أسلم
- تبسم الشيخ و سألني:
- لقد صدمك هذا الخبر، فالحيرة بادية على وجهك
- طبعا جد ثيودور، كيف لا و أنا أعرف كل ما أعرف عن الإسلام
- و ماذا تعرف عنه

- انه دين كراهية و عنف
- من أين لك بهذه الفكرة؟
- من المسلمين
- اذن، فكل ما تعرفه يخص المسلمين و ليس الإسلام
- الأمر سيان
- هل صديقك هذا مقرب اليك كثيرا؟
- نعم، انه تماما كأخ لي
- كيف تصف شخصيته؟ ، هل هو انسان متزن؟
- جدا، انه شخص فائق الذكاء، سريع البديهة، رصين العقل، من النوع الذي يخطط لكل شيء، و يسير وفق خطته مهما كلفه الأمر
- ألا يؤهله و صفك له لأن يختار لنفسه ما يراه مناسباً له؟
- ان آرثر انسان هادئ و خلوق، محب للناس، محبوب من الجميع، كيف يستطيع اختيار درب الكراهية و العنف
- سألتني أريثا:
- كيف فعل أهله حين تلقيهم الخبر
- انه يتيم، ليس له أهل غيري أنا و والداي و صوفي التي أخبرتني بالأمر
- المسكين، لعل هذا ما أدى به الى الهروب من واقعه
- و لعله أحسن هروب.. قال الجد
- ما الحسن فيه جد ثيودور
- ليس هناك هروب أحسن من الهروب الى الله
- اله المسلمين؟
- و هل هناك غيره؟
- أكمل عشاءك الآن بني، و غدا انظر في أمر صديقك
- شكرا جزيلا سيدة أريثا، لكني فقدت شهيتي

بينما كنت أفكر في آرثر، طلب مني الجد اتباعه الى مكتبه، لم أكن أريد ذلك لأنني في حالة فوضى عقلية بسبب ما سمعته عن آرثر و لكن لم أكن لأرفض طلب مضيبي، مررنا عبر الصالون لندخل عبر باب حطبي مزخرف، مع الحائط توجد مكتبة ضخمة مرتبة بطريقة جميلة، مكتب كبير يقابلها، يحمل على سطحه كتبا عديدة، جدران المكتب من نفس خشب جدران الصالون، في الجهة المقابلة لكرسي المكتبي كرسيان أسودان من الجلد الأسود للضيوف، أحببت رائحة الكتب القديمة في هذا الجزء من المنزل، عزمي الجد للجلوس على أحد كرسيي الضيوف و جلس هو يقابلني على الكرسي الثاني بعدما وضع قارورة من النبيذ الأحمر على المكتب و كأسين فارغين بجانب كل منا..

- انها قارورة أخبؤها منذ عشرين سنة لمناسبة كهذه، هل لك بأن تسقيننا؟.. و مد لي فاتح القارورات بعدما استخرجه من جيبه

- لم أفهم، ما المناسبة التي تتكلم عنها؟

- انك رجل ناضج الآن بما يكفي لتواجه الحياة

- عفوا جد ثيودور، لكني لم أصدق كلمة واحدة مما قلته عني قبل قليل، عن كوني انسان أفكر، أعلم أن كل ما قلته من مديح بشأني مجرد غطاء لكي لا يتساءل أحفادك عن سبب اهتمامك الذي بدأ يصبح غريبا نوعا ما، هل لك أيها الجد أن تتكلم ببعض الصراحة؟

- سأروي لك هذه القصة أولا قبل أن ندخل في صلب الموضوع، تعلم أنني عملت في الإستخبارات لمدة تمكيني من اشتهام القضايا العالقة

- نعم سيدي أعلم، لكنني لا أظن حالتي مناسبة لتحكي لي مغامراتك، إن بالي مشغول الآن بصديقي ، سأكون مستمعا جيدا ان وفرت رواية مغامراتك الى يوم أكون فيه في حال أفضل، كل ما أستطيع التركيز فيه الآن هو سبب اهتمامك البالغ بي

- أظنك قضية عالقة

- كيف؟

- هلا تتركني أتكلم لأشرح لك؟

- يبدو أنه يوم المفاجآت، تفضل

- لما كنت في المغرب تعرفت على بعض الرجال الشرفاء، تعاملت معهم في تجارة السلاح، كانوا يحتاجونه لمحاربة فرنسا الإستعمارية، و كنت أوفره لهم من مخلفات الحرب العالمية، من النمسا أساسا، تعرفت حينها على شاب جزائري ، بطل بكل معنى الكلمة، و مغامر من الصنف الذي لا نراه إلا في أفلام الكذب، هل رأيت فيلم "جايزن بورن"

- نعم ، رأيت

- ان أمريكا تحاول صنع أبطالها عبر السينما، في حين أن العرب لهم أبطال حقيقيين غير معروفين حتى في مجتمعاتهم

- ما الذي جعلهم غير معروفين؟

- أنظمتهم

ملاً الشيخ الكأسين، قرب كأسه من أنفه، استنشق و قال

- رائحة الأصالة، لا أنكر اسمه الأصلي، لكنه معروف باسم رشيد كازا، كازا نسبة الى كازابلانكا، المدينة المغربية المعروفة

- ألم تقل أن الرجل جزائري

- بلى، انه كذلك، لكن في هذه الحقبة كان العرب أمة واحدة متماسكة،

و كانوا يتعاونون على طرد الإستعماريين الإنجليزي و الفرنسي، و

تحرير الدول واحدة واحدة، في هذه الفترة بالذات كانت المغرب قد

استقلت، هي و تونس، لكن الفرنسيين رفضوا منح الإستقلال

للجزائر، فأجبروا هؤلاء على أخذه بالقوة، خاصة بعد مجازر الثامن

من ماي ألف و تسع مئة و خمسة و أربعين

-ماذا حدث في هذا التاريخ؟.. سألته لأتأكد من رواية السيد ابراهيم  
- قبل هذا التاريخ و أثناء زحف الألمان على شمال فرنسا، استنجدت  
هذه الأخيرة بالجزائريين، و وعدتهم بمنحهم استقلالهم في حال  
ساعدوها على اخراج الألمان، طبعاً قبلوا عرضها و تجندوا رفقة  
الكثير من الإفريقيين و كان مكانهم في الجبهة حيث استعملتهم  
كأذرة بشرية، ثم و بعد انتصار الحلف و أثناء الإحتفال بالانتصار  
على هتلر جعلتهم في المؤخرة لأنها لا تتشرف بهم، خرج  
الجزائريون بعد استقلال فرنسا كما خرج معظم سكان العالم ليحتفلوا  
بالانتصار و بنهاية الحرب العالمية التي أودت بحياة الآلاف، فقد  
كانوا يظنون أنهم سيحصلون على استقلالهم بدورهم لكن الحكومة  
الفرنسية الخائنة بدلت رأيها، أو ربما لم تبدله، فتحت النار على  
المتظاهرين المطالبين بالحرية و أودت بحياة آلاف الجزائريين في  
يوم الثامن من ماي من نفس السنة، و سجت الآلاف

- لقد سمعت نفس الرواية من جارنا الجزائري، هلا تكمل القصة  
- أخطأت فرنسا بزج كل ذلك العدد في السجون، لأنها بذلك جعلتهم  
يجتمعون على قرار القيام بالثورة، و كان ذلك سنة ألف و تسع مئة و  
أربعة و خمسين، هنا كان دور البطل رشيد كازا حاسماً، فقد كلفته  
الثورة بشراء كل ما استطاع من سلاح، ثم و بعد ذلك تمكن من بناء  
مصنع للأسلحة البسيطة تحت غطاء مصنع لصنع المعالق، ثم قام  
بعدها بشراء جهاز عسكري و حوله رفقة أصدقاء له الى محطة  
اذاعية بغية تنظيم الثورة و تحريض الثوار، أظنه أهم انجاز له ابان  
الثورة التحريرية، لكنه ليس الأهم عبر تاريخه في مرحلة ما بعد  
الثورة، أي مرحلة الإستقلال  
- استطاع النجاة اذن

- نعم ،لمدة سنوات على الأقل، كان العالم آنذاك يتسابق على الحصول على الوصفة السحرية للقنبلة الذرية، و كان الرجل مؤمنا أنه لكي تتمكن بلاده الحديثة الإستقلال بالنجاة من حقد فرنسا و تأمر العالم المتقدم، لا بد لها من الحصول على هذا السلاح المرعب، و ساعدته أنا على ذلك بربطه بشبكة عالمية في التجارة بالأسلحة - من كان وراءه في هذا؟

- الرئيس البطل هواري بو مدين بنفسه، و الكثير من الوطنيين، لكن بعد وفاة الرئيس بدأ بعض من جنرالات الجيش و الذين كانوا مجرد جنود في الجيش الفرنسي، كانوا قد التحقوا زعما بالثورة في سنواتها الأخيرة بإيحاء من فرنسا لتعدهم الى مرحلة الإستقلال الذي أجبرت عليه، بدؤوا هؤلاء الخونة بشن حرب صامتة على الوطنيين، و قاموا بتصفيتهم واحدا تلو الآخر ليتسنى لهم حكم هذه الدولة الحديثة و اتباعها الى فرنسا بطريقة غير شرعية لتتمكن هذه الأخيرة من استغلال البلد من دون أن تخسر جنديا واحدا - عجيب ما أسمعته عن فرنسا

-عندما علم الوطنيون هذا، بدؤوا باعداد من يخلفونهم، و قاموا بتدريب عدد من الشباب الصالح ليحملوا شعلة الدفاع عن الوطن، و كان من بين هؤلاء رجل لن أنساه ما حييت، رجل أسمر بعينان خضراوين، معتدل القامة، شديد الذكاء، التقيته بإسبانيا رفقة معلمه رشيد كازا الذي..

-ماذا حدث؟ ألا تكمل

-بعد عشاء جمعنا أنا و زوجتي، رشيد كازا و زوجته و أولاده، و هذا الرجل و زوجته ، اسمه عمار ابن باديس مع زوجته فتيحة حيث كانا يقضيان شهر العسل بمدينة مدريد

سكة هنيهة ثم قال:.. تذكر هذا الإسم فرانسوا، أظنه سيتبعك الى يوم  
مما تك

- لما؟

- في هذه الليلة تمكن الجبناء من رشيد كازا بعد محاولات كثيرة باءت  
بالفشل ، لقد سمموه و مات في تلك الليلة

- هو فقط؟

- نعم، لم يعلموا بأمر عمار و إلا لكانت نهايته مماثلة

- ثم ماذا؟

- كانت فاجعة، بعد كل تلك المحاولات ، ظننا أنهم لن يتمكنوا منه  
أبدا، ثم بدأت حقبة التطرف في هذا البلاد ليقضي على آخر آمال ذلك  
الشعب

- ما الذي أشعل نار الفتنة في الجزائر؟

- بعد وفاة الرئيس بو مدين، تسرب الفساد و الفوضى الى أجهزة  
الدولة بكل مؤسساتها، طبعاً بتخطيط من فرنسا و تنفيذ من أولادها  
المتبقيين هناك، بعد أن عانى الشعب من مخلفات الأزمة الإقتصادية  
كان مستعداً للقيام بثورة تصحيحية، و ركب التيار الإسلامي السياسي  
هذه الموجة ليقود السفينة الى ميناء غير آمن، و وقع ما وقع ليسيل دم  
الوطنيين و السذج من أبناء الشعب، و يعيش الخونة و قواد الثورة  
الوهمية

- ماذا حدث مع عمار

- عمار من الوطنيين الذين استشهدوا في فترة الإرهاب الأعمى

-من قتله و كيف؟

- هذه معلومات تحصلت عليها من يومين فقط بمساعدة بعض  
الأصدقاء القدامى، رسمياً قتله الإسلاميون لأنه كان ينتمي لمؤسسة  
الجيش، لكن الحقيقة هي أن كلاب فرنسا قتلوه بعدما قاومهم و رفض

أمرهم بالتنازل عن البحث عن حلم القنبلة الذرية، لقد واصل مهندس الإلكترونيات البحث عن وصفة القنبلة الذرية، و أقام علاقات سرية مع الروس و كان قريبا جدا من هدفه، لولا أن أعداءه عدموه برصاصة في رأسه و سط مدينة قسنطينة، لكنهم لم يجدوا الملف الذي قتلوه من أجله

- أين خبأه؟

- لا أدري، و لكن ما علمته من مصادري هو أن زوجته هربت مع ابنها البالغ ثلاث سنوات الى اسبانيا، لعلها حملت ملف القنبلة الذرية معها

- متى كان ذلك؟

- حوالي سنة ألف و تسع مئة و اثنان و تسعون

- لماذا اهتمت بهذا الملف بعد ستة و عشرون سنة؟

- هل تريد رؤية الصورة الأخيرة لنا في ذلك الإجتماع بمدريد؟

- لقد شوقتني لذلك

## المفاجأة

لأن الشعور العميق غير المتناهي  
يفقد شيئاً من خاصته المعنوية  
عندما يتجسم بالألفاظ المحدودة  
-جبران خليل جبران-

سقط الكأس من يدي من شدة الدهشة، انها هي، المرأة في منامي، هي نفسها، تماما كما أعرفها، لم أعرف ما أقول، انعقد لساني فجأة و جف فمي، نظرت الى الشيخ و الدموع تنهمر من عيني، انها هي من أين لك بصورتها

- نعم، انها أمك، كنت مترددا بعض الشيء هذا الصباح، لكنني تأكدت من الأمر لما رأيت صورتها معلقة بجدار غرفتك

- ماذا تعني بأنها أمي.. قلت بصوت منخفض

- أنظر الى الرجل بجوارها

رفعت الصورة ثانية

- من هذا؟ يا الهي كم يشبهني، و كأنها صورة قديمة لي

- هذا عمار ابن باديس ، والدك

- توقف عن قول هذا ، أمي سارة ديبوا و أبي فيليب روسو ، توقف عن التلفيق ، هل تظن الأمر ممتعا؟

- لا أظنه كذلك ، أعلم أنني أصدمك ، لكنها الحقيقة

خرجت من المكتب و من البيت مسرعا دون أن أكلم أحدا أخذا الصورة في يدي، أحسست أن الهواء شح من الأكسجين ، أتتفس بصعوبة كبيرة ، رغم هذا أخذت أركض دون وجهة ، كل ما كان يهمني هو الابتعاد عن ذلك البيت قدر المستطاع ، لحق بي جيمي عندما توقفت قدمي عن طاعتي

- ما الذي يجري فرانسوا؟ ماذا حدث؟

- أرجوك أن ترجعني الى غرفتي بأسرع ما تستطيع

- حسنا ، انتظرنني هنا ، سأرجع لأفكك بالسيارة

دخلت غرفتي و أغلقت الباب دون أن أشكر جونيور ، انزويت في أحد زوايا الغرفة ، حضنت الصورة و أخذت في بكاء مبرح حتى

استسلمت للنوم ، في اليوم التالي نهضت في حال أحسن ، لا أدري لماذا ، شيء ما بداخلي كان يخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام ، لعله صدق تلك المرأة يتردد بين جدران عقلي الباطني ، استحمت و قررت الخروج لتنفس بعض الهواء لعله يساعدني في استيعاب ما يحدث ، اسلام آرثر ثم هذيان الشيخ بشأن والداي ، دخلت الكافيتيريا و طلبت قهوة ، جلست بطاولة شاغرة و سرحت في التفكير ، تذكرت هيلين فجأة و هي تخبرني أنني أبدا أكبر من سني بثلاث سنوات على الأقل ، تذكرت آرثر لما كنا في المرحلة المتوسطة و سألته لما اختارني لأدافع عنه و أخبرني أنني أبدا أكبر سنا من الجميع ، تذكرت السيد ابراهيم و هو يخبرني أنني تكلمت مزيجا من العربية و الفرنسية و الألمانية في صغري ، تذكرت نادية و هي تسألني ان كنت متبنى بسبب كابوسي المتكرر ، و أهم ما انتبهت له هو خلو ألبوم الصور في بيتي من صوري و أنا رضيع، لم تكن المرة الأولى التي أنتبه فيها لهذا ، إلا أن أمي أقنعتني أن الألبوم القديم تعرض للحرق و لم تنجوا منه و لا صورة واحدة ، بدأت الأفكار تتسلسل لتقنعني أن ما قاله الشيخ صحيح ، أخرجتني نادية من هيامي لما جلست على الكرسي المقابل و سألتني:

- فيم شردت فرانسوا؟

- في حياتي

- بيدوا أنك اشتقت لأهلك

- هل لي أن أسألك كيف فقدت إيمانك؟

أعلم أنه ليس من اللطف طرح سؤال مماثل على شخص لم يمض على أول لقاء به أكثر من شهر و بضع أيام ، لكنني و في حالتي هذه لا آبه بحسن السلوك

- حسنا ، سأخبرك باختصار ، في أيام خدمتي العسكرية تعرفت على زوجي ، و عشت معه قصة حب كانت نتيجتها ابنتين، و في احدى المدهامات العسكرية لأحد القادة العسكريين في غزة، تعرض زوجي للقتل من طرف مقاوم فلسطيني ، حدث هذا و أنا لا أزال في فترة النفاس ، كرهت العرب كرها لا يوصف و امتلأ قلبي حقا ، و كل ما تمنيته و أنا أسمع نعيه هو الفتك بمن قتله، بعد أشهر من هذا عدت للخدمة، كنت شرسة في القتال ، فتكت بالكثير من شباب المقاومة طانة أنني كلما قتلت أكثر ارتحت أكثر من ذلك العذاب الذي أصبح يقطع وصالي ، و في ذلك اليوم كنا بصدد اجهاض ما يسميه العرب بالإنتفاضة ، كنا نحاصر العرب من كل جهة ، كنت أتمركز في مكان يمكنني من قنص العناصر المشاغبين ، كان هناك برميل يختبئ وراءه رجل فلسطيني ليحتمي من وابل الرصاص ، وكان يخبىء وراءه ابنه الصغير صاحب البضع سنوات ، حاولت ألا أرى الطفل لأركز في مرماي على رأس الأب ، لكن وجه الصغير كان يطل من وراء ظهر أبيه من حين لآخر ، جعلني ذلك أتردد قليلا ، لكن شيء ما همس لي في أذني قائلا أن ذلك الأب هو قاتل زوجي ، لم أفكر في شيء غير الإنتقام ، فاستغلّيت أول فرصة لي للإنقضاض عليه و صرعه

- قتلت الأب؟

- قتلت كلاهما

احتبست أنفاسي لسماع هذا

- نعم ، كنت مذعورة مثلك ، فبعدها هدأت النيران اقتربت من جثتيهما و تمعنت النظر ، كان رجلا ضعيف البنية، مات في نفس وضعية الإحتماء، و يده لا تزال تحمي جثة الصغير

- أنت مجنونة ، انك مجرمة

- نعم هذا ما ظننته ، عرفت في ذلك الحين أنني لم أخدم الرب بصنيعي ذاك، بل خدمت الشيطان ، رجعت الى الثكنة رفقة زملائي الذين كانوا يهنؤونني لحسن صنيعي ، أويت الى فراشي و بت تلك الليلة أنتظر انتقام الرب الحقيقي ، تقبلت الأمر و استسلمت للعقاب ، لكن في الصباح ظفرت بميدالية الشجاعة بدل العقاب ، انتظرت أيام و الخوف يمزقني ، و حين لم يحدث شيء فهمت أن الله غير موجود نهضت نادية من أمامي دون أن تنتظر تعقيبي، ما كنت لأعقب فالأمر أصبح واضحا ، هذه التي تصف المسلمين بالإرهاب ليست بريئة كما توقعتها ، خرجت مباشرة بعد خروجها و مشيت في الإتجاه المعاكس للذي أخذته و أنا أتساءل في نفسي عما يحدث معي ، لما كل هذه الأحداث المتتالية؟ تذكرت عندها قول الجد ثيودور أن لا شيء يحدث بالصدفة ، و أن وجودي في هذا المكان بالذات ، وسط هؤلاء الناس بالذات ليس بصدفة ، أخذت أفكر في آرثر و فيما أقبل عليه ، أردت مكالمته لأعلم منه سبب اعتناقه الإسلام و لأخبره عما يحدث معي ، لكنني فضلت التكلم الى راهول المسلم أولا لأسأله عن الإسلام ، غير أنني أجهل رقم هاتفه و أعلم أنه يغادر غرفته منذ الصباح الباكر ، فكرت قليلا ثم تنبهت الى أحد المساجد الصغيرة القريبة من الإقامة الجامعية و خيل لي أنني سأجده هناك ، انتظرت خروجه قرب الباب لمدة طويلة دون أن يخرج، حين يأسست و بدأ الحر يشتد منتصف النهار و قررت المغادرة ، لمحته عند الباب يحاول الدخول ، ناديته من بعيد ، و اذ به يبتسم لي كعادته ، كان يملك ابتسامة تشعر مخاطبه بأنه مرحب به ، اقترب مني فاتحا كلتا يديه

- أهلا بالشباب فرانسوا ، ماذا تفعل هنا؟

- أبحث عنك

- أرجو أن تكون بخير ، كيف أساعدك؟

- لدي بعض الأسئلة التي أود طرحها عليك ان كنت تملك بعض الوقت

- أما الوقت فرصيدي مفلس منه ، و لكني أهم بزيارة أحد مرضاي في الجهة الأخرى من المدينة ، ستسرنى جدا مرافقتك لي ليتسنى لنا الحديث في الطريق

- طبعاً ، لأنني أغنى منك من حيث هذه المادة - انه وقت صلاة الظهر ، لن يستغرق الأمر سوى ربع ساعة ، سأوافيك الى المقهى الواقع في زاوية الطريق هناك ، كي لا تنتظرنى تحت هذه الشمس الحارقة

بعد ربع ساعة بالضبط، التحق محمد بي ، خرجنا معا و ركبنا سيارة أجرة ، أردت تلطيف الجو بنكتة لأمهد لِنفسي الدخول في الموضوع - الجيد في هذه المدينة أنك ما ان ترفع يدك حتى تظفر بسيارة أجرة ، في باريس حتى لو رفعت جسد كله لن تتوقف أي سيارة - في بومباي الأمر أسوأ ، ستتوقف السيارة لك حتى ان كانت ممتلئة على آخرها ، و سيخبرك السائق أن المكان لا يزال فسيحا نطق السائق الأسمر ، أما في كابول فلن ترى أي سيارة ، ان رفعت يدك سيتوقف حمار ليقالك

ضحكنا جميعاً ، و كأننا أصدقاء ، تجرأت و سألت السائق - أنت من أفغانستان إذا؟

- نعم ، لكني أعيش هنا رفقة عائلتي منذ ما يقارب العشر سنوات - كيف قررت المكوث هنا؟

- لقد أتيت هرباً من تهديد طالبان - هل كنت سياسياً أو ما شابه؟

ضحك الرجل و قال :

- أبدا ، كنت طالبا في الهندسة الإلكترونية باحدى جامعات لندن حينها
- و لم هددوك اذن؟
- ظلما ، لم يحبذوا اقدمي على دراسة الهندسة في بلد كافر على زعمهم ، و بدؤوا بافتعال المشاكل مع أسرتي ، في يوم ما تجرأ أحدهم و ضرب زوجتي ضربا مبرحا في الشارع على مرأى من الناس و على مرأى من ابني الصغير فقط لأنها تدرس اللغة الإنجليزية و الكيمياء متطوعة بأحد الأحياء الفقيرة
- هل هذه جريمة عند طالبان؟
- نعم ، فاللغة الإنجليزية لغة كفر، أما الكيمياء فيسمونها بالشعوذة ، انهم لا يطيقون المرأة المتعلمة ، مكان المرأة في كابول في البيت لتربية أبنائها و تنشئهم ليصبحوا جنودا عندهم
- زوجتك متعلمة اذن
- انها مهندسة الكترونيات ، مثلي أنا لو أكملت دراستي
- ماذا حدث بعد ذلك؟
- لم أتحمل الأمر ، و في يوم من الأيام صادفت الرجل الذي ضربها و هو يسير لوحده في الشارع ، من دون حماية رفقائه و لم أستطع منع نفسي من ضربه ضربا مبرحا على مرأى من الناس ، كانت هذه إهانة للحركة بأكملها ، ذهبت بعدها الى البيت مسرعا ، حملت ابني و هربت رفقة زوجتي الى بيت صديق لي لأختبأ منهم و أدبر لهروبي من ذلك الوطن البائس ، و كان ذلك بعد أن طلبت اللجوء السياسي من الولايات المتحدة الأمريكية
- أليس في بلدكم شرطة تحميكم
- معظم أفراد الشرطة يعملون خفية لصالح طالبان مقابل المال
- من هم طالبان بالمناسبة

- انها حركة تأسست ابان الإتحاد السوفياتي بهدف التحرر ، لكنها تحولت الى الطغيان بعد سقوط هذا الأخير ، و أجبرتنا على فهم الدين على طريقتهم ، فجأة أصبح كل شيء حراما الا ما أحلوه هم - انهم مسلمون ، أليس كذلك؟

- نعم

زادني جوابه خوفا على آرثر ، لولا أنه أضاف

- و أنا أيضا مسلم

- و لم هذا الإختلاف الفكري بينكم

- ببساطة ، هناك من يتبع تعاليم الله ليكون مسلما ، و هناك الجهلة الذين يلوون أعناق الآيات لتتناسب مع أهوائهم الشاذة ، ليعطوا الشرعية لأفعالهم ، انهم يعلمون أن لا أحد يتجرأ لمناقشة أوامر الله ، و لهذا يتكلمون باسمه

- انهم يفعلون ما فعله رجال الدين في أوروبا في العصور الوسطى

لم ينطق راهول ببنت شفة طيلة الطريق ، كل ما كان يفعله هو الإنصات لحديثي مع سائق السيارة ، الى أن سألته

- ما رأيك في هذا محمد

- هذا ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه و سلم ، لقد قال : "

سَتَتَّبِعُونَ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بَاعًا بِبَاعٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، وَشِبْرًا بِشِبْرٍ ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ فِيهِ " ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،

الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ؟ قَالَ : " فَمَنْ إِذَا ؟ " ، ان ما يحدث من فساد في

العالم الإسلامي ، هو ما حدث عند اليهود و عند النصارى من قبل ،

فرجال الدين نصبوا أنفسهم أدياء و أخذوا يتكلمون باسم الرب ، و

زعموا أن من يتبعهم فقد اتبع الرب

- و لهذا فالحل يكمن في العلمانية التي تحجز الدين في أماكن العبادة

- بل الحل في اتباع تعاليم الله و ترك تعاليم البشر

- لا يمكن اتباع تعاليم الله المزعومة ، فالله لم يعد متوفرا ليسير أحول البشر ، ألا ترى كم من انجيل بين يدينا؟ لقد حرف منذ آلاف السنين
- لكن لا يوجد سوى قرآن واحد ، لم يغير و لم يحول منذ نزوله على الرسول محمد صلى الله عليه و سلم ، و تعاليمه واضحة و متناغمة جدا مع الإنسان
- لو كان الأمر صحيحا لما اختلف فيه هؤلاء
- القرآن يحفظ النفس البشرية كما لم يفعل أي قانون من قبل ، انه يعتبر قاتل النفس الواحدة من دون حق كقاتل للناس جميعا و في المقابل يخبرنا الله أنه من أحيا نفسا واحدة كمن أحيا الناس جميعا
- و لم يفعل المسلمون هذا يوميا
- لأنهم ضلوا ، كما ضل النصارى أيام الحروب الصليبية ، ألم يقتلوا باسم المسيح الذي لم يحمل سيفاً طيلة حياته ، هل هذا يعني أن المسيح عليه السلام كان شريرا مهدرا للأرواح
- هذا عنوانكم أيها السيدان
- كم الكلفة؟
- ليس عليكم شيء ، لقد استمتعت بالكلام اليكما ، يكفيني هذا

- ماذا نفعل هنا؟
- أنا أقوم بدراسة بعض الحالات الطبية النادرة ، أقوم بدراسة الشفاء الذاتي من الأمراض الخبيثة التي لم يصل العلم لعلاجها
- مثل السرطان؟
- تماما ، لقد زرت ثمانية عشر دولة من أجل هذا البحث الذي بدأت منذ حوالي عقد من الزمن ، و عاينت أشخاصا من مختلف الجنسيات و الأديان بحثا عن قاسم مشترك بينهم
- ألا تظن أن ما حدث كان صدفة
- علميا، إذا حدث شيء ما في إحدى المرات فهذه تدعى حادثة عرضية، إذا رأيت حدثين متصلين يحدثان في فترة قصيرة من الوقت، نقول أنها صدفة، لكن إذا رأيت هذه الأشياء تحدث ثلاث و أربع و خمس مرات فنحن ننظر إلى اتجاه أو نموذج أو قانون لأن أي شيء متكرر في العلم هو قانون
- ما المشترك بين هؤلاء المرضى؟
- سأبدأ بما هو مختلف، لم يكن الجميع ذكور، لم يكن الجميع بيض، لم يكن الجميع نباتيين، لم يكن الجميع ذوي مكانة روحانية عالية كاهن، قس، إمام ، لا أعتقد أن أي منهم كان مشهورا أو القليل منهم، لم يستخدم أي منهم البلورات أو أي من هذه الأشياء، ولكن ما فعلوه حقا هو أنهم غيروا عقولهم .. هل تؤمن أنه بتغيير عقلك، سيكون له تأثير ما على جسدك؟
- لا أدري ، لكني متحمس لمعرفة ما يتشاركونه
- الشيء المشترك الأول هو أنهم جميعا تقبلوا و آمنوا و علموا و تفهموا أن هناك عقل أكبر يعطيهم الحياة، ربما تطلق على هذا الذكاء الروحي، ربما تطلق عليه قوة الحياة، ربما تطلق عليه العقل الكوني

أو الرب بداخلك أو الذكاء الفطري أو أيا كان ما تطلقه عليه، لكنهم قالوا أن هناك شيء ما، جانب غير مادي لذاتي و الذي أعطاني الحياة - ماذا تسميه أنت؟

- أسمىه الله ، أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ، لقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى على لسان سيدنا ابراهيم عليه السلام : الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين

- لكنك قلت أن المرضى من ديانات مختلفة ، منهم من لا يعبد الهك - سواء آمنوا به أم لم يفعلوا ، هو ربهم ، انه رحيم بكل عباده حتى العاصون منهم ، و لكن في الآخرة سيحاسبون على أخطائهم ، ثم ان جسم الإنسان يخضع لقوانين الله كما يفعل الكون كله ، و من القوانين التي جعل الله لها سلطان علينا بعض الأفكار الإيجابية التي من شأنها انتاج كيمياء حيوية تقوم بشفاء أعطاب الجسم و التي بدورها نتجت من الإنحراف الكبير عن الفطرة السليمة - ما هي هذه الأفكار؟

- بعضها أكتشفته في النقاط المشتركة للمرضى - ما هي النقاط المشتركة الأخرى؟

- الشيء المشترك الثاني هو أنهم جميعا قالوا: لقد كانت أفكارى و أفعالي تجاه الحياة هي ما صنعت مرضي، لم يرجع هؤلاء الناس سبب مرضهم إلى الظروف المحيطة بهم و لا إلى بينتهم الغير مناسبة، لم يقولوا إن زوجي تركني، أو أن الفقر أعجزني، أو أن الإعاقة أقعدتني، بل قالوا جميعا: بعد سنوات عديدة من الكره، و سنوات من المعاناة و من الغضب و كل هذه الفترة من دون سعادة هذا ما أعطاني المرض، أما الشيء المشترك الثالث هو أن جميعهم

قالوا : يجب أن أعيد ابتكار ذاتي و الشيء المشترك الرابع هو أنهم قالوا أنهم أثناء عملية التفكير بشكل جديد كانت لديهم لحظات طويلة فقدوا فيها الإحساس بالزمان و المكان، فعلموا هذا بعدما ابتعدوا عن البيئة المعتادة كي يستطيعوا التفكير بشكل أكبر من البيئة و حتى لا تعود البيئة لتجعلهم يفكرون كما اعتادوا التفكير و تحفز الدوائر المألوفة داخل مخهم و كانوا يمضون أكثر من ساعة في التفكير رغم أنهم يظنون أنهم لم يمضوا سوى بضع دقائق

- ليس من السهل الوصول الى هذا القدر من الوعي ، هذا ليس في متناول الجميع

- قد يبدو ما سأقوله لك مفاجئا و غير قابل للتصديق ، لكن يمكنك التأكد فيما بعد ، كل ما تم الوصول إليه من طرف هؤلاء العقلاء هو مسلمات بديهية في الإسلام

- كيف ؟ اشرح لي

- سأفعل بعد أن ننتهي من زيارة صديقنا ، هذا هو الباب لقد وصلنا بعدما رحب بنا الرجل أدخلنا الى صالون متواضع ، به بعض الأثاث القديم ، ما أعجبنى في بيته هو الترتيب الجميل و النظافة الفائقة ، سألتنا زوجته ان كنا نفضل شرب القهوة أم الشاي ، و كان رأيي مماثلا لرأي الطبيب الذي اكتفى بطلب كأس من ماء الحنفية ، كنت أمعن النظر الى الشيخ المريض لأن بجبهته و أسفل ذقنه ورم كل منهما بحجم ليمونة، استغلّيت غياب الشيخ لبرهة و سألت الطبيب:

- مما يعاني؟

- سرطان الدم

- منذ متى؟

- منذ 25 عاما

- مصاب بسرطان الدم منذ 25 عاما؟ ماذا فعل من أجل هذا؟

- هذا ما حضرت لأجله

- أأست هنا لمعاينة؟
- لا ، لقد عاينته من قبل و طلبت لقاءه اليوم من أجل طرح بعض الأسئلة
- بعءما التحق المريض بنا ، شكر الطبيب على تحمله مشقة الحضور
- بل أنا من يشكرك سيءى على أن أتحت لي و لزميلي طرح بعض الأسئلة لعلنا نجد سر مقاومتك للمرض
- سألت متسرعا
- ماذا فعلت سيءى لتعيش كل هذه المءة من ءون أن يؤثر المرض في صحتك؟
- لا شيء
- ألم تفعل شيئاً لمءة 25 عاما؟
- نعم
- و ماذا قال لك الأطباء؟
- لقد أخبروني أن أمامي 6 أشهر لأعيشها
- ما الذي فعلته؟
- قطعت على نفسي وءا و هو أن أعيش حتى أرى أصغر أبنائي يتخرج من الجامعة، ثم قال : في خلال شهرين سوف أرى أصغر أءفائي يتخرج من الجامعة..
- أمام حيرتي أخذ الطبيب الكلمة بعءما أخرج كراسة من جيبه ليءون عليها ملاحظاته
- ماذا تعمل
- أنا فلاح
- أعدت طرح السؤال الذي جعل الرجالن يضحكان:
- كيف فعلت هذا؟ كان من المفترض أن تكون ميتا منذ 25 عاما، كيف فعلتها؟
- فأحنى على اءولة التي تفصلنا وءذبني إليه و قال:

- فقط عليك أن تفكر، ثم صفعني على وجهي و بدأ يمشي مرة أخرى في غرفة الإستقبال و يعاين بعض النباتات المنزلية، فمشيت معه ثم توقف و قال:

- لا يمكنني أن أصدق أن الناس يستيقظون في الصباح كل يوم و لا يكونون شاكرين على كونهم على قيد الحياة، ثم نظر إلي مباشرة في العين فأدركت أن المراجعة التي يكررها كل يوم هي أنه يقدم الشكر لكونه على قيد الحياة

- لكن من أين تعلمت هذه الفلسفة في الحياة؟

- أنا لم أتعلم شيئاً ، ان ما وصلت اليه من تفكير هو الفطرة ، هو برمجة عقلية آلية موجودة داخل مخ كل انسان منذ ولادته، و هي ما تمكننا من التمييز بين ما هو إيجابي و ما هو سلبي و بين ما هو جيد و ما هو سيء من دون و من قبل أي ثقافة أو علم يلقن، حتى و إن ابتعدنا عن هذه الفطرة متأثرين بالبيئة المحيطة ، ففي ظروف المرض العصبية و فترات الضعف و العجز تطفوا هذه الحقيقة على سطح كل المعارف المكتسبة و التجارب المعاشة لتتذكر و نشعر بوجود رب ذا عقل أكبر يعطينا الحياة ، كنت أفكر في تلك الفترة العصبية أنني لو استطعت أن أوافق عقلي مع عقله، ربما حينها سوف يتدخل و يقوم بشفائي..

- و ماذا فعلت حينها؟

- أعدت ابتكار ذاتي بما يتوافق معه ، مع الله

- لكن كيف لك أن تتوافق مع من لا تراه و لا تسمعه ، و لا تعلم عنه شيئاً؟

- حين آمنت بوجود هذه القوة التي تمنحنا الحياة ، فكرت أنه من غير المنطقي أن يتركنا لحالنا من دون ارشاد ، و على هذا الإرشاد أن يكون متوفراً متاحاً كلما احتجت اليه ، لن يكون شيئاً قد أفقده أو قد

أنساه ، يجب أن يكون شيئاً مني بحيث يستحيل نسيانه في مكان لا أتواجد فيه ، بدأت بفترات من الخلوة ، ابتعدت عن كل ما قد يؤثر بعقلي لمدة ساعة يوميا ، كان هذا بمثابة اتصال بيني وبين هذه القوة التي أعطتني الحياة من أول يوم خفق فيه قلبي ، ما زلت أفعل هذا الى يومنا هذا

- هل وجدت ما يرشدك؟

- بعدما تعبت من البحث أدركت أنه بداخلي ، لقد كان هنا طوال فترة حياتي ، لكن مع الوقت و تحت تأثير المجتمع ، و التعرض المستمر للضغوط ، و تسارع العصر ، جن عني ، بعد أيام من بدئي عادة الخلوة ، بدأت الأمور تتضح ، و بدأت أرى العالم من زاوية جديدة ، أحسست عندها أنني أرى العالم تماما كما كنت أراه لما كنت طفلا صغيرا ففهمت أن الفطرة هي المرشد الذي كنت أبحث عنه ، هي التي ستوجهني لأوافق ارادتي مع ارادة الله ، ففي النهاية الفطرة هي البوصلة الطبيعية التي جهزنا الله بها لكي لا نضل طريقنا و نبقى على الطريق المستقيم  
سأله الطبيب؟

- هل تستمتع بساعة الخلوة؟

- نعم ، لدرجة أنها تبدوا لي بضع دقائق في طريق العودة استغرقت في التفكير بذلك الشيخ ، غير أن الطبيب أيقضني على سؤال  
- كنت تنوي سؤالي ؟

- نعم ، لقد تلقيت البارحة خبرا مقلقا و أردت أن أسألك رأيك

- تفضل

- انه من الغبي أن أسألك أنت بالذات لكني في حيرة من أمري و لا أعرف أحدا غيرك قد يساعدني

- تفضل
- لقد تلقيت خبر اسلام أحد أصدقائي المقربين ، و أنا قلق جدا من أجله
- و لم القلق؟
- أنا أخاف على مستقبله ، أخاف عليه من أن يتحول الى انسان متطرف
- هل هذا ما يعنيه الإسلام لك؟
- أعرف أنني أرح مشاعرك و لكن هذا ما أعلمه عن الإسلام
- من أين حصلت على معلوماتك عن الإسلام؟
- لا أعلم ، من الإعلام
- و لم لم تتجه اذن الى الإعلام لتسأله سؤالك هذا؟
- لأنني لم أعد أثق به
- و تثق بمسلم ليحدثك عن الإسلام؟ .. تبسم تلك الإبتسامة المطمئنة و قال.. أنت في فوضى عارمة صديقي فرانسوا ، لن أحدثك عن الإسلام لكني سأوجهك لدراسته ، فقبل كل شيء أنت خريج الجامعة ، ستمكنك منهجيتك العلمية من ذلك ، كل ما أنصحك به هو بعض الخلوة كما فعل هذا الشيخ لأنها تنفع أيضا في حالتك هذه ، ليتسنى لك تصفية ذهنك ، ابتعد عن أي اتصال بالناس لمدة يومين أو أكثر ، أطفئ هاتفك بعد أن تنبه والديك و أصدقاءك بهذا لكي لا يقلقوا عليك ، ثم اقرأ القرآن في تأن لتتمكن من فهمه ، ستجد جوابك هناك بين طياته
- لكني لا أحسن العربية
- استخرج راهول كتابا من محفظته و قدمه إلي
- خذ ، انه مترجم الى اللغة الانجليزية ، اعتبره هدية
- و كيف ستفعل أنت ، لا بد أنك تحتاجه أكثر مني

- لا تقلق ، أنا أحفظه عن ظهر قلب

- تحفظ كل هذا؟

- نعم ، انه شرف كل مسلم أن يحفظ كلام الله ، هكذا حفظ الله كتابه ، بالتواتر ، لم يخلوا أي جيل منذ أن نزل القرآن من الحفظه ، كلهم يرتلونه بنفس الكلمات منذ أربعة عشر قرنا

- سأكون متسرعا بعض الشيء ، أرجوا أن تتحملني في هذا السؤال ، كيف أعرف أن صديقي لن يتطرف و قد رأيت هذا من قبل ، كيف أضمن أنه سيحسن فهم الإسلام كما تفعل أنت  
- ما الذي دفعه الى الإسلام؟

- أظنه القرآن

- لن يظل اذن ، لا يظل الا من أخذ الدين من أفواه البشر  
افتרכת مع الطبيب الذي اتجه الى نفس المسجد الذي صلى به قبل قليل ، بينما اتجهت أنا الى غرفتي لأستريح قليلا و أفكر في نفسي التي لم أعد أعرفها بعدما عرفت أنني مجهول النسب ، فكرت في أمي و أبي و ظننت أنني سأكرههما لأنهما خبا عني سرا لم يكن لهما الحق في إخفائه ، لأن هذا ما أراه في الأفلام ، لكن العجيب أنني اشتقت اليهما أكثر ، فطوال حياتي و أنا أحتمي بهما في الشدائد ، و ها أنا أواجهها لوحدي ربما لأول مرة في عمري ، عندما وصلت الى باب غرفتي تفاجأت بجيمي واقفا و الجد جالسا على كرسي ينتظرانني  
- ماذا تفعلان هنا؟

- ننتظرك

- تفضلا

كنت أفضل البقاء وحدي ، لكني ارغمت على دعوتهما

- لقد ألح جدي على القدوم

- لما فعلت جدي ، كان بإمكانك مهاتفتي

- أنا أسف جدا بني ، لقد تسرعت في مفاجأتك ، ظننت أن مصارحتك شيء جيد لكنني أخطأت ، ربما كان أفضل لو تركت أمورك على حالها
- لا أدري ما علي قوله ، ما أخبرتني به ليس بالهين ، لقد قلبت عالمي رأسا على عقب ، لا أدري بعد هل علي تصديقك أم أنه يتوجب علي أن أتظاهر بالجهل
- القرار لك ، ما أعطاني الجرأة لأخبرك هو تلك الصورة على الحائط ، لا تزال والدتك عالقة بذاكرتك ، ألمني هذا جدا و لم أتمالك نفسي هل تظنها حية؟
- لا أدري ، حاولت معرفة هذا لكن من دون جدوى، حسب مصادرني ،آخر ظهور لها يرجع الى ست و عشرين سنة في مدريد أين كنت برفقتها ، أظنكما افترقتما هناك
- هل من تفاصيل أخرى
- كل ما أعلمه هو أنهم تبعوها الى اسبانيا ، و لكن لا أدري ان كان هدفهم التخلص منها أم العثور على ملف القنبلة الذرية الذي و رثته عن والدك ، لقد اختفى أثرها هناك
- هذا يعني أن هناك احتمال ..
- نعم ، لعلها حية
- ماذا علي أن أفعل
- الأمر بيدك الآن ، لكنني في الخدمة ان احتجت الى أي شيء
- لا أحتاج إلا أن أبقى مع نفسي مدة من الزمن
- اني أملك منزلا صغيرا بأحد الجبال القريبة من هنا ، ان أردت تنفس هواء نقي
- هذا تماما ما أبحث عنه ، هل يمكنني الذهاب اليه الآن
- نظر الجد الى جيمي متعجبا

- أرجوك جونيور ، هل يمكنك اقلالي  
نظر جيمي بدوره الى الجد
- لكني لم أزره منذ سنة تقريبا ، علي تزويد محول الكهرباء بالبنزين  
أولا ، و تجهيز البيت بما يلزم ..
- لا أحتاج كل ذلك ، سأكتفي ببعض المأكولات المحفوظة التي لا  
تتطلب تبريدا
- هل ستبقى هناك وحدك من دون أنترنيت و لا هاتف ، أنت تعلم أنه  
في مكان مماثل لا توجد تغطية للهاتف النقال
- هذا هو المطلوب
- لكني أخشى عليك
- لا تخف جد ثيودور ، لن أمكث هناك أكثر من أسبوع ، لنتحرك

## الخلوة

في لقاء واحد عرفت عني كل شيء  
و في عمر كامل لم أعرف عنها شيئاً  
-ياسمينة صالح-

لأول مرة أجد نفسي في مكان يخلوا من البشر و من كل ما صنعه الإنسان ، لا يوجد في الكوخ غير سرير بمكانين ، بعض البطانيات ، مكتب ، جهاز تدفئة لا يعمل ، و ثلاجة من دون كهرباء ، في الخارج مصطبة كبيرة تحمل على ظهرها كرسيان متحركان ، يعلوها سقف من الحطب يحميها من أشعة الشمس و من الأمطار ، كان المنظر خرافيا ، و كأني أجلس فوق أعلى قمة في العالم ، أرى من مكاني قمم أشجار الصنوبر على مد البصر ، رائحته تملأ الهواء و تعطيه عطرا عبقا، أرى على الجهة اليسرى على بعد حوالي خمس مئة متر بحيرة صغيرة ، تبدو السماء من هنا قريبة بسحابها الذي يكاد يلامس الأشجار ، كانت جنة ، رميت حقيقتي الصغيرة على الأرض باهمال متعمد ، و أخذت قطعة خبز و قارورة الماء ، و وضعتهما فوق الكرسي و جلست على الآخر أتأمل جمال هذا الكوكب الفريد ، سرح ذهني في معجزة خلق جمال مماثل ، مع أن الأرض هادئة و السكون يملأ أذناي إلا أنني أحسست أن المكان يعج بالحياة ، أحسست أن للمكان روح تدغدغ روعي و تلاعبها ، أنني لست وحيدا وسط كل هذا الوجود الساكن ، كل الحركة الموجودة على مستوى قمم الأشجار و هي ترقص في تناغم على لحن يعزفه الهواء ، و الطيور تطير من قمة الى قمة كأصابع موسيقي تنظ من مفتاح الى آخر ، عرفت أن للطبيعة موسيقاها ، ترقص على أنغامها الأشجار الشامخة ، تتحني يمينا و يسارا و كأنها تتلوى تحت رحمة لحن رومنسي رقيق ، و كأنها تحاول اغراء من يتأملها ، نصف قرص الشمس يودع اليوم و يطلق صبغته الذهبية على العالم و يخبرني أنني أصغر من أن أفهم الوجود ، دخلت الكوخ و أقفلت الباب من ورائي لأتجنب دخول الحيوانات الليلية ، وضعت كرسي المكتب قرب النافذة ، جلست منحنيا لأتكئ برأسي على زجاج النافذة ، وواصلت تأمل الليل تحت

ضوء القمر ، حاولت التفكير في أمي، أبي ، آرثر ، صوفي ، في المرأة أو سأقول في أمي البيولوجية لكني لم أستطع ، و كأن روحا ما تخبرني أن الليلة ليلتي و لن أفكر إلا في نفسي ، في وجودي ، في ماهيتي و غايتي ، استسلمت من دون مقاومة ، و كأن لذة الثواني الأولى من النعاس تطير بي غير أن ذهني يقظ ، غصت في أعماقي حتى القاع و توهمت رؤية شخصي الحقيقي ، توهمتني روحا شفافة ليس لها كتلة ، أحسستني أخرج من جسدي العفن ، من كتلة اللحم التي لطالما ظننتني ، نظرت الى حالي في اشفاق و أنبتني ، كيف أظن أني هذا الجسد البالي؟ ، كيف أظن أن الوجود هو كل ما أراه؟ ، كيف أثق في عينين لا يريان سوى ألوان الطيف ، لا يعملان الا في وجود الضوء؟ لما ظننت أني مؤهل لتخيل ما لم يسبق لي رؤيته أو سماعه أو شمه أو لمسه أو ذوقه ، أنا محدود الإحساس ، لم أثق في حواسي الضعيفة؟ هل هناك حياة في العالم الفوق بنفسجي أو التحت الأحمر؟ ، هل هناك ذبذبات حية خارج الذبذبات التي تستقبلها أذناي؟ هل هناك نكاء يربط كل هذه الحياة على الأرض ، من هذا الذي ينظم المخلوقات ليحافظ على التوازن على هذا الكوكب ، لا بد له أن يتصل بكل ذرة تكون الكون ليخضعها الى أمره ، ما كان لها أن تتصرف على هواها ، لو لم يكن الأمر لهذا القادر لانصرفت كل ذرة لشأنها ، لو لم يكن هذا القادر أحدا ، لتتازع الوجود و عمته الفوضى ، أحس أني متصل بقوة عظمى تمدني بالحياة و تمد الكون بالنظام ، تخضعنا لرحمتها ، أحسست أني مجرد رضيع متشبث بثدي الوجود ، مجرد صبي طائش فاقد للعقل لا يستمع لوعي الواجد ، أحسست أني مجنون أخضع لإتمام عاقل ، من أنا في حضرته؟ مجرد هباءة و سط عاصفة رملية هوجاء ، أظنني أدركت الآن من أكون

نهضت في هذا اليوم الأول مع أولى زقزقات العصافير ، أكلت بعض الجبن مع قليل من الخبز و خرجت الى المصطبة لأستنشق أولى نسيمات الصباح المنعشة ، مع شروق الشمس أخذت قارورة ماء و بعض الجبن و اتجهت الى تلك البحيرة الهادئة ، أحببت صوت العشب المتكسر تحت قدمي ، و صوت العصافير المزقزة ، جلست على حجر بعدما و ضعته تحت قدم شجرة بلوط كبيرة ، تجرعت قليلا من الماء و فتحت أول صفحة من القرآن و يداي ترتعشان خوفا من هذا الذي يقولون عنه كلام الله ، أول ما قرأت بسم الله الرحمن الرحيم ، فقلت في نفسي مقدمة زكية أن يفتح الكتاب بصفة الرحمة، ثم شدتني كلمة العالمين ، فقلت في نفسي : ان كان هذا صحيحا فهناك أكثر من عالم ، اهدنا الصراط المستقيم ، فقلت أحب هذا و استرسلت في القراءة

أثناء قراءتي كان عقلي يبحث عن جواب لأسئلتني دون وعي مني ، فوصلت الى جمل تتحدث عن خلق الإنسان ، و قرأت : إني جاعل في الأرض خليفة ، فقلت في نفسي : أيعقل أن الله جعل الإنسان خليفة في الأرض ؟ هل الإنسان مؤهل لهذه المرتبة؟ لأفاجأ بسؤال : أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ، هذا يعني أن السؤال قد طرح من قبل ، و كان الرد : اني أعلم ما لا تعلمون ، فكرت قليلا قائلا لنفسي ، أنا موجود في هذا العالم منذ أقل من ثلاث عقود ، بينما وجد الإنسان في العالم منذ ملايين السنين ، و لن أبقى في هذا العالم لمدة تزيد عن سبعة عقود أخرى ان طال بي العمر و سيستمر العالم من دوني ، عمري كحلقة من مسلسل به ملايين الحلقات ، و ها أنا أتجرأ و أقول لمن كتب و أنتج و أخرج هذا المسلسل أنه أخطأ بعمله ، ثم قرأت : فإذا سويته و نفخت فيه من روحي ، فقلت : هذا هو ، هذا ما يجعل الإنسان عاقلا ، فقد تمت تسويته ثم و في مرحلة ثانية نفخ الله فيه الروح ، أيعقل أن يكون الجواب عند فلاح لم يدرس علم الأحياء ؟، و أكون و أنا متخصص في هذا المجال جاهلا تماما به ، ثم قرأت: وَعَلَّمَ

آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ  
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ  
 الْحَكِيمُ ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ  
 لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ  
 تَكْتُمُونَ ، قلت في نفسي : لا بد و أن الملائكة كانوا يرون آدم مخلوقا  
 مفسدا غير قابل للتعلم و تفاجؤوا لما وجدوا أن الله علمه ما لم يكونوا  
 يعلمون ، و قد نجح في اختبار التعلم و تساءلت : هل حدث هذا  
 مباشرة بعد خلق آدم ؟ ، لا أظن ، لأنه لو كان كذلك لما حكمت عليه  
 الملائكة بالفساد و القتل ، لا بد و أنهم عرفوا هذا الجنس من قبل  
 ليتمكنوا من الحكم عليه ، عرفوه على أنه مفسد و قاتل و غير قابل  
 للتعلم و لهذا تفاجؤوا بشيء جديد تميز به حديثا و هو العقل ، هل هذا  
 اثبات الى أن جنس البشر وجد قبل هذه الفترة؟ و أن الإنسان العاقل  
 ظهر بظهور آدم؟ لا أدري بعد ، ثم وصلت الى : و اذ قلنا لآدم اسكن  
 أنت و زوجك الجنة و كلا منها رغدا حيث شئتما و لا تقربا هذه  
 الشجرة فتكونا من الظالمين ، انتبهت الى أن الله في هذه الجملة قد  
 خاطب آدم و زوجته ما يعني أن كلاهما يملك عقلا و إلا لما نهاهما ،  
 وهذا اثبات لوجود زوج من الإنسان العاقل ، أما فيما يتعلق بالشجرة  
 فلا يوجد وصف لها ، لا أدري ان كان لها خصوصية ما ، أم أن  
 منعها منها كان مجرد اختبار لرد فعل هذا الجنس تجاه المنع و تجاه  
 الإختيار ، ثم قرأت فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه و  
 قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، فأدركت أن العلم وحده لا يكفي  
 ليرتقي الإنسان الى تلك المرتبة التي خلقه الله من أجلها ، و لكن عليه  
 أن يتحرر من أهوائه و شهواته ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه  
 ، انه هو التواب الرحيم ، فقلت في نفسي ان الله يعلمنا أن الخطأ لا  
 يسبب نهاية العلاقة بين العبد و ربه ، بل ان التوبة تجدد ذلك الرباط  
 الوثيق ، و هي ما أسميته تجديد الثقة بين الخلق و خالقهم ، أغلقت  
 الكتاب و نظري مركز في الأفق من دون أن أرى المرئيات ، كنت  
 محتارا من نفسي لما أفعله ، سألت نفسي : لماذا أقبل ما جاء في هذا  
 الكتاب و أنا ذلك العلمي الذي اعتاد الجدل و اعتاد الإقتناع بالأدلة ؟

هل كنت لأفعل لو أنني قرأته و أنا في محيطي العادي؟ لا أظن ذلك ،  
كان الفلاح محقا ، البوصلة التي تشير الى الطريق المستقيم موجودة  
بداخلنا ، و لكن الإزدحام المجتمعي و التلوث الإعلامي جعلنا حمقى  
، لقد جعل منا التطور الغربي نماذج جاهزة للقيام بأدوار مسطرة  
مسبقا ، جعلنا نتعصب لكل ما يراه المخططون خطأ و لو كان صوابا  
، و ندافع عن ما يرونه صوابا و لو كان خطأ ، و جردنا مما جعله الله  
ميزة في الإنسان و هو العقل ، طوال حياتي و أنا أعتقد أن العقل من  
الذكاء ، لكنني أعلم الآن أن الذكاء جزء من العقل الواعي ، لكن قد  
يحضر الذكاء و يغيب العقل

أكثر ما أحببته في هذا الكتاب هو بعض النصائح و الأوامر المتكررة  
مثل أفلا يتفكرون ، أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون ، ما يميز هذا الكتاب  
عن كل الكتب التي قرأتها ، هو أنه يعطينا الحقائق ، و يدعونا الى  
التفكر فيها ، انه كتاب توجيه لكل فرد على حدى من المجتمع  
الإنساني ، كل على مستوى ذكائه ، فيعطي لمن يملك ذكاء روحيا  
مادته ، و لمن يملك ذكاء تاريخيا مادته ، و لمن يملك ذكاء فيزيائيا  
مادته ، و حتى الرياضي له مادته فهناك من الأرقام في هذا الكتاب ما  
يمكن الرياضي من اطلاق عنان خياله، أنا وجدت غايتي في الآيات  
التي تتكلم عن مراحل خلق الكون ، لم يكن وقتي كافيا لتحليل الآيات  
أمام شغفي بإتمام قراءة الكتاب ، لكنني عزمت على فعل هذا بعد  
رجوعي

قضيت أياما و أنا أتردد بين الكوخ و البحيرة ، و بين المشي تحت ظلال الأشجار العملاقة ، أجلس تارة ، و استلقي فوق التراب و العشب تارة أخرى ، أتأمل ذلك التوازن المدهش و ذلك التناغم المبهر بين مختلف المخلوقات ، لا فرق هنا بين مخلوق نباتي و مخلوق حيواني ، كل فرد يعمل لمصلحة الكل ، فكرت فيما قاله الجد لي بشأن المخلوقات ، مع أنه كان محقا في الكثير مما قاله إلا أنني لا أعتقد بوجود مخلوق مفسد ماعدا الإنسان المفسد ، كل مخلوق و لو كان بحجم الميكرومتر موجود لسبب ، حتى ما نراه فسادا قد يكون مفيدا على المدى البعيد ، أعلم هذا لأن الكثير من الميكروبات المصنفة على أنها مضرّة للإنسان تم استغلالها لأغراض طبية ، و اشيريشيا القولون أحد الأمثلة ، فقد استغل الإنسان سرعة تكاثرها و انتاجها في صنع الأنسولين الضروري لحياة مرضى السكري ، بل اني أذهب الى أبعد من هذا ، فحتى الإنسان المفسد له دوره في صنع الحياة ، أدركت هذا لما قرأت آية في القرآن تقول : **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**، لو لم يوجد الظلم لما تسارع الناس الى التطور و لقضى الركود على عزيمة الإنسان ، الحياة بالنسبة للأمم بمثابة سباق سريع ، ما أن تركد أمة و تخرج من السباق حتى تسبقها أمم ، و ما أن تسبقها أمم حتى تعزم على الرجوع الى مضمار السباق ، في هذه المرحلة أدركت لما سمح الله بالظلم في العالم ، تذكرت ما قرأته عن آثار الحربين العالميتين ، لقد كانت تلك الفترة أظلم عصر في تاريخ الإنسانية ، ملايين القتلى و المشردين ، آلاف اليتامى و الأرامل ، تدمير كامل لكثير من المدن ، ما الخير في كل هذا؟ كان هذا سببا في تطور الإنسان عبر قفزة لم تشهد الإنسانية مثلها عبر كامل تاريخها ، كانت تلك الفترة مهذا للتطور الذي ننعم به اليوم ، كم من اختراع و لد من

رحم تلك التراجيديا ، التلفون ، الكهرباء ، السيارات ، الآلات ، المركبات الفضائية ، الراديو ، الأدوية ، كانت تلك فترة للتسابق الى التطور و لكني كانسان أجزم أن أكبر فائدة من كل ذلك الهرج كان و عي الإنسان ، فقد تحول الفرد الألماني من نازي كاره قاتل الى أكبر مدافع عن حقوق الإنسان ، و تحول ذلك العنصري الى مدافع عن المساواة ، و تحولت أوروبا من قارة استعمارية الى قارة آوية للمظلومين ، تذكرت سؤالي الى السيد ابراهيم عن سبب لجوئه الى فرنسا الي حاربها أثناء الإستعمار الفرنسي الى بلده ، و تذكرت جوابه أن المجتمع الفرنسي تغير كما أن المجتمع العربي تغير ، تفكرت في الأوقات العصيبة التي قضاها العرب تحت رحمة الأوروبيين ، ألامهم جعلتهم متوحدين متكاتفين ، بينما جعلهم الرخاء منقسمين متنافرين ، في النهاية ليس هذا إلا قانون الفيزياء الذي يمكن من تكون الذرات تحت الضغط و سط النجوم ، هذا يعني أنه لا يوجد شر مطلق و لا خير مطلق ، كل شيء نسبي

لم يقلقني أنني لم أستحم منذ أيام ، و لا أنني لم أعد أكل أكثر مما يمكنني من الحياة ، و لكن ما أقلقني هو البحث عن جواب لسؤالي هذا ، يقول الله في القرآن أنه على كل شيء قدير ، لماذا لم يعلمنا الله كل هذا من دون أن يجعلنا ننسى ؟ دون حروب و دون فقر و دون جوع و دون مرض ، هذا لا يعجزه و هو الذي خلق كل شيء من العدم ، بعد أن ختمت آخر آية من القرآن تمكن مني التعب و لم أعد أستطيع التفكير ، نمت نوما عميقا و استيقظت في اليوم التالي و أنا أملك الجواب ، لولا الشر هل كان الخير ليكون ؟ لولا الشر لكان الخير أمرا عاديا كما هي الأمور العادية التي لن نستطيع احصاءها و لن نستطيع الإنتباه لها ، عرفت هذا لأنني نهضت على ألم قوي في قدمي جراء لسعة نحلة ، عرفت أنني لولا هذه اللسعة لما عرفت نعمة العيش

دون ألم ، لولا الإستعباد لما عرف الناس قيمة الحرية ، لولا الظلم لما عرف الإنسان قيمة العدل ، لولا الحروب لما قدرنا نعمة السلام ، لا بد للمعادلة من طرفان

خرجت من الكوخ متجها الى البحيرة كعادتي و الجوع يربط أمعائي بسبب نفاذ الدخيرة ، حاولت اصطياد بعض السمك ، من دون أدوات و من دون سابق معرفة بالصيد ، بعد محاولات فاشلة كثيرة جلست الى جذع شجرة مستسلما للتعب ،ألقي ببصري في الأرجاء معترفا بعجزى أنا انسان المدينة عن متطلبات العيش في الطبيعة الأم ، حملت الكتاب و فتحته على صفحة من دون اختيار ، أخذت أقرأ و تفاجأت الى معلومة فاتتني في قراءتي السابقة تجيب على سؤال مهم يطرحه معظمنا على نفسه ، لما اختارنا الله لهذه المهمة ، و أدركت أن الإنسان هو من اختار حمل الرسالة ، و أنه أشهدنا على أنفسنا قبل أن ينزلنا الى ملعب الحياة ، قلت في نفسي : و لم لا أتذكر هذا ؟ ثم ضحكت و أجبته نفسي : لما كان اختابارا ، أن عدله لا يضاهيه عدل ، لقد اخترنا الخضوع للإمتحان بجهل منا ، و كل ما فعله الله أنه أجاب رغبتنا ، ثم أنزلنا فنسينا ، ثم ذكرنا فتكبرنا ، ثم شدد علينا فعدنا ، ثم خفف فضلنا ، ثم وجهنا فتجاهلنا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، الأمر على هذا النحو ، نحن نتحكم بمصيرنا و لنا كل الحرية في اختيار مألنا الأخير ، لو لم يكن بتلك الرحمة لأنتقم منا مباشرة بعد كل سوء نرتكبه ، لكنه يمهل و يهدي و يذكر بينما نتسرع ، و نحن و ننسى

بدأت أستسلم للتعب حتى سمعت صوت بوق سيارة ، رفعت كتابي و أسرعت جريا ناحية الكوخ ، كنت سعيدا جدا برؤية جيمي رفقة الجد ، تفاجأ لرؤيتي في تلك الحالة

- تبدوا كإنسان الكهوف.. اقترب مني و شمني.. أف عليك أن تأخذ حماما بأسرع ما يمكن يا صديقي
- أعلم ، لكن فكري الآن نظيف جدا
- لقد فقدت الكثير من الوزن بني ، أرجوا أن لا تطلب مني البقاء لمدة أطول لأنني قلق جدا عليك
- لا جدي ، لقد غنمت ما جئت لأجله ، أحس أنني انسان جديد
- الحمد لله
- في الطريق سألني الجد
- هل من قرارات بني؟
- نعم جدي ، قررت تجنب الطرق الملتوية و الإتجاه مباشرة الى الهدف
- ماذا تعني؟
- سأرجع الى باريس على متن أول طائرة متاحة ، سأصارع والداي بما أظنه و أتأكد من روايتك ، ان كان الأمر كما تظن سأبأشر البحث عن والدتي
- قال جيمي متفاجأ:
- أتقصد أنك ستذهب الى المغرب؟
- سأذهب الى الجزائر جونيور ، سأبحث عن أمي و لو كلفني ذلك كل ما أملك
- ألا تخشى أن يكلفك ذلك حياتك؟
- لن أخشى شيئا جيمي ، سأفعل ما يتوجب علي فعله
- أعارني جيمي بعضا من ملابسه ، استحمت و حلقت ذقني و لبست ثيابا نظيفة ، طلبت من جيمي اعارتي الكمبيوتر المحمول ، بحثت عبر الانترنت عن أول طائرة ستقلع الى باريس ، ثم عزمت على

توديع الجميع قبل الإتجاه الى غرفتي الجامعية لأكمل الترتيبات ،  
فوجئت بإيليزابيث تقف من ورائي و عيناها مغروقتان بالدموع  
- أهلا اليزابيث ، كنت أنوي توديعك و طلب العفو ان كنت قد أسأت  
اليك

- لم تسيء الي ، كنت غاضبة من نفسي ، وعبرت عن غضبي  
بطريقة غير لائقة ، أرجوا أن تسامحني عما بدر مني ، كل ما في  
الأمر أننا لما تحدثنا في المرة السابقة و ضربت أنت مثلا بالمدمنين  
على المخدرات أحسستني بخوف رهيب و جعلني ذلك أتوتر و  
أغضب منك

- هل تقصدين أنك مدمنة؟

- نعم ، أرجوا أن يكون هذا سرنا الصغير

- ماذا ستفعلين بهذا الشأن؟

- يوم قررت أنت اللجوء الى خلوتك حسب ما أخبرني به جدي ،  
قررت أنا اللجوء الى مركز لمحاربة الإدمان بعدما قمت أنا بدوري  
ببعض الخلوة عبر الإبتعاد عن أصدقائي المعتادين  
- من الجيد سماع ذلك

- أتمنى أن نوفق في ما نسعى اليه

- سنوفق ، أعلم ذلك ، هناك من سيدعمنا

- أحب عزمك و ثققتك ، ووددت أن نحظى بفرصة و نلتقي مرة  
أخرى لنحدث عن تفاصيل كفاحنا. ثم حضنتني و الدموع تنهمر من  
عينها.

ودعت أريثا و الجد بعدما شكرتهما على كل ما قاما به من أجلي ،  
اعتذر الشيخ مني بسبب ما جعلني أمر به على حسبه و لكني طمأنته  
على نفسي ، بل و شكرته على أن كان سببا في فتح عيناى على  
الحقيقة المطلقة ، ركبت بجانب جيمي على متن سيارته و انطلقنا

- لم أفكر بعد كيف سأتصل بالسيد وايت لأخبره بشأن استقالتي ، أنا  
مخرج فعلا
- ليس عليك ذلك
- ماذا تقصد؟
- لقد حدث أمر خطير لم أشأ أن أزعجك به قبلا
- ماذا حدث؟
- لقد تم حل فريق البحث
- لماذا؟
- لقد اعتقلت الشرطة السيد راهول بعد مغادرتك بيومين
- ماذا فعل؟
- هناك من اتصل بالأمن القومي و أخبرهم أن محمد يخطط  
لهجمات ارهابية على التراب الأمريكي
- ما هذا الهراء؟ من فعل به هذا؟ و لأي هدف؟
- لا شيء رسمي، لكن كلنا يعلم من فعل هذا
- من؟
- انها نادية ، انها تبغضه منذ أول يوم
- أعلم أنها لا ترتاح اليه ، لكني لم أفكر أن الأمر سيصل الى هذا  
الحد ، ماذا سيفعلون به الآن؟
- لم يجدوا أي دليل ضده ، قد يطلق سراحه بدفع كفالة بسبب بعض  
المخالفات البسيطة ، لكني لا أعتقد أنهم سيسمحون له بالبقاء في  
الولايات المتحدة الأمريكية
- و السيد وايت؟
- لقد تعرض للإذلال الشديد و الى استجواب بشأن اختياره لعناصر  
البحث، و كان عليه شرح أسباب اختيار كل واحد منا

عند وصولنا وجدت باب غرفتي مفتوحا ، و الفوضى تغمرها ، سألت جيمي:

- من فعل هذا ؟

- الأمن القومي

- أول ما بحثت عنه هو الصورة التي أخذتها من الجد ، وجدتها على المكتب مع باقي الصور ، استخرجت هاتفي من حقيبتي و أشعلته ، ما ان اتصل بالشبكة حتى تفاجأت بعدد الرسائل التي وجدتها ، من أمي ، من صوفي ، من آرثر و من السيد وايت الذي طلب مني الإتصال به في أقرب وقت

بدأت الإتصال بأمي التي قلقت جدا لغيابي ، أخبرتها أنني على أحسن ما يرام و كلفتها بإبلاغ سلامي الى الجميع من دون أن أطيل الحديث ، ثم اتصلت بالسيد وايت الذي طلب مني موافاته الى قاعتنا المعتادة في الحين

- أهلا سيد وايت ماذا حدث؟

- حدث ما توقعته منذ البداية ، لقد اخترتكم جميعا للمشاركة في هذا البحث إلا نادية ، فقد تم فرضها علي من طرف الإدارة بعد أن زكوها ، لقد اكتشفت من أول مقابلة لي معها أنها ليست فيلسوفة ، لقد كانت مجرد عنصر استخباراتي وسط مجموعة من الباحثين من مختلف الجنسيات

- هل سألتها لما فعلت ذلك؟

- ليس هناك داع ، لأنني أعلم مسبقا

- و السيد راهول ، ما مصيره؟

- لقد اتصلت بمحام و أخبرني أنهم سيطلقون سراحه مقابل كفالة ، سأتوجه بعد قليل الى مركز الشرطة لأدفع كفالته

- بل سأفعل أنا ذلك ، فله علي دين

- فليكن ، استدعيتك اليوم لأعتذر اليك لما حدث ، أعلم أنك تخليت عن الكثير من أجل القدوم الى أمريكا و ليس من السهل الرجوع صفر اليدين

فكرت قليلا ثم أجبته

- لم أرجع صفر اليدين سيدي ، أنا أرجع و أنا أحمل في قلبي الحقيقة المطلقة ، اني أظن أن الله سخر لي القدوم الى هنا و مقابلتكم أنتم و كل من قابلت من أجل فتح عيناى على حقيقة لم أنتبه اليها قبلا - ماذا تقصد

- أقصد أنى قدمت لسبب، و قابلتكم للسبب نفسه ، و جاءك أمر القيام بهذا البحث لنفس السبب ، أظني المعني بكل هذا - لم أفهم فرانسوا

- لا عليك سيدي ، لكن ليس عليك الإعتذار ، بل علي شكرك لكل ما قمت به

- حسنا ، يمكنك أخذ وثائقك من الإدارة و لنتمنى اللقاء في فرصة أخرى

- أريد أن أسألك عما ستفعله بعد هذه الفوضى

- لقد قدمت استقالتى ، لا أحب كل ما تمسه السياسة و لو كان علما

عدت الى الغرفة لأجد صديقي جيمي رفقة طوماس جاكوزي ،يحاولان وضع بعض الترتيب في الغرفة ، كيف حالك طوماس

- أفضل التواجد مع رفاة الإنسان ، الإنسان أعقل و هو ميت ، سأرجع الى موقع الحفر في أثيوبيا لعلي أجد رفاة آدم لأشبعه ضربا لأنه سبب خروجنا من الجنة ضحكنا جدا لقوله

- هل أصبحت مؤمنا بالجنة؟
- لا ، لكن لا بد من القاء اللوم على أحدهم
- من سيرافقني الى مركز الشرطة؟ أريد دفع كفالة السيد راهول
- العضلة الأمريكية في الخدمة ، لكنني لن أدخل معك الى مركز الخنازير
- ساتي معكما..قال جيمي

فعلت ما توجب و جلست أنتظر خروج محمد ، لحظات حتى رأيت وجهه المنير رغم سمرته ، و بسمته المطمئنة رغم التعب الظاهر على وجهه ، وصل الي فاتحا كلتا يديه ليحضنني

- كنت أتساءل من عساه يتذكرني ليخرجني من السجن ، أرجوا أن تكون بخير فرانسوا ، يبدوا أنك خسرت بعض الوزن

- أهلا سيد راهول كيف حالك أنت بعد الذي عانيته ؟

- أنا بخير لا تقلق ، الحمد لله الذي نجاني من كيد الظالمين ، أنا أشكرك جدا لدفع كفالتي ، و أعدك أن أرجع لك مالك مع أول راتب أتقاضاه ، أنا آسف لأنني لا أملك المبلغ كاملا الآن

- لا تفكر في هذا ، فليكن بمثابة رد دين ، فما أهديتني اياه أغلى من كل مال

- ماذا تقصد؟

- أنت تعلم ماذا أقصد ، الكتاب الذي أهديتني و النصيحة التي أسديتها لي ، كان هذا كفيلا بجعلي انسانا أفضل ، أنا مستعد لمواجهة المستقبل

- من المطمئن سماع هذا ، كنت أعلم أنك تملك روحا نقية
- تفاجأ محمد لما وجد طوماس و جيمي ينتظران قرب مركز الشرطة
- أهلا بالسيد راهول

- أهلا بنا بـش القبور كيف حالك؟
- سأكون أحسن حالا ان ابتعدنا عن هذا المكان ، أنا أعاني حساسية زائدة تجاه الشرطة
- و أنت جيمي ؟
- سعيد برؤيتك سيد راهول
- أشكركم جميعا على مساندتي ، هذا يعني الكثير لي
- اصعد على متن العضلة الأمريكية سيد راهول ، سنرى نتيجة تواجد هندي على متن سيارة أمريكية معدلة ، بوليوود في شوارع نيويورك
- ركبت بجانب محمد على المقعد الخلفي و ركب جيمي بجانب طوماس على المقعد الأمامي ، سألني محمد :
- ما أكثر ما أعجبك في القرآن؟
- كله حكمة خالصة لكني أحببت تحديه و توجيهه خاصة في الآية التي تأمرنا بأن نسير لننظر كيف بدأ الخلق ، لأن في هذا تقدير للعلم و تشجيع عليه ، فمع أنه أعطانا الخطوط العريضة لبدأ الخلق من أجل توجيهنا إلا أنه ترك المجال مفتوحا ليكمل العلم قصة تاريخ الكون ، كما أن هذا يعني أن في الأرض علامات على بدء الخلق لمن يتقن لغة الطبيعة ، أحببت هذا لأنني أعتقد أن الكتب الدينية الأخرى تفرض علينا الإيمان الأعمى بمحتواها
- هذا صحيح ، فالقرآن يتحدى العصور بما يحتويه ، فقد حاول الكثير اثبات أخطاء فيه منذ أربعة عشر قرنا و لم يفلحوا ، بل ان كل من فعل خرج مندهشا من دقة المعلومات الموجودة في القرآن الكريم ، لعل من واجبي أيضا تحذيرك من بعض ممن لا علاقة لهم بالعلم الحديث و يحبون ارغام الناس على فهمهم المحدود للقرآن

- كنت لأندع لولا أنني وجدت أن القرآن موجه لكل فرد من الإنسان ، و لا حاجة لوسيط بين الفرد و الرب ، هذا صحيح ، ليس المسلم بحاجة الى قس ليعترف له ، فالله يدعونا للإعتراف و التوبة له ، بل و يفرح لهذا - ما لفت انتباهي أيضا و أظن الكثير يجهلونه ، هو أن لفظ المسلم لا يطلق فقط على من يتبع محمدا ، لأن القرآن يذكر أن النبي ابراهيم سمانا المسلمين من قبل ، ما يعني أن موسى و عيسى و غيرهم من الأنبياء كانوا مسلمين أيضا ، و هذا بدوره يدعم ما أخبرتني به من قبل من أن الأنبياء كلهم في صف واحد و أنه لا يوجد لا صراع بين الأديان و لا حوار بين الأديان لأنه لا يوجد أكثر من دين واحد و هو الإسلام

- أنا سعيد جدا لسماع هذا منك ، لأن الحروب الإثنية كلها تتناسى هذه الحقيقة

- أحببت أيضا مقطعا في الصفحة العاشرة في بداية الصفحة ، لقد نسيت النص لكني أذكر المعنى

- تقول هذه الآية : ان اللذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين من آمن بالله و اليوم الآخر و عمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون

- هذه هي ، هل هذا يعني أن غير المسلم قد يكون من أهل الجنة - سأقول لك أمرا مهما قد يقيك مشاكل كثيرة في المستقبل ، الحكم على الناس في الآخرة لا يخص غير الله ، و لا يحق لأي كان و لو كان رجل دين أن يجزم أو يحكم على مصير أي انسان ، لأن الله وحده يعلم سرائر الناس ، و وحده يعلم دقائق الأمور و لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء

كان الهدوء مخيما وسط السيارة ما يعني اصغاء جيمي و طوماس

- أنتما مندهشان مما نتحدث بشأنه  
عقب طوماس بسخريته المعتادة
- أنا مندهش من لا أدري يتكلم بهذه الطريقة ، أنا أحاول تخيل حالتك  
لو كنت مؤمنا
- سيكون أفضل ، ثق بي
- مادمت تعرف الكثير سأسألك عن حال العرب و المسلمين ، ما بال  
أوطانهم مخروبة؟
- نظرت الى محمد و كآني أستأذنه لأرد على سؤال طوماس
- أظن الجواب في الآية التي تخبرنا أن الله لا يغير ما بقوم حتى  
يغيروا ما بأنفسهم
- تبسم محمد و قال:
- هذا صحيح فرانسوا ، لقد جعل الله سننه و قوانينه جارية على  
الجميع ، و هذا من عدله و مساواته ، فالله ينصر الكافر العادل على  
المسلم الظالم ، سبب انهيار العالم الإسلامي هو بعدهم عن تعاليم  
دينهم الذي يحرم الظلم و السرقة و الرشوة و الخمر و الزنا وتتبع  
عورات الناس و ما الى ذلك من الأفعال الشائعة جدا في العالم العربي  
، لكن عليكم التفريق بين العربي و المسلم ، فمن العرب من هو غير  
مسلم ، و من المسلمين من هو غير عربي ، فمسلمو سنغفورة ، و  
باكستان و الهند و بورما و أوزباكستان و أفغانستان بل و إيران ليسوا  
عربا ، و هناك من هذه الأمم من نجح فعلا
- قال جيمي:
- و مع ذلك فالأضمن للدول تتبع النظام العلماني
- كل ما هو حسن في العلمانية موجود في الإسلام ، المساواة ، العدل  
، الحرية ، المسؤولية و غير هذا كثير من الأخلاق التي من شأنها  
بناء مجتمع قوي و حضاري

- قلت ان الإسلام يدعو الى المساواة ، فما بال الجزية التي تفرض على غير المسلمين في بلادهم
- ألا تدفع الضرائب في أمريكا؟
- بلى أفعل ، لكنها مفروضة على الجميع بغض النظر عن جنسياتهم
- في الإسلام تفرض الزكاة على المسلم و تفرض الجزية على غير المسلم علما أن قيمة الجزية أقل بكثير من قيمة الزكاة ، و بالمقابل يتحتم على المسلمين الدفاع عن غير المسلمين و لو كلفهم هذا أرواحهم و أموالهم كلها ، أليس هذا أفضل من ضرائب أمريكا؟
- تكلمت عن الحرية في الإسلام
- نعم ،القرآن واضح بهذا الشأن ،من شاء فليؤمن و من شاء فليكفر
- تكلمت عن المسؤولية
- نعم ، كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته ، سيسأل الله الملك عن ملكه ، و الوالد عن عائلته و كل محاسب على قدر مسؤوليته
- ألا يأمركم دينكم بقتل الكفار ، أي بقتلنا
- ساعد فرانسوا يجيبكم
- كان هذا أحد اهتماماتي أثناء قراءة القرآن ، لقد تفاجأت لما وجدت أن الله يأمر المسلم بأن يقسط مع غير المسلم بل و أن يببره ، لقد غير هذا نظرتي للقرآن
- و ماذا عن آيات القتل التي يتذرعون بها المسلمون
- كل ما وجدته عن القتال هو ما نسميه اليوم دفاع عن النفس ، لا يقاتلون إلا من منعوا من دينهم أو أخرجوا من ديارهم أو قتلوا بغير حق
- لو سمعت هذا من شخص غيرك فرانسوا لما صدقته ، هل تقول لي أن كل المسلمين مخطؤون و أنك على حق

- سأعيد عليك ما سمعته من انسان حكيم ، ان للظلم دوي ، و ان  
للسلم سكون ، هؤلاء الإرهابيون ليسوا أغلبية ، بل هم أقلية لا تقارن  
بعدد المسلمين ، انهم بضع آلاف متعصب مقابل أكثر من مليار مسالم  
- و مع ذلك فأرهابهم مرهب  
- هذا لأن ارهابهم تعرض للتضخيم من طرف الإعلام  
- ما مصلحة الإعلام من هذا؟  
- عليك أن تبحث عن يملك أقوى أجهزة الإعلام لتعرف من له  
مصلحة في هذا؟  
- كنا لنسمع عن ارهاب آخر و لو ليس بنفس الضخامة ، ما رأيك سيد  
راهول  
في هذه المرة و على عكس عادته لم يتبسم راهول ، فتح نافذته و  
استنشق الهواء و هو ينظر الى لا شيء ثم أعاد غلقها و نظره متجه  
الى أرضية السيارة و قال  
- بل هناك الكثير من الإرهاب الحامل لجنسيات مختلفة ، منه ما أخذ  
شرعية زائفة و منه من لم يأبه بالتغطية الشرعية لأن من يرهبهم  
ليسوا من نفس مرتبة البشر الآخرين  
- سأسألك عن الإرهاب الشرعي أولا  
- الحلف الأطلسي بضربه الكثير من دول العرب ، على غرار ليبيا  
،لقد دمرها بناها التحتية و قضوا على كل أمل فيها ، الحلف العربي  
على اليمن حيث وصلت نسبة وفيات الأطفال الى وفاة طفل كل  
عشرين دقيقة و قطعوا عليها المدد و الدواء فتحالف بذلك داء الكوليرا  
معهم و قضى على الآلاف ، و من بقي منهم ممن يقول لا اله إلا الله  
مات تحت ركام أسقفية المستشفيات المدمرة بواسطة صواريخ تحمل  
على ظهرها شعار محمد رسول الله ، هل أزيدك ؟ العدوان  
الإسرائيلي على غزة ، ألا يقتلون شعبا أعزل يتظاهر سلميا للمطالبة

بحقه في أرضه ، ألا يقتلون الرجل و المرأة ، الشيخ و الرضيع ،  
المقاتل و من يلبس المأزر الأبيض لإنقاذ الأرواح ، رزان النجار اسم  
فتاة جميلة في مقتبل العمر كانت تكافح لإنقاذ اخوتها المصابين حتى  
اغتالها قناص نجس من الجيش الإسرائيلي ، هل يكفيك هذا ؟ أم  
أزيدك العدوان الأمريكي على العراق بحجة أن هذا الأخير يمتلك  
أسلحة الدمار الشامل ، ثم يخرج الرئيس بوش و يكتفي بالقول أنه  
مخطيء و كأن الآلاف من القتلى و المشردين و التدمير الكامل للبنى  
التحتية هو ضريبة شرعية لمجرد شك بوش

خيم صمت حزين قطعه الطبيب بصوت به بحة من يجبر نفسه على  
منع الدموع من النزول

- هل الإرهاب ضد مسلمي الروهينجا شرعي؟ يقتلونهم و يعذبونهم  
بطرق لن تتحمل رؤيتها أنت الرجل صاحب الشارب الكبير حتى في  
الصور ، القليل ممن بقي على قيد الحياة هرب الى البنغلاديش عبر  
الأنهار و الأدغال ..ثم انفجر الطبيب بالبكاء ، من الواضح أنه كان  
يقاوم بشدة ليتفادى حصول هذا لكنه أخفق أيما اخفاق ، لم أتحمل  
رؤية رجل يشهق من شدة البكاء ، كان يغطي وجهه بكلتا يديه كي لا  
نتمكن من رؤيته في تلك الحالة ، نظر ثلاثتنا الى بعضنا بعدما أوقف  
طوماس سيارته على مسار الطوارىء ، مسحت بيدي على ظهر  
محمد و قلت:

- دع الدموع تنهمر محمد ، لا تقاومها

قطع محمد شهيقه بكلام متقطع

- لقد قتلوا ابني و زوجتي هناك و نكلوا بهم و قطعوهم اربا ليطعموا  
بهم كلابهم المتشردة ، لقد حرموني حتى من قبر أزوره لأبكي عليه  
ما سمعناه كان صاعقة ، فاجعة جعلت ثلاثتنا يبكون ، ارتعشت  
أجسادنا لسماع ذلك ، و انتفضت أرواحنا و انعقدت ألسنتنا و لم نجد

من الكلام ما نواسي به الطبيب ، بعد دقيقة تما لك محمد نفسه و تجرع بعض الماء و قال : هناك ارهاب غير شرعي تكلم عنه اعلامكم بعدما أنهى الأخبار الجوية ، لكن بورما دولة تجهلون وجودها ، و الروهينغا قوم أذل من ان تقلقوا بشأنهم لم ننطق ببنت شفة لأن ما قاله راهول حقيقي

- أتعلمون ماذا كانت تفعل هناك؟ كانت زوجتي طبيبة هندية متطوعة ، ذهبت لإنقاذ المرضى ، لكنهم قتلوها مع ابنها لسبب واحد ، لأنها مسلمة ، بورما وجهتي الآتية ، سأتجه هناك و أفرغ لعمليات الإنقاذ بعدما أمر على باريس و أسلم أبحاثي لطبيب صديق ، لعل الله يلحقني بهما فلم يعد لي في هذا العالم مكان

رتبت حقيبتني و التحقت بجونيور و طوماس ، انتظرنا محمد بضع دقائق أخرى لننطلق الى حي اليهود من أجل العثور على اسحاق لتعذر الإتصال به هاتفيا

- انه صديقك راهول ، أرجوا أن تصعد أنت الى مكتبه

- هل تعني ما تقول؟ ، لن أنزل من السيارة ، هل نسيتم أنني مسلم و أنه حي اليهود؟

- هل تخشى على نفسك؟

- بل أخشى على سمعته ، سيسبب ظهوري معه له المشاكل ، فلتذهب أنت طوماس

- علاقتي به سطحية لا تتعدى لقاءاتنا في المخبر ، كما أنني أكره التواجد حيث البذلات الرسمية و المحافظ الدبلوماسية ، فلتذهب أنت جونيور

- كما لو أن علاقتي به أقدم من علاقتك به ، فلتذهب أنت فرانسوا

- حسنا ، فليكن

- دخلت مبنى كبير ، معظم جدرانه من الزجاج ، سألت في الإستقبال  
عن مكتب السيد اسحاق روبنسون  
- هل لك موعد؟
- لا ، لكنه لن يمانع مقابلي
- أنا آسف سيدي ، لا يمكن مقابله من دون موعد مسبق
- أظن أنه يجدر بك اخباره بوصولي
- عفوا سيدي ، لكن لن أستطيع فعل شيء من أجلك ، لو أردت أترك  
لي اسمك و رقم هاتفك لأتصل بك و اعلمك بموعدك
- لا أظن هذا سيدي ، سأحذرك مرة واحدة ، ان لم تخبره بوصولي  
سيغضب منك سيدك جدا
- لا أعلم من أين جاءتني هذه الجرأة ، لكن الحيلة انطوت عليه ، سجل  
اسمي و رفع السماعة
- عفوا سيدي ، هناك رجل يدعى فرانسوا روسو يدعي أنك تعرفه و  
هو يصر على لقائك
- أغلق السماعة و الخجل باد على وجهه
- عفوا سيدي يمكنك انتظاره هناك على الأريكة ، قال أنه سيوافيك  
بعد بضع دقائق
- بضع ثوان مرت لأجد السيد روبنسون يقف أمامي ببذلته الرسمية
- أهلا فرانسوا
- عفوا على ازعاجك سيدي ، لكننا حاولنا الاتصال على هاتفك من  
دون فائدة
- هل من خطب ؟
- كل شيء على ما يرام ، لكن و لأننا سنغادر غدا أنا و السيد راهول  
فقد أردنا الإجتماع للمرة الأخيرة
- هذا مؤسف حقا ، كان بحثنا يجري بطريقة واعدة ، أين البقية؟

- نحن ننتظر ك لنتحق بالسيد وايت ، انه ينتظرنا بقاعة البحث
- اذهبوا أنتم ، سألق بكم مباشرة
- بعدها اجتمعنا في القاعة و ظننا أن العدد مكتمل ،تفاجأنا بنادية تدخل رفقة السيد وايت
- هل ستقومون بجلسة أخيرة من دوني؟
- رد عليها طوماس بغضب
- لولا افتراء أحدهم ، لما كانت هذه جلستنا الأخيرة
- أنا لم أشي بأحد ، أنتم تلومونني بدل أن تشكرونني
- على ماذا سنشكر ك ، على تفريق الفريق
- من حقي أن أشك في السيد راهول ، كل شيء فيه مريب ، ألم تلاحظوا نشاطاته الكثيرة ، خاصة في الأحياء الفقيرة ، مازلت أظنه يقوم بتجنيد الشباب الفقير عن طريق المال
- لقد أجر و تحقيقات كثيرة معه و لم يجدوا ما يريب
- لأنه لا يترك وراءه دليلا
- بل لأنه بريء مما تدعين
- اسألوه اين يجعل أمواله؟ ، لماذا لم يجد حتى ثمن دفع كفالته؟ ماذا يفعل كل يوم من الفجر الى منتصف الليل
- اشرح لها سيد راهول
- لست مضطرا
- سأشرح أنا اذن ، لقد رافقته من قبل ، انه يعالج المرضى من الفقراء و العاجزين ، انه يقوم ببحوث علمية ، انه ينفق أمواله على المحتاجين ، هل يكفيك هذا الجواب؟
- لقد أثر على عقلك فرانسوا ، انظر الى حالك ، كنت سانجا و أصبحت غيبا
- تدخل السيد وايت بصوت حازم

- كفى سيدة بن غوريون ، ليس لك الحق في اتهام أحد من دون دليل ،  
كما لا يحق لك التكلم بوقاحة في حضوري  
- لستم سوى مجموعة من ناكري الجميل..ثم خرجت و هي تطرق  
الأرض بكعييها

- لقد جمعتكم اليوم لأقدم لكم اعتذاري الرسمي ، أعلم أن منكم من  
ترك وظيفته السابقة من أجل هذا المنصب ، و منكم من أتى من قارة  
أخرى تاركا كل شيء وراءه و منكم من علق آمالا ، أنا فعلا خجل  
مما حدث ، لن أقول اني لم أتوقع وقوع ازعاجات من طرف مصالح  
الأمن لأن هذا قد أصبح شيئا عاديا بعد أحداث الحادي عشر من  
سبتمبر ، مصالح الأمن تدقق مع كل من يحمل خلفية اسلامية ، و لن  
أقول اني لم أتوقع ان تكون نادية عميلة استخبارية لأنني عرفت هذا  
منذ أن تلقيت مكالمة هاتفية فرضوا فيها علي ضمها الى فريق البحث  
، حتى هنا ليس هناك مشكل فمن حق كل دولة الحرص على أمنها ،  
لكني أبدا لم أتوقع أن تقوم بالإفتراء و الكذب ،حمدا لله أنها لم تصنع  
أدلة كاذبة ضدك ، و اني أخشى عليك سيد راهول ، و كل ما اتمناه  
هو الابتعاد عنها قدر المستطاع

- سافعل سيدي ، ساغادر الولايات المتحدة غدا باتجاه باريس حيث  
سأمكنث يومين على الأكثر لأتبادل بعض الأبحاث مع صديق لي ،  
لأطير بعدها مباشرة على متن أول طائرة باتجاه بومباي ، ثم بورما  
- ولم بورما بني ، ألا تعلم ما يفعلونه بالمسلمين هناك؟  
- بلى سيدي أعلم ، و هذا سبب ذهابي ، سأقف بجانب اخواني هناك  
أراد السيد وايت اقناعه ، لكنني قاطعته بحركة بيدي و قلت:  
- لا تحاول منعه سيدي ، فله أسبابه  
- ماذا عنك فرانسوا؟

- أنا عن نفسي، راض جدا لهذه التجربة التي خضتها معكم ، ما تعلمته معكم لا يعلمونه في المدارس ، لقد تعلمت أن اليهود و المسلمين ليسوا أعداء بالفطرة كما تصورت دائما ، و لكن للعداوة أصل آخر غير الدين ، تعلمت أن الديانات المزعومة و المتصارعة و التي هي سبب رئيس في خراب العالم ما هي في الحقيقة الا ديانة واحدة تم تجديدها عبر الكثير من الأنبياء الداعين لنفس المبادئ التي نسميها اليوم انسانية ، تعلمت أن التطرف هو الوجه الثاني لعملة الجهل ، و أكبر ما تعلمته هو أنني لست مجرد مواطن فرنسي ، أنا مواطن في العالم

- يبدووا أن لأدريتك وجدت جوابها

- لم أعد أطيق غبائي ، الذي كان يؤمن بأن الساعة السويسرية التي ندهش لسمودها و دقتها لوقت قد يصل الى مئة سنة لها خالق ، و الساعة الكونية التي وجدت منذ ملايين السنين ، و لم يحدث بها أي عطب ليس لها خالق ، لم أعد أحتمل النظر الى القرص الصلب مندهشا من قدرته على حفظ المعلومات الكثيرة و أتجاهل الذي أن أي الذي هو أدنى من رتبة الميكرومتر و يحمل من المعلومات ما لا يستطيع عالم البرمجة تخيله ، لم أنتبه من قبل أن مصباح مجموعتنا الشمسية لم ينطفئ منذ ملايين السنين ، كنت غبيا باعقادي أن كل هذا صدفة ، و كل هذا بفضلكم أصدقائي

سألني طوماس :

- هل هذا يعني أنك أسلمت؟

- لنقل في هذه المرحلة أنني آمنت

- ماذا ستفعل طوماس؟

- قدومي هنا كان غلطة من البداية ، لست مؤهلا لحياة المدينة ، سأرجع الى نبش قبور القدامى

- ماذا عنك اسحاق؟

- لم يتغير شيء بشأني ، من المؤسف مغادرة فريق متحمس الى العلم ، نقاشي معكم كان بمثابة هواية أهرب اليها من عالم المال و الأرقام ، سأواصل دراسة التاريخ و الكتابة عنه ، كما سأواصل حياتي الروتينية

- ماذا عنك سيد نيكولاس

- لقد استقلت فعلا من هذا المنصب ، هذا أسبوعي الأخير لأسلم الشعلة الى روح شابة تتحلى بروح المغامرة ،فقد حان لي أن أرتاح ، كل ما أتمناه لكم هو مواصلة أبحاثكم عن الخلق و عن الحياة رغم أن العالم لم يعد يابه

## الجزائر

كانت دائما حفلة في مخيلاتي  
كنت قادرا على التفكير فيما أردت  
كنت حرا  
-فيكتور هيجو-

كانت رحلتنا طويلة و مناسبة لأناقش محمد عما وجدته في القرآن  
- قل لي سيد راهول ، هل أمر الله لنا بأن نسير في الأرض للنظر  
كيف بدأ الخلق يعني أن نعتمد كلية على ما سنكتشفه و نسلم به  
- ما يكتشفه العلمي نسبي الصحة ، كم من النظريات العلمية التي  
اعتبرت مسلمات في وقت مضى بين العلم الحديث خطأها ، كما  
سيبين العلم في المستقبل خطأ الكثير من النظريات الحديثة ، قال الله  
تعالى و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، لهذا من الجيد بل من اللازم  
معرفة ما أنزل الله علينا من علمه لنقيس به دقة ما وصل اليه العلم  
الحديث ، فكلام الله صحيح لا ريب في صحته ، لهذا علينا أن نجعله  
مرجعا للعلم ، نقيس به دقة معلوماتنا ، فما توافق معه نقبله و ما  
تعارض معه نرفضه ، هكذا تعامل عباقرة المسلمين من السابقين مع  
العلم ، بل ان الكثير منهم جعلوه منطلقا لأبحاثهم معتمدين على فهمهم  
للآيات و كان هذا سبب الكثير من اكتشافاتهم العلمية  
- مثل من؟

- في الفترة المسماة في أوريا بالعصور المظلمة كان نور العلم يشع  
على العالم باكتشافاتهم المذهلة ، سأذكر لك بعض من غيروا العالم  
باكتشافاتهم ، الفرابي الذي تكلم كثيرا في الأنظمة السياسية ، و نقد  
الكثير من فلسفة أرسطو حتى لقب بالمعلم الثاني ،البتاني و هو عالم  
فلك و رياضي ،يلقب ببطليموس العرب هو من الأوائل الذين وضعوا  
الرموز لتسهيل العمليات الرياضية حقق الكثير في علم الفلك و العلوم  
الرياضية كحساب المثلثات و الجبر و الهندسة و حتى الجغرافيا ، لقد  
قاس و من دون أجهزة زاوية الميل الأعظم ، وقاس أوج الشمس في  
مسيرتها الظاهرية و صحح قيمة الإعتدالين الصيفي و الشتوي ،  
أجرى أرصادا دقيقة للكسوف و الخسوف ، هناك الطبيب ابن سينا و  
كلمة طب بالفرنسية ميديسين مشتقة من اسمه مقسمة على كلمتين مادة

سينا المولود قريبا من مدينة بخارى بأوزباكستان الحالية و يلقب بأبي الطب ، كان فيلسوفا و طبيبا ، من مؤلفاته كتاب قانون الطب و كتاب الشفاء و حوالي المئتي كتاب في مواضيع مختلفة ، هناك الرحالة ابن بطوطة الملقب بماركو بولو الإسلام ، المعروف عنه أنه قطع مسافة مئة و عشرون ألف كيلومتر في ثمانية و عشرون سنة و كتب الكثير عن جغرافيا القرن الرابع عشر ، الفيلسوف ابن رشد و هو في نفس الوقت طبيب و فقيه و قاضي و فلكي و فيزيائي ، من أهم اكتشافاته هو اكتشاف نجم لم يكتشفه الفلكيون الأوائل ، و قدم للعالم نظرية تسمى بنظرية اتحاد الكون النموذجي ، كما انتقد الكثير من النظريات السابقة ، هناك أيضا العلم الرياضي الأشهر على الإطلاق ، الخوارزمي الذي يعتبر الى اليوم من أكبر علماء الرياضيات على الإطلاق في العالم ، ترجمت أعماله الى اللغة اللاتينية ، هو مؤسس علم الجبر بالإضافة الى مساهمات كثيرة في الجغرافيا و علم الفلك ، هو المسؤول عن ادخال الأرقام العربية على أساس الترقيم الهندي العربي المطور في الرياضيات الهندية الذي يحتوي على النظام العشري الى العلم الغربي ، وقد تحول الاسم من الخوارزمي الى ألبورسم و هذا أصل كلمة ألبوريتيم ، هناك الفارسي عمر الخيام و هو رياضي ، شاعر ، فيلسوف و فلكي ، جابر بن الحيان و هو مؤسس علم الكيمياء ليحول ما عرف في وقته من شعودة الى علم ، هناك ابن الحيان الفيزيائي الذي أسس للعلم التجريبي و ابن خلدون ، مؤسس علم الاجتماع ، هؤلاء أسسوا للعلم الحديث الذي يفتخر العالم الغربي بالنبوغ فيه ، و هناك الكثير من العلماء المسلمين غيرهم الفيزيائي ابن النفيس ، و الجغرافي الإدريسي ، و تقي الدين عالم الميكانيكا

- هذا دليل على أن الدين لا يعارض العلم في شيء

- لا يفعل الدين ، لكن المتدينون يفعلون ، فالكثير من هؤلاء صنفوا على أنهم كفرة من طرف بعض القساوسة المسلمين
- لقد حاولت جمع ما استطعت من القرآن حول خلق الإنسان ، لأقيس به ما أتى به العلم و خاصة نظرية التطور التي تعتبر أساس البيولوجيا الحديثة ، أم ان الميزان سيميل لكفة الخلق المستقل ؟
- هات ما عندك
- و اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين
- هذا أصلنا الأول و يتوافق مع كلتا النظريتين لأن الطين مزيج من الماء و التراب
- و الله أنبتكم من الأرض نباتا
- يوافق هذا كلتا النظريتين
- و هو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا و صهرا
- ما رأيك في هذه الآية؟
- من المعلوم علميا أن الماء هو أصل كل حياة ، و بالتالي فالعلم يتوافق تماما مع القرآن
- حقا ، فقد قال الله تعالى و جعلنا من الماء كل شيء حيا
- أما قول الله و اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، ما هو الحمؤ المسنون؟
- هو الطين المتعفن
- ألا يعطي هذا الأولوية الى التطور ، ان كان الطين متعفنا ألا يعني هذا وجود بكتيريا أو كائنات دقيقة أخرى تسببت في تعفن الصلصال؟
- بالتالي فإن العملية التي تلت خلط الماء و التراب لصنع الطين أو الصلصال كانت خلق الكائنات الدقيقة

- شرح مقبول لأنه لا يتعارض مع ظاهر الآية ، لكن هذا لا يعارض  
نظرية الخلق المستقل أيضا ، قد تكون هذه احدى المراحل قبل أن  
يشكل الله جسم آدم

- و الله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه و منهم من  
يمشي على رجلين ، و منهم من يمشي على أربع ، ألا تدل هذه الآية  
أن أصل الخلق واحد

- ظاهر الآية أن أصل كل ما ذكرت هو الماء

- هو أعلم بكم اذ انشأكم من الأرض

- توافق كلتا النظريتين

- يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها  
زوجها ، ليست النفس الواحدة هي تلك الخلية الواحدة التي خلقت  
منها نفس ثانية عبر ما يسمى بالإنقسام الخلوي، ثم انبثقت منها باقي  
الأنفس عبر التكاثر الجنسي؟

- لا أظن ذلك ، لأن المخاطب هم الناس و هذا يعني و لو صحت  
نظرية التطور ، أن الحديث عن آدم و زوجته و هما أصل الإنسان  
العاقل بلا شك ، هذا أغلب الظن

- ان كان ممكنا اطلاق كلمة نفس على الخلية فالأمر ممكن ، فالخلية  
هي أول كائن حي على الأرض و تكاثرها لا جنسي ، ثم و لسبب ما  
حدث تحول في هذه الخلية لتتحول الى التكاثر الجنسي و حدث هذا  
على مرحلتين ، أي أن خلية ما تحولت مبدئيا لتطور جهازا يمكنها  
من التبادل الجيني ، لكنها واصلت التكاثر اللاجنسي و بذلك أعطت  
خليتان من نفس النوع قادرتان على التكاثر الجنسي لتكون أول  
خليتين تتكاثران عبر هذه التقنية الجديدة لتنتجا خلايا أخرى من نفس  
النوع لكن ليس بنفس الوعاء الوراثي  
فكر الطبيب قليلا ثم قال

- ربما يصح كلامك لو أن كلمة نفس تطلق على كل كائن حي ، لكنني أشك في ذلك صراحة ، اني أظن أن النفس المذكورة هنا هي نفس آدم - في قول الله ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، ألا يعني أن هناك مراحل يفصل بينهم زمن ، فكان الخلق أولاً ، و أظنه الخلق البدائي الأول ، ثم التصوير ، و هو اعطاء الشكل البشري و بالتالي التطور ، ثم امر الملائكة بالسجود ، و هذه آخر المراحل - معك حق بأن المذكور في هذه الآية هو مراحل لخلق الإنسان ، و مع أن ما ذكرته يستدعي التدبر فعلاً ، الا أن اسقاط هذا الكلام على نظرية الخلق المستقل ممكن أيضا

- ما رأيك في الوصف التالي ،خلق الإنسان من صلصال كالفخار؟

- يميل عقلي الى تخيل الشكل لأن الفخار هو شكل تأخذه الطين

- انا خلقناهم من طين لازب أي طين لاصق

- هذا يوافق النظرتين

- و بدأ خلق الإنسان من طين ، كلمة بدأ توحى الي بوجود زمن بين البداية و نهاية خلق هذا المخلوق

- حتى في النظرية الثانية ليس هناك نفي لوجود هذا الزمن

- في هذه سأغلبك ، ركز مع أدوات الربط بين الآيات ، الذي أحسن كل شيء خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين ،ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ،ثم سواه و نفخ فيه من روحه ، ما أفهمه من هذه الآيات هو أن بداية الخلق كانت من طين و هذا أمر واضح ، ثم جعل نسله من ماء مهين ، و كأن النسل كان في ما قبل هذا عبر طرق أخرى و أظنها المرحلة الأولى من التكاثر الذي تطور فيما بعد ليتحول الى التكاثر الجنسي ، ثم سواه و نفخ فيه من روحه ، ألا ترى سيد راهول أن التكاثر بالماء المهين سبق التسوية و نفخ الروح؟ ، ألا تظن أن هذا يعني وجود تكاثر للبشر قبل التسوية النهائية للإنسان و نفخ الروح فيه

، و هي مرحلة التكليف التي تزامنت مع اكتمال العقل؟ ألا تظن أن هناك بشرا قبل آدم و قبل التسوية النهائية التي كانت نتيجتها الإنسان العاقل؟ ، خاصة ان ربطنا هذا مع ما جاء قبلا على لسان الملائكة حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء؟ أليس هذا دليلا على وجود هذا الصنف من المخلوقات المعروفة بالقتل و الفساد؟ أليس هذا ما يحدث الى الآن مع الإنسان الذي يجرد نفسه من العقل أو بتعبير القرآن يجرد نفسه من روح الله؟ الا يجعله هذا مفسدا قاتلا؟ - علي الاعتراف بأن في كلامك الكثير من المنطق ، و الملفت هو أن نظرتك لا تتعارض مع ظاهر الآيات

- ثم اذا أضفنا لها الآية التي يغري فيها الشيطان آدم ليأكل من الشجرة، ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، كيف لآدم أن يعرف الموت لو لم يره من قبل ، رأيي أنه رأى من قبله من البشر يموتون و إلا فما فائدة الإغراء بشيء غير معروف

- أعترف أن شرحك منطقي جدا ، أنا معجب بتدبرك هذا ، لكني أنبهك أن حتى هذه الآيات لا تنفي صراحة الخلق المستقل - لك هذه ، يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ،الذي خلقك فسواك فعدلك ، أظنها مراحل الخلق نفسها في كتب البيولوجيا ، بدأ الخلق عبر مراحل تطورية كثيرة ، ثم التسوية ، ثم التعديل ، هذا يعني أن مراحل خلق الإنسان متوازية مع مراحل خلق المخلوقات الأخرى جميعا ، كل شيء بدأ بالماء و التراب، فالطين أو الطين اللازب، فالمخلوقات الدقيقة ذات التكاثر اللاجنسي و التي جعلت من الطين الأولي حمأ مسنونا ، ثم تحولت تلك الخلية الى التكاثر الجنسي بعدما أنتجت عن طريق الإنقسام خلية مثلها ، و تمكنا هاتين الأخيرتين من التكاثر الجنسي ، هذا بدوره أدى الى نشوء بعض التغير الجيني ما

بين الخلايا الأم و الخلايا الأبناء ، و في هذه المرحلة بالضبط ظهر الموت الطبيعي مع تقدم عمر الخلية التي تبدأ صغيرة ثم تكبر و تنتج خلايا أخرى ثم تشيب و تموت ، فقبل هذه الفترة كانت الخلية الناضجة تنقسم الى خليتين شابتين ، و حين تنضج كل خلية من هاتين تنقسمان الى خليتين و هكذا لن يكون لدينا أبدا خلية عجوزا - هل تستمتع بالتدبير؟

- أحس أن هذا التفكير و التدبير هو بمثابة التعبد عند الناس غير أي أخشى أن يكون ما أقوم به يتعارض مع مفهوم الإيمان بالغيب المذكور في القرآن ، لولا أنني تشجعت بقول الله قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، فقلت لنفسي ما كان الله ليوجهنا لأمر يضلنا ، من شأن هذا السجل الأحفوري المدفون في الأرض أن يدلنا على صنيعه الله

- نحن نؤمن بالغيب ، و ما هذه البحوث التي نقوم بها الا لفهم أساليب و طرق الله في الخلق ، كل بحث نقوم به هو من أن أجل اليقين ، لقد قرأت الآية التي يسأل فيها سيدنا ابراهيم الله ربي أرني كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن ، قال بلى و لكن ليطمئن قلبي ، هذا بالضبط ما نفعله ، لأننا كلما بحثنا اندهشنا لقدرة الله اللامحدودة ، و هذا يقودنا الى تسبيح الله القادر العليم و تقديره حق قدره ، نحن نعلم يقينا أن قول الله هو الحق كله و أن ما نتعلمه عن طريق العقل قد يحق و قد يخطيء ، فإن أتى يوم تبين لنا خطأ العلم فلن يأتي يوم الا و تأكد لنا فيه كلام الله الحق ، و ما قد يختلف في شأن هذه هو فهمنا و تفسيرنا للقرآن

نزلنا في مطار باريس حوالي الساعة الثامنة ليلا ، باءت كل محاولاتنا لإقناع محمد بالإقامة معي بالفشل

- لم أعد أحتمل رؤية الخوف في أعين الناس مني أنا المسلم
- لن يحدث هذا ، أنت اليوم من أعز أصدقائي
- لن يكون لوالديك نفس الرأي ، أفضل أن أبيت مع صديقي الطبيب
- لأستغل الوقت في شرح بعض الأمور معه
- يبدوا أن اعتقاله قد خلف عنده بعض الحذر الزائد خاصة و أنه
- شخص يملك عزة نفس كبيرة تجعله يعاني أمام انتقاص بعض الجهلة
- من قدره
- أخبرني محمد ، لما لا تفكر في البقاء في فرنسا ، أنت جراح
- أعصاب ، و الفرنسيون يقدرون الطبيب جدا ، ستكون لك مكانة
- مرموقة في المجتمع ، و ستكون في سعة من أمرك
- لم أعد أطمع لا في مال و لا في مكانة مرموقة ، كل ما أبحث عنه
- هو أن ألقى الله و هو راض عني
- هناك من المرضى في فرنسا كما في العالم ، يمكنك أن تقوم بالكثير
- من الأعمال الخيرية
- الصحة الفرنسية من أحسن الأنظمة الصحية في العالم ، لكن هناك
- في افريقيا و آسيا ، يموت الناس لأسباب تافهة بسبب تدهور السياسة
- الصحية و نقص ان لم أقل انعدام الأطباء
- بعد خروجنا الى باهة المطار رأينا شيخا في السبعين من عمره
- يحمل لافتة عليها اسم الدكتور راهول محمد
- انظر محمد ، الى الشيخ هناك ، هل هذا هو صديقك؟
- نعم انه هو
- اتجه نحوه فاتحا يديه ليحضنه بشدة
- أقدم لك البروفيسور آلان ، عالم أعصاب ، هذا فرانسوا روسو أحد
- الباحثين عن الحقيقة
- أهلا بني ، هل من تقدم في بحثك عن الحقيقة؟

- أحس أن علمي يزداد بمتتالية حسابية ، بينما يزداد جهلي بمتتالية هندسية

نظر الشيخ مبتسما الى راهول

- أنت تحسن اختيار أصدقائك محمد ، كعادتك دوما ، تعال معنا بني سأوصلك في طريقي

ركبت بجانب محمد من الخلف ، و ركب السيد آلان قرب السائق في المقدمة ، قال لي الطبيب :

- هل تعلم ما يميز السيد آلان عن باقي علماء الأعصاب؟ انه يؤمن بوجود الروح

- أنت بهذا تنفره مني ، لا يحبذ العلميين الكلام عن الروح

- لقد أصبحت أحب هذه المواضيع ، لأنني كالصغير الذي يكتشف العالم من حوله

- أخبرني صديقي محمد أنكم تقومون ببحث حول نشأة الكون و نشأة الحياة

- هذا ما كنا نفعله

- ستظنني مجنونا لكني سأخبرك بما أعتقد ، يوم نتمكن من حل لغز خلق العقل الإنساني سنتمكن حينها من معرفة خلق الكون ، فكلاهما خلق بنفس الطريقة

- لا أفهم

- ان خلق المادة في الكون و تحول المادة السوداء الى مادة ملموسة يشبه بشكل رهيب خلق الأفكار و تحولها الى مواد كيميائية في عقل الإنسان

-لا أظن أن مسافة الطريق ستمكنك من شرح هذا الأمر المعقد ، منزلي قريب من هنا سيدي آلان

- تعلم أنك تستطيع الإتصال بي متى شئت ، أنا أحب الشباب المتفتح على العالم

شكرته و شكرت صديقي محمد بعدما عبرت له عن تقديري اللامحدود لكل ما فعله من أجلي ، نزلت من السيارة قريبا من برج ايفل ليبدأ مخي التفكير فيما اجتنبته منذ سمعت الشيخ يحدثني عن أم بيولوجية ، بدأت أفكر في الطريقة المثلى لفتح هذا الموضوع مع والدي ، أحسست بالخوف و بدأ التردد يتدفق الى عقلي ، ربما علي أخذ شعرة من رأس أمي و أقوم بتحليل الذي أن أي ، ربما علي استدراجهما عبر أسئلة عن الماضي ، لم أجد طريقة سهلة لا تسبب القلق لوالدي ، اقتربت من المنزل و لم أتحل بالجرأة لأدخله قبل أن أجد حلا ، جلست على أدراج أحد المحلات المغلقة لأفكر حتى مر آرثر صدفه بجواري

- أهلا آرثر

تفاجأ جدا صديقي لرؤيتي ، عانقتني بشدة ، كانت الفرحة بادية جدا عليه ، سألني

- لم لم تخبرني أنك قدمت؟

- لقد حدث الأمر سريعا و لم أخبر أحدا ، حتى والدي لا يعلمان

- يبدوا أنك لم تدخل الى البيت بعد

- نعم ، أتعلم ؟ كنت أتوقع أن ألقاك بحلة جديدة

- لماذا؟

- توقعت رؤيتك تلبس قميصا و تضع فوق رأسك فلنسوة ، توقعت أن أجدك بلحية طويلة

جلس بجانبني و هو يبتسم

- و لم توقعت هذا ؟

- أنت تعلم لماذا ، أتظنني أجهل أمر إسلامك ؟

- أعلم أنك تعلم ، لم أرد اخبارك بهذا عبر الهاتف ، فالأمر يحتاج شرحا طويلا

- أخبرني بشيء واحد ، من أين حصلت على القرآن؟ ، كيف راودتك فكرة قراءته؟ كل ما سيلي ذلك أستطيع تخيله

- حصلت عليه من عندك ، بعد أن غادرت وجدت في نفسي فراغا رهيبا ، و كان كتابك متاحا ، قرأته صدفة لأشغل نفسي عن التفكير فيما سأفعله بعد مغادرتك

نظرت اليه محتارا

- لم أملك القرآن يوما

- بلى ، ذلك الكتاب الذي أهداك إياه السيد ابراهيم في حفلة توديعك

- لقد كان بحوزتك انن ، لقد طلبت من أمي البحث عنه ، لم تستطع ذلك لأنني كنت جاهلا بماهيته ، كل ما علمته بشأنه هو ما قاله السيد ابراهيم ، كتاب يحتوي على الحقيقة

- هذا أقل ما قد يوصف به..نظر الي منتظرا أن أعقب ، لكنه سألني بعد ثوان..ألن تسألني لما أسلمت؟

- لن أسألك ، أعلم لما أسلمت

- حقا؟ ألن تلومني؟ الن تقلق بشأنني؟

- لن أفعل لأنني أعرفك ، لطالما امتلكت عقلا متزنا

- لم اكن اتوقع هذا ، ظننتك ستقلب الدنيا على رأسي كما فعلت صوفي

- لقد حظيت بفرصة قراءته أنا أيضا ، كل ما كنت أخشاه من هذا الكتاب تبخر لما وجدته فيه من الحكمة

- هل أسلمت بدورك؟

- لا أدري بعد بهذا الشأن ، لقد قرأته و أعجبت به و اطمأننت لما وجدت فيه ، لكنني لست واثقا بعد بشأن اسلامي

- أفهمك ، انه قرار كبير يتطلب تفكيراً عميقاً ، ألا تنوي الدخول الى البيت ؟، والداك مشتاقان جدا لرؤيتك
- قصص قصتي على آرثر الذي بدى عليه التوتر و الدهشة
- هل يمكن لهذا أن يكون حقيقياً؟
- بعد أن جمعت الكثير من الأجوبة ، بدأت أصدق الأمر ، ألا تذكر
- أني لطالما بدوت أكبر من عمري؟
- بلا
- أليس غريباً ألا أمتلك أي صورة قبل سن الثالثة؟
- قالت أمك أن بيتكم تعرض للحرق
- لو كان الأمر حقيقة لما وجدنا صوراً لزفاف أمي و أبي ، و لوجدنا حلقة كاملة مفقودة
- لا أدري ، لكن هذا ليس دليلاً على ما تقول
- أخبرني السيد ابراهيم في أحد الأيام أنني لما سكنت مع أهلي أول مرة في هذا الحي ، كنت أتكلم بعض الكلمات الألمانية و بعض الكلمات العربية
- ربما احتضنتك حاضنة عربية أثناء إقامتكم بألمانيا
- بل ان سبب رحيل والداي الى ألمانيا هو الإختباء من كل من يعرفونهما ، ليتسنى لهما اختراع كذبة الحمل و الوضع
- أيعقل أن تفعل السيدة سارة هذا؟ ، و السيد فيليب؟
- لقد اتصلت بأبي منذ مدة قصيرة سألته ان كان يتعرف على وجه تلك المرأة التي أراها في منامي منذ كنت صغيراً ، ان كانت تشبه احدى حاضناتي ، و قد تردد في الجواب
- نعم ذلك الوجه الذي لم يغادر مخيلتك يوماً ، تلك التي تخبرك أن كل شيء سيكون على ما يرام ، ماذا أخبرك أبوك؟

- انه يعلم أنه كاذب فاشل ، أحالني الى أمي من دون أن يجيبني لا  
سلبا و لا ايجابا  
- هل تعتقد أن صاحبة الوجه هي أمك الحقيقية؟  
فتحت حقيبتي و أخرجت تلك الصورة  
- خذ آرثر ، تفحص هذه الصورة  
أشعل آرثر ضوء هاتفه و وجهه الى الصورة ، تمعن قليلا و قال  
مندهشا

- هذا الرجل الذي يقف في الجانب الأيسر يشبهك جدا  
- أنظر الى المرأة التي تمسك بيده  
- تشبه الوجه الذي ترسمه دائما  
- أظن أنك تعرفت لتوك بوالدي الحقيقيان

استجمعت قواي و دخلت مع آرثر الى البيت و كأن شيئا لم يكن ،  
فرحت أمي كثيرا برويتي و أخذت تقبلي بشدة و كأني طفل صغير ،  
أما أبي فبدا عليه بعض القلق  
- هل من خطب بني ؟ أقصد انها مفاجأة سارة أن أراك ، لكن ألم  
تخبرنا أن اقامتك ستطول؟

- لقد اشتقت اليكم و قررت زيارتكم  
- هذا رائع بني ، أرجوا أن زيارتك ستطول  
- ليس كثيرا ، سأرحل ما أن أحصل على تأشيرة  
- تأشيرة ؟ الى أين؟  
- الى الجزائر

لم أكن أحتاج جهازا لقياس مقدار التوتر البادي على وجه أمي و أبي  
، و بدأ يتلعثمان في الكلام ، تبسمت و نظرت الى آرثر الذي أوما الى

- برأسه و اتجه مباشرة الى غرفتي ، أردت تفويت تلك اللحظة  
المزعجة فمثلت دور الجائع
- اليس هناك طعام لشخص قطع المحيط ليزوركم؟  
- بلى بني ، ما ان تستحم و تغير ثيابك حتى أجهز الطاولة  
التحقت بآرثر في غرفتي لأجده يبكي  
- ما الأمر آرثر ، لماذا تبكي؟  
- لأجلك ، أنا أحسن من يعرف شعورك الآن  
- أنت مخطيء ، أنا لست حزينا ، أشعر بانزعاج شديد لكني لست  
حزينا
- هل تنوي حقا الذهاب الى الجزائر؟  
- نعم ، سأبحث عن أمي الحقيقية ، سأبحث عن هويتي الحقيقية  
تبسم آرثر بحزن شديد و قال  
- لقد رجعت الى سؤالك الأبدي ، من أين جئت؟ أنت رجل شجاع  
فرانسوا ، لأنك اتخذت قرار البحث عن والديك الحقيقيين من دون أن  
تفكر في العواقب ، هذا ما عجزت أنا عن فعله  
- لم يفت الأوان ما دمت حيا  
- أتعلم ، سأتي معك الى الجزائر ، لن أتركك وحدك  
- مستحيل ، لن تفعل  
- تفرج علي و أنا أفعل
- بعد الإستحمام التقينا في المطبخ على طاولة الطعام ، لا يزال التوتر  
باديا على وجه أمي و السكون الزائد على حركات أبي ، وضعت أمي  
بعض الخضار المسلوقة و بعض اللحم الطازج بعد أن أسقطت  
صحنين أو أكثر على الأرض  
- من سيتلوا الصلاة ؟  
ضحك آرثر و قال

- هناك من تعلم الأصول في أمريكا
- اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال
- آمين ، صلاة قصيرة
- لم تجبني آرثر ، لم لا يبدوا عليك الإسلام ، تبدوا نفس الشخص الذي أعرفه
- لا يجبرنا الإسلام على تغيير جلودنا كما يظن البعض ، ما كان حسنا فينا قبل الإسلام يمكن الحفاظ عليه و ما كان سيئا علينا تغييره
- ألا يجبرك على لباس معين؟
- هناك من يقول هذا ، لكني لم أجد هذا الأمر في الكتاب ، ما يأمرنا الله به هو ستر العورة ، لكنه لم يشترط علينا لباسا معيناً ، حتى من قبل أن أقرأ الكتاب لم أكن أحب اللباس العاري
- و لماذا تغطي نساء المسلمين أنفسهن بالكامل
- أمرهن الله بأن يلبسن ما يغطي مفاتهن ، لكنه أيضا لم يفرض عليهن لباسا معيناً
- أليس في هذا احتقار للمرأة ..سألت أمي
- لم أرى أي صورة للعدراء مريم و هي تطلق شعرها و تبرز مفاتنها ، لا بد أنك تدركين هذا سارة و أنت الفنانة و المتدينة ، ثم ان لباس المرأة كان محتشما جدا منذ وجد الإنسان حتى مئة سنة مضت ليس فقط في بلدان المسلمين بل حتى في أوروبا ، أنظر الى أخوات الكنيسة
- ألا يشبه لباسهن لباس المسلمين؟
- قلت:
- لا بد أن يدل هذا على أن مصدر التشريع واحد في كل الديانات السماوية
- و مع مرور الوقت يتجرأ الإنسان على تغيير تعاليم الله ليحولها الى مشتبهاته

- هذا لا يصلح شيئاً.. قالت أُمِّي.. فحسب الإحصائيات ، أفغانستان أكبر دولة تتعرض فيها النساء للتحرش الجنسي رغم أنه لا يظهر من نساءها شيئاً

- يأمر الله النساء و الرجال باللباس الشرعي ، و بغض البصر ، فإن لم يلتزموا بهذا فعليهم وزرهم و ليس على الله ، لن نحاسب الله على أخطاء البشر ، البشر هم الملمومون

- لماذا لا تقول شيئاً أبي؟

- لماذا تنوي الذهاب الى الجزائر؟

- و لم لا أبي؟

- هل هي مهمة عمل؟

- لم أعد أعمل لصالح المخبر ، لقد تم حل الفريق لدواعي أمنية بسبب شكوى كاذبة وجهت لأحد أعضاء البحث

- أيعقل هذا ؟ ما هي التهمة

- تكوين جماعة ارهابية

- ضد من؟

- ضد طبيب هندي مختص في جراحة الأعصاب

قال آرثر:

- ما هذا الهراء ، كيف لطبيب جراح أن يكون ارهابيا ، هل درس كل تلك السنوات ليقتل الناس؟ أول مرة أعرف فيها أن الإرهاب يحتاج التخرج من الجامعة و الحصول على دكتوراه

- لماذا هو بالذات ؟

- لأنه مسلم

- لهذا أخشى عليك بني آرثر ، ان الإسلاموفوبيا تجتاح العالم الغربي

- لم تخبرني فرانسوا ، لم تنوي الذهاب الى الجزائر؟

- انها مهمة شخصية أبي

- ألا تخبرنا بها؟
- لا أريد ازعاجكم
- مهمتنا القلق من أجلك
- سأبحث عن شخص هناك
- من؟
- صاحبة الوجه أمي ، هل هناك ما ستخبراني بشأنها ، لعل هذا سيختصر علي مسافة البحث
- أنزلت أمي نظرها الى الطاولة و الإحباط يملأ حركاتها ، بينما تكلم أبي
- هل تظنها والدتك الحقيقية؟
- صرخت أمي بوجه أبي بأعلى صوتها
- ما الذي تقوله فيليب؟
- لم يأبه أحد لصراخها
- أخبرني أنت أبي
- لا أعلم بني ، لم أتمكن من رؤية وجه أمك الحقيقي في وسط ذلك الظلام ، لكننا نعلم أنها من أصل جزائري
- كيف وصلت اليكم اذن؟
- أرجوا ألا تكون قد فكرت أننا اختطفناك
- كل ما فكرت فيه هو سبب وجيه لعدم اخباري بالحقيقة
- لقد حدث الأمر في اسبانيا قبل ستة و عشرين سنة ، كان قد مضى على زواجي من أمك خمس سنوات ، حاولنا الإنجاب بكل الطرق و لم نفلح في ذلك و بدأت علاقتنا تسوء مع مرور الأيام ، في تلك الصائفة بالذات أردت أخذ أمك في عطلة قبل أن نقرر مصير علاقتنا ، كنا نتجول ليلا بشوارع مدريد لما سمعنا صوت طلقات نارية ، أمرت أمك بالإختباء بأحد الزوايا و اتجهت أنا مسرعا باتجاه الصوت

، كل ما استطعت رؤيته في ذلك الظلام هو تلك السيدة التي وضعتك  
عل الرصيف و أنت ملفوف في إزار أبيض ، كنت مستيقظا ، كنت  
خائفا ، لم تبكي و لم تتكلم بكلمة مع أن سنك آنذاك يقارب الثلاث  
سنوات ، عرفت هذا لأنني لحقت بكما لأراها تقبلك و تقول لك كلاما  
باللغة العربية لم أفهمه ، سألتها ما الخطب ؟ ماذا يحدث؟ فأجابتنني  
باللغة الفرنسية ، اخفه من فضلك ، سيقتلون ان عثروا عليه ، ثم  
اخذت هاربة في الظلام ، حملتك بين ذراعي بعدما خلعت عنك ذلك  
الإزار ، فهمت أن هناك من يلاحقها ، كنت ترتعش و تقول ماما ،  
بعد ثوان قليلة مرت سيارة سوداء بجانبني ، لمحت شخصان مسلحان  
يجلسان في المقعد الخلفي بعدما خففوا من السرعة ليتأكدوا من أنني  
لست تلك المرأة التي يبحثان عنها ، بعد ابتعاد السيارة جريت بك الى  
سارة و أخبرتها بالأمر

- قلت له أن علينا اخفاءك أولا ، ثم البحث عن أمك

- رجعت سارة بك الى باريس في اليوم الآتي ، و بقيت أنا في مدريد  
أبحث عن أمك و أقرأ الجرائد لعلني أقرأ خبر اغتيال أو خبر اختطاف  
أو أي شيء قد يدلنا على أمك لكن من دون جدوى ، بعد شهر من هذا  
كان علي الرجوع الى باريس

- بعد رجوعه ألح علي أن نقدمك للشرطة لكنني رفضت لأن أمك  
طلبت منه اخفاءك خوفا من أن يجداك هؤلاء القتلة

- أنا من قرر الإحتفاظ بك و تسجيلك على أنك ابننا لما رأيته من  
السعادة البادية على سارة و هي تهتم بك ، و لتجنب أسئلة الفضوليين  
و لإخفائك بطريقة تستحيل على هؤلاء المجرمين ايجادك قررنا  
الذهاب الى ألمانيا لمدة من الزمن تمكننا من الرجوع الى فرنسا و  
الإدعاء أن سارة ولدتك بألمانيا ، و كنا ندعي أنك تبدا أكبر من سنك  
، أنت أكبر من سنك بحوالي ثلاث سنوات

- كيف عرفت حينها أني جزائري  
- لوجود قفل في منزرك يحمل العلم الجزائري ، مازلت أحتفظ به في  
مكتبي  
سألتني أمي :

- منذ متى و أنت تعلم الحقيقة ؟ من اين لك بها؟  
- لا يمكن اخفاء الحقيقة الى الأبد أمي ، لقد أخطأتم بهذا ، أنا لا أريد  
لومكما لأن ما فعلتماه من أجلي ليس بالهين ، لقد ربيتما و سهرتما  
من أجلي و حميتما و أنا أقدر ذلك ، لكن و في مرحلة ما كان لا بد  
من مصارحتي

- هذا ما كنا ننوي فعله ، لكن كلما هممنا بذلك خشينا عليك أكثر  
-كيف وصلت للحقيقة بني؟

اخرجت الصورة من جيبي و أعطيتها لأمي  
- هذان أبي و أمي و بعض أصدقائهما ، ربما قبل ولادتي بحوالي  
أربع سنوات ، ذاك الشيخ الضخم رجل استخبارات أمريكي ، لقد  
التقيته صدفة في أمريكا ، رجل فطن جدا ، لقد تفتن الى الشبه الكبير  
بيني و بين أبي البيولوجي الى درجة أنه ظنني ولده من أول لقاء لي  
معه ، بعد أن نفيت ذلك قام الشيخ بما يتقنه و اتصل ببعض معارفه و  
قام ببحث عن صديقه القديم السيد عمار بن باديس و عن زوجته  
فتيحة ليعرف أن عمار قتل في قسنطينة برصاصة غادر ابان الحرب  
الأهلية في الجزائر ، بينما هربت زوجته مع ابنها الى مدريد ليلحق  
بهم بعض رجال العسكر هناك ، كانت هذه نهاية الخيط ، هناك اختفى  
أثر أمي البيولوجية و أثري ، تردد الشيخ في اخباري بشكوكه الى أن  
رأى صورة رسمتها لتلك المرأة و تأكد من الأمر ليخبرني في الليلة  
نفسها عن القصة بأكملها

- و لهذا اتصلت بي في ذلك اليوم تسألني ان كنت قد رأيت ذلك الوجه من قبل؟
- لا ، كان ذلك عقب الكلام مع أحد الدارسات لعلم النفس ، لقد سألتني ان كنت طفلا متبنى ، أحببتها بالنفي ، فأخبرتني أنه لا بد من وجود حقيقي لتلك المرأة في حياتي
- ماذا ستفعل الآن بني؟ هل ستقطع علاقتك بنا الى الأبد؟
- لن أفعل هذا أبدا أُمي ، ستظلان أُمي و أبي ، و سيظل آرثر أخي و صوفي صديقتي ، سنبقى عائلة مهما حدث
- أنا أخشى عليك بني ، أرجوك لا تذهب هناك
- سأذهب معه سارة ، لن أتركه وحده
- سأخشى على كليكما
- توقي سارة ، انهما بالغان ، لقد حان الوقت ليقرر ا

مطار محمد بو ضياف بقسنطينة ، الحر لا يطاق ، يقوم جيمي بافراغ قنينة الماء على رأسه ليحصل على بعض الإنتعاش ، بينما توجهت أنا الى مرحاض الرجال لأرثس جسمي كله بالماء ، عدلت عن الفكرة لشدة رائحة النشادر في المكان ، أوقفنا سيارة أجرة أو بالأحرى اختطفنا أحد سائقي سيارات الطاكسي الذي ظل يسألنا ان كنا نريد تحويل بعض العملة

- ستخسرون بتحويل الأورو الى الدينار الجزائري في البنك ، الأفضل لكم أن تحلوه خارج البنك ، سأعطيكما سعرا جيدا ان أردتما غمزت لأرثر بعيني كي لا يثق في السائق ، و لكني مع ذلك كنت بحاجة لبعض العملة المحلية

- لا نعمل الا مبلغا بسيطا ان أردت  
- كم؟

- ورقة مئة أورو

- حسنا و لم لا ، سأعطيكما خمسة عشر ألف دينارا بالمقابل ، ألف دينار هو ثمن الرحلة الى وسط المدينة حيث النزل و يبقى لكما عندي أربعة عشر ألف دينار

- هل فندق إيبيس بعيد من هنا؟

- ليس كثيرا ، لكن الطريق وسط المدينة مكتظ دائما بعد أن ثبتنا حجزنا و وضعنا أمتعتنا في الغرفة ، خرجنا نتمشى أنا و آرثر لنتعرف على المدينة التي قد نقضي بها وقتا طويلا  
- بل قد نقضي بها عمرا كاملا ..عقب آرثر  
- و لم تظن ذلك؟

- انها قضية مخابرات ، علينا الحذر الشديد

- للسيد ثيودور بعض الأصدقاء ممن يثق فيهم

- زمن هذا الشيخ بعيد من زمنك فرانسوا ، الناس يتغيرون

- معك حق ، علينا بالحدز

أعجبت جدا بطبيعة تلك المدينة الساحرة ، لم أرى من قبل مدينة مبنية فوق الصخور الشامخة ، تفصل بين تلالها فراغات عميقة ، تربط بين ضفافها جسور معلقة ، لم أتحمّل النظر الى القاع لأن ذلك يصيبني بالدوار ، تعجبت لبنايات كثيرة و شوارع ضيقة تشبه الى حد كبير بنايات باريس القديمة ، المسرح الجهوي ، مركز البريد ، بعض الفنادق القديمة ، الثكنة ، بعض الإدارات ، قلت لآرثر

- لا تزال آثار فرنسا في هذه المدينة

- مدينة رائعة لكن تنقصها النظافة ، و ينقصها النظام ، أنظر الى حال الطرقات المهترئة ، انظر الى الأوساخ التي تعم المكان ، انظر الى السيارات التي تحتل الأرصفة و الى المشاة الذين يزاحمون السيارات على الطرقات

- كنت أظن أنني سأرى الناس يلبسون ألبسة عربية و أقمصة لكني لا أكاد أرى ذلك الا قليلا ، انهم يلبسون كما نلبس ، النساء متبرجات ، و الشباب يلبسون سراويل قصيرة

- حقا لم أكن لأحزر هذا ، لو رأيت هذا عبر صورة فوتوغرافية لظننت القليل ممن يلبسون لباسا عربيا مجرد سياح في بلد أجنبي مررنا قرب مسجد يتوسط المدينة أثناء النداء للصلاة فاستأذنتني آرثر للصلاة فيه

- طبعا ، سأنتظر في هذا المقهى المقابل ، جلست على كرسي شاغر في طاولة بها ثلاث شباب يتحدثون بحماس ، لم أفهم ما يقولون لكني فهمت أن موضوعهم له علاقة بأوروبا و فرنسا ، استرقت السمع قليلا ففهمت أنهم يدبرون لهجرة غير شرعية ، كلامهم به الكثير من الألفاظ الفرنسية و لو كانت خاطئة ، ظننتهم لم ينتبهوا لوجودي الى أن سمعت كلمة مهاجر ، فهمت أنهم يتكلمون عني ، انهم يظنونني

- جزائريا قاطنا بفرنسا ، لم يخطؤوا كثيرا ، قليلا من الكلام عني ثم  
سألني أحدهم بالعربية  
- عفوا ، أنا لا أتكلم العربية  
- هل أنت مهاجر ؟ سألني بلغة خاطئة  
- لا أنا فرنسي  
استدار ثلاثتهم باهتمام زائد أزعجني بعض الشيء  
- هل تعمل بالمركز الثقافي الفرنسي المقابل للمقهى؟  
أقيت بنظري الى الجهة المقابلة لأفهم عما يتكلم  
- لا ، أنا مجرد سائح  
بعد قهقهة لم أفهم سببها سألني أحدهم  
- ألم تجد غير الجزائر لتزورها ؟ تركت تونس بكل فنادقها الفخمة و  
خدماتها التي لا تنافس بأسعار تافهة بالنسبة لكم ، و أتيت الى  
الجزائر؟  
- أنا هنا منذ وقت قصير و قد أعجبت بجمال هذه المدينة الرائعة ، لم  
تظنون أن بلادكم ليست جميلة؟  
- اتعلم فيما كنا نتكلم الآن؟ كنا نخطط للهجرة  
- و لم تهجروا؟  
- لننقذ أنفسنا من الاضمحلال و الانحلال  
- عفوا ، لكن لما تظنون أنكم تتحللون ، أنتم أحياء و في قمة الشباب  
لم تضحلون؟  
- لأن شبابنا يضيع من دون أن نفعل به شيئا ، الموتى أحسن حالا منا  
، على الأقل هم لا يستهلكون شيئا و لا يزعجون أحدا ، أما نحن  
فمازلنا ننتظر من آبائنا مصروف اليوم ، و مازالت أمهاتنا تقلقن  
علينا، أنظر الينا ، أنا متخرج من الجامعة و أحمل شهادة ماستر في  
علم الاجتماع ، صديقي هذا يحمل شهادة ماستر في البيولوجيا ،

صديقنا هذا و هو أكبرنا سنا يحمل شهادة مهندس في البرمجة المعلوماتية ، لا أحد منا متزوج ، لا أحد منا يملك سيارة ، لا أحد منا يملك بيتا ، أتعرف ماذا نملك ؟ هذا اللباس الذي نرتديه و علبة السجائر التي نقتسمها

- و لم لا تعملون لحسابكم الخاص ؟ لم لا تقومون باستثمار مشترك بينكم؟

- لقد جربنا هذا من قبل ، عدة مرات ، افتتحنا تجارة صغيرة بعدما استلفنا بعض المال من أهلنا فأئتت الشرطة و صادرت كل شيء بحجة التجارة الغير شرعية ، قررنا بعدها كراء محل صغير و قمنا بفتح سجل تجاري بعد أشواط مراطونية بسبب البيروقراطية فتم تغريمنا حتى الإفلاس لأن المراقبين يبحثون عن الرشوة ، كنا لنعطيهم اياها مرغمين غير أننا لم نكن نملك شيئا ، تضاعفت الغرامات بسبب عدم تسديدهم لنجد أنفسنا في القضاء ، عملنا لحساب الخواص فأكلوا حقوقنا ، اشتكىنا لمفتشيات العمل فضحكوا لسذاجتنا

- لا أدري ما أقول لكم ،أنتم أعلم بالأوضاع هنا ، لكنني أحذركم الى أن أوربا ليست الجنة التي تحلمون بها ، هذا ان استطعتم اجتياز البحر ، أنا أعلم منكم بوضع المهاجرين الغير شرعيين في أوربا ، ما قيمة الحياة على هذا النحو ؟، حتى أهلينا ضاقوا ذرعا بنا ، سنجرب حظنا ، ربما سنتزوج عجوزا هناك من أجل الحصول على الوثائق

- لم تعد هذه الحيلة مجدية ، لا بد من وجود حل ما ، اليأس هو ما يوجهكم الى هذا الخيار المستحيل

في هذه الأثناء رجع آرثر و هو حافي القدمين ، ضحكت جدا لمنظره و سألته :

- أين حذائك؟

- لا أعرف ، لم أجده ، لعل أحدهم أخذه خطأ  
قال أحدهم و هو يضحك
- واضح أنه يومكم الأول و قد رحب بكم كما يجب ، أول درس عليك تعلمه هو ألا تذهب الى المسجد بحذاء جديد ، الا ان كنت تقصد ضياعه
- هل تقصد أنه سرق؟
- بكل تأكيد
- في بيت الرب؟
- حتى المصاحف تسرق من بيت الله ، عليك أن تنتبه أن هناك من لا يخاف الله
- من يتجرأ على فعل هذا؟، كنت أظن أنكم جميعا مسلمون
- نعم ، نحن كلنا مسلمون
- ألا تؤمنون أن السرقة حرام ، و من بيت الله؟
- بلى نؤمن ، اسمع صديقي ، في البلاد العربية عموما ، الكل يؤمن بالله ، و يسبونهم ، و يؤمنون بتعاليمه و يعصونه ، تجد الرجل يصلي في النهار و يخمر في الليل ، يحجب زوجته و يزني بينات الناس ، يأمر بالمعروف و يفعل المناكر ، هذا حال العرب
- ماذا سأفعل ، هل أبلغ الشرطة؟
- من أجل الحذاء؟ لا تفعل ستعرض نفسك للسخرية ، انتظرني هنا ، انا ابن هذه المنطقة و أعرف كل اللصوص في حي القديس جون ، سأتيك بحذائك
- انصرف الشاب و بقي الإثنين ، قال أحدهما:
- هل تشربا شيئا؟
- أي شيء غير كحولي
- اتجه الى البراد و أتانا بقارورتان كوكا كولا باردة

- تفضلا

- شكرا ، انها حلوة جدا ، هذه ليست كوكا كولا

- بلى انها كذلك ، لكنها جزائرية

- المفروض أن تكون للماركة الواحدة طعم واحد

- أمامكم الكثير لتعلمه

- قل لي ، أتعرف عائلة باسم ابن باديس في هذه المدينة

- طبعا ، انها من رموز قسنطينة ، ان قسنطينة تدعى بمدينة العلم و

العلماء ، لأن الشيخ عبد الحميد بن باديس منشئ جمعية العلماء

المسلمين هو من ابناء المدينة ، و يوم العلم مؤرخ بتاريخ وفاته ، لقد

حارب الشيخ الجهل في فترة الإستعمار ، فتح أعين الناس الذين قادهم

الجهل الى عبادة القبور و الى التسليم بالوضع الكارثي في تلك الفترة

، ابن باديس اسم كبير له وزنه في هذه المدينة ، لكن هذا لا يعني أنني

أعرف الشخص الذي تبحث عنه، فالعائلة كبيرة جدا ، و تتوزع على

كامل الولاية

- حسنا ، شكرا لك

دقائق مضت حتى رجع الشاب و بيده حذاء آرثر

- شكرا لك صديقي ، أرجوا ألا تكون عرضت نفسك للمشاكل

- لا تقلق ، لقد كان مجرد مراهق ، ليس بالأمر الكبير

- كيف أشكرك؟ ..و هم آرثر باستخراج ورقة مالية ليكافئه بها ، لكن

الشاب رفض رفضا قاطعا

- هذا واجبي سيدي ، أنتم مرحب بكم لكن عليكم الحذر في التعامل

مع الناس ، أكثر سكان هذه البلاد طيبون لكن هناك من قد يستغل

براءتكم و جهلكم بتفاصيل المدينة ، ان احتجتم لأي شئ اسألوا

عني بهذا الحي ، ادعى الزبير ، هذا ميلود و هذا خالد ،

- أنا فرانسوا و هذا صديقي آرثر ، لنا كل الشرف

دخلنا غرفة الفندق مرهقين ، استحممنا ، تناولنا العشاء و عدنا الى  
الغرفة

- ماهي الخطوة التالية آرثر

- لا بد أن تعلم صديقك في الولايات المتحدة بوصولك الى الجزائر ،  
لا بد لنا من ايجاد صديق لنا على هذه الأرض ليساعدنا ، لن نستطيع

الصمود طويلا هنا ، البقاء في الفندق سيفلسنا

- سأفعل الآن ، سأتصل به في الحال

بعد أن أخبرت الجد ثيودور بالأمر ، طلب مني بضع دقائق ليتصل  
بمعارفه ، بعد نصف ساعة بالتمام رن هاتفي

- سيوافيك رجل يدعى رابح غدا حوالي الساعة التاسعة ، سيساعدك  
في بحثك

- شكرا جد ثيودور

- ابقني على اطلاع

- لم أستطع النوم و أنا أفكر في المرأة ، في أمي ، هل هي حية ؟  
كيف ستبدوا بعد ست و عشرين سنة؟ ، هل ستتذكرني؟ هل سأكون

على ما يرام في هذه البلاد ؟

في الثامنة صباحا كنت مستعدا تماما ، جلست في مقهى الفندق أنتظر  
آرثر ، من دون استئذان جلس رجل أربعيني يلبس سروال جينز مع

حذاء رياضي و قبعة تحمل رمز فريق نيويورك لفريق كرة السلة  
قربي ، نظر الي و كأنه شرطي أو محقق و قال :

- أنت فرانسوا؟

- لا بد أنك السيد رابع
- نعم ، أنا من الأمن العسكري
- خفق قلبي عند سماع هذا ، كنت لأرتعب لولا لحاق آرثر في الوقت المناسب
- هذا أخي آرثر ، هل ستساعدني في العثور على السيدة فتيحة بن باديس؟
- هذا ما أمرت به ، اسمعني ، لقد تحققت من أن بيتهما لم يسكن منذ سنوات طويلة ، تحققت من بيوت اخوة عمار و اخوة فتيحة من دون العثور على أدنى أثر لفتيحة ، لكني أصارحك أنني قمت بالبحث من دون سؤال أي من أقربائهما ، لا أدري مستوى المعلومات لديك لكني أفضل التريث في بحثنا
- لا بد من أن اخوة فتيحة يعلمون مكانها
- لكن لن نستطيع سؤالهم مباشرة ، لا بد من تعقبهم
- ألم يسبق للمخابرات تعقبهم؟ لقد تعقبوها من قبل في مدريد ، لما عجزتم عن تعقبها هنا؟
- بل فعلنا ، لكن يبدو أن اخوتها قد قطعوا كل علاقة بها لحمايتها ، لقد وجدنا دليلا على رجوعها الى أرض الوطن ، لكننا لم نفلح في العثور عليها ، اخوتها أنكروا أي خبر عنها
- يمكنك التكلم بحرية ، أنا أعلم أنكم تتعقبونها من أجل العثور على الملف المتعلق بالقنبلة الذرية
- يبدو أنك تملك مصدرا معلوماتيا لا بأس به ، سأخبرك أمرا مهما ، العثور على أمك أمر لن يعجزنا ، لكن اخفاؤها مرة أخرى هو ما أخشاه
- لن يتم اخفاؤها مرة أخرى ، هي لا تملك الملف المزعوم بكل بساطة ، انها مجرد أرملة عجوز لا حول لها ولا قوة

- في هذه الحالة سيستحيل اخفاء ابنها الشاب ، لأنهم سيشكون في امتلاكه للملف و لن يتركوه يذهب بكل بساطة
- أنا لا أملك شيئاً لأي أحد ، لقد عرفت بأمرها منذ أسبوع
- و مع ذلك تعلم الكثير عن هذه القضية
- من هؤلاء الذين يبحثون عن هذا الملف الملعون
- المخابرات
- أنت من المخابرات
- لنقل إني أحد الصالحين ، من نفس صف والدك مع أنني لم ألتقه يوماً
- ما العمل الآن؟
- ماذا تقترح؟
- خذني الى أكبر أخواتها ، هل هذا ممكن؟
- طبعاً ، انه يسكن قريباً من هنا ، مسافة نصف ساعة ، أكملنا فطوركما و لننطلق

- توقفت السيارة بحي شعبي يعج بالناس ، أخبرني رابح أن ذلك الباب الحديدي الأزرق هو بيت خالي و انه يدعى عبد القادر ، رافقني آرثر و هو يحاول قول شيء ، ابتعدنا عدة أمتار ليوقفني آرثر:
- أنا لست مطمئناً لهذا الرجل
- ليس لدي خيار ، لا أظن أن أمي تملك هذا الملف
- أنا أيضاً لا أظن ذلك ، لكنني لست متأكداً من أن هذا سيجعلهم يتراجعون بهذه البساطة ، لا بد من أن أمك امرأة مسنة الآن ، لا أدري ان كانت ستتحمل هذه المغامرات
- ان كنت لا تقترح مخرجا آخر فدعني أمضي
- أقترح أن لا تخبره بما سيجري بينك و بين خالك
- حسناً

طرقت الباب الحديدي بقطعة نقود كانت بجيبي ، ففتح رجل عشريني  
الباب

- هل هذا منزل عبد القادر؟

- نعم ، من أنت؟

- أريد أن أكلمه بأمر مهم

- ألا تتكلم العربية؟ سألني بلغة رديئة

- لا

تكلم بالعربية التي لم أتقنها بعد ، لكنني فهمت من حركة يديه أنه  
يسألني لماذا

- أنا أريده بأمر مهم

طلب مني الإنتظار ، ثم عاد بعد دقيقة و أدخلنا الى البيت ، كان منزلا  
متواضعا جدا ، يحتاج الى طلاء و الى ترتيب ، طلب مني الإنتظار  
بغرفة ينقصها بعض الضوء لتكون أريح ، بعد لحظات دخل علينا  
شيخ مسن ، عيناه تشبها عينا أمي كثيرا ، بلحية بيضاء ، يبدوا أنه  
مريض و يتحرك بصعوبة ، اقترب مني و هو يحاول التمعن بوجهينا  
، صافحنا و جلس على أريكة قديمة

- من أنتم؟

- أنا ابن هذه السيدة في الصورة ..و أعطيته اياها

نادى الشيخ ابنه ليحظر نظاراته و سألني بفرنسية صحيحة في مدة  
الإنتظار

- من أين أنتم؟

- من فرنسا

- لقد كبرت على هذه اللعبة بني ، لن أحزر سبب قدومكما ان لم  
تخبراني

..أمسك النظارة و وضعها على عينيه بينما بقي ابنه واقفا الى جنبه  
محاو لا فهم ما يحدث ، بعد لحظات من التمعن استرسل الرجل بالكلام  
- من حسن الحظ أن لا أحد ببتي يتقن الفرنسية و الا لما تمكنا من  
الكلام بحرية ، أنظر الى الستار هناك و هناك أترى كل هذه أعين  
الفضولية؟

ارتحنا لروحه المرحه ، نظر الى ابنه الواقف الى يمينه و أمره  
بالإنصراف  
- أتعلم ما عانيته لإخفائها؟ ، و تريد بكل بساطة أن أدلك على مكانها  
؟

تحمست جدا و قلت:

- هذا يعني أنها حية

- لا أدري لكم من الوقت ستبقى حية ، انها مريضة جدا ، تعاني من  
قصور كلوي حاد ، اقترب مني بني أريد رؤية وجهك  
تمعن قليلا و هو يضع نظاراته المكبرة ثم طلب مني الجلوس ثانية  
- من صديقك؟

- هذا أخي آرثر

- و أنت ما اسمك؟

- فرانسوا

- ما قصتك؟

- اذا اختصرت ما فهمته من قصص ، يمكنني القول ان أمي فقدتني  
في مدريد منذ ستة و عشرون سنة ، أظن انها كانت مهددة  
- أنت تشبه أبائك جدا ، حتى صوتك يشبه صوته ..سكت بضع ثوان و  
قال: لم أكن أعلم أن الهرم يعجز صاحبه عن البكاء ، تعال بني ،  
اجلس بجانبني ، أرجوا أن تكون حذرا ، احفظ العنوان من دون أن  
تدونه ، اذهب الى حي بالوزداد المعروف بحي القديس جون

- أظنني أعرفه

- جيد ، ابحت عن دكان عمي الطاهر ، قل له ان خالي عبد القادر  
يطلب منك أخذي الى خالتي رحمة ، أتعلم من هي خالتي رحمة؟  
لا

- انها أمك ، لقد احترقت لفراقك ، لقد بحثت عنك كثيرا حتى أقعدها  
المرض

أسقط الشيخ دمعة من عينه و قال

- أستطيع الآن الموت و أنا مرتاح ، كنت لأحضنك لولا أنني لا أؤمن  
عليها أحد ، امضي أحمد بني وفقك الله

خرجنا و نحن نتظاهر بالخيبة ، ركبنا السيارة و طلبت من رابع الإقلاق

- ماذا حدث؟

- أخبرنا أنه لم يرها منذ سنوات طويلة

- ماذا تقترح؟

- رؤية اخوتها الآخرين

- فلننطلق

قال آرثر:

- ألا يمكننا ترك الأمر الى الغد؟ لا أشعر أني بخير

- ما بك آرثر؟

- أظني أعاني من تسمم ، علي الرجوع الى الفندق ، يوم واحد لن يغير من الأمر شي

- حسنا ، سأوصلك الى الفندق و أواصل البحث رفقة فرانسوا

- لن أتركه وحده ، سننزل معا و نواصل بحثنا غدا

- أعتقدان أنني متفرغ لكما ؟ لن أستطيع القدوم غدا

- لم لا تزودنا بالتعليمات عبر الهاتف؟ ، سنتدبر أمرنا

صعدنا الى غرفتنا متلهفين للتخلص من رجل المخابرات ، اتفقنا أنا و

آرثر أننا سنعتبر نفسينا ملاحقين و نأخذ بكل تدابير الحيطة الممكنة ،

انتظرنا أطول ثلاثين دقيقة في حياتنا ثم انطلقنا نحو حي القديس جون

- علينا أن نشترى قبعتان للتخفي

- حسنا ثم ماذا؟

- اتبعني

اشترينا القبعتان بعشرة أورو ، لم أكرث ان كان الرجل قد أخذ أكثر

من حقه ، و اتجهنا الى المقهى ، سألت الساقى عن الزبير فأخبرني

- أنه غادر منذ قليل ، رجوته لكي يتصل به ان كان ذلك ممكنا ، ففعل ذلك بصدر رحب ، جلسنا ننتظره و نحن ننظر الى الساعة
- أهلا بالفرنسيان
- أهلا زبير ، أرجوا أن تعذرنا على ازعاجك لكننا بحاجة ماسة الى المساعدة
- جلس الزبير و قال :
- ما الأمر؟
- ليس لدينا وقت كثير ، سيشرح لك آرثر الأمر بعد قليل ، لكن حتى ذلك الحين أريد منك شيئين الأول هو أن تعيرني ثيابك؟
- و أبقى أنا عاريا؟
- لا سأعطيك ثيابي ، انها عملية تمويه ، أريد تضليل أحدهم نظر الى ثيابي و قال:
- تبدووا صفقة رابحة ، و الطلب الثاني؟
- هل تعرف صاحب دكان يدعى العم الطاهر؟
- نعم ، انه البقال الموجود بالزاوية عند نهاية الطريق ، يبدو أن المتاعب تلاحقكم ، تعال سنغير ثيابنا بالمرحاض بعد أن رجعنا سألني آرثر
- هل آتي معك؟
- لا ، أخرج رفقة الزبير و هو يلبس ثيابي ، ان كان هناك من يتبعنا سيكمل دربه و راءكم ، و سأتم أنا الأمر لوحدي
- خطة جيدة
- بعد خمس دقائق من خروج آرثر و الزبير اتجهت أنا الى الدكان بالزاوية حيث وجدت شيئا كبيرا
- السلام عليكم عمي الطاهر
- و عليكم السلام بني

- لقد بعثني عمي عبد القادر من أجل خالتي رحمة
- لقد تطور الشيخ ، انه يستعين بالأجانب ، خالتك رحمة تسكن في هذه العمارة المقابلة بالطابق الأرضي بالباب المتواجد على اليمين ، لكنك لن تجدها الآن
- ولم لا
- المسكينة ، انها مريضة جدا ، لقد أخذتها سيارة الإسعاف هذا الصباح الى المستشفى
- أي مستشفى؟
- مستشفى أمراض الكلى
- هل هو بعيد من هنا؟
- بحي الدقسي ، ليس بعيدا لكن عليك أخذ تاكسي للوصول
- حملت هاتفني و اتصلت بآرثر
- ارجع بسرعة انها بالمستشفى
- ركبنا تاكسي و معنا الزبير ، دخلنا مستشفى الدقسي ، اندهشت لكل تلك الفوضى ، لو لم يكن الزبير مهنا لما تمكنا من معرفة ما يتوجب فعله ، لا استقبال و لا توجيه ، اتصل الزبير بأحد معارفه هناك و سأله أين قد يجد مريضة قدموا بها عن طريق سيارة اسعاف ، سأله مكلمه عن اسمها ، سألني الزبير بدوره فأجبته رحمة
- خالتي رحمة؟
- هل تعرفها؟
- طبعا أعرفها ، انها بمثابة أمتنا جميعا..ثم رفع السماعه قائلا: انها خالتي رحمة
- أخذني الزبير من يدي و طار بي في عجلة الى الطابق الأول
- لا بد و أن فاطمة معها
- من فاطمة

- انها ابنتها

- هل لها ابنة؟

- ليست ابنتها الحقيقية ، لقد ربته منذ صغرها بعد أن توفى عنها أبوها و أمها في حادث سير

بينما تجري مسرعين سمعنا صوتا ملائكيا وراءنا ينادي : زبير زبير ، استدار زبير ناحية الصوت و قال فاطمة أين خالتي رحمة ، نظرت الى تلك الملاك صاحبة الشعر الأسود المجعد الطويل و هي تجري ناحية الزبير و الدموع تملأ عينيها و تكلمه باللغة العربية ، لم استطع الإنتظار أكثر

- ماذا هناك زبير؟ أين هي؟

- تقول فاطمة انها بحالة حرجة

- سألتني الملاك :

- من تكون؟

- أنا أحمد ابنها ، أين هي الآن؟

تجمد الشابان في مكانهما و نظرهما تملأه الدهشة ، سألتني فاطمة

- أنت حي اذا؟، ادخل انها تنتظر قدومك منذ سنين طويلة

دخلت رغما عن الممرضين الذين حاولوا منعي لأجد جسمها المهترئ ممدودا على الطاولة ، محاطا بالكثير من أصحاب المآزر البيض ، بجانبها آلة تصفية الدم ، وقفت عند رأسها بعدما أزحت أحدهم و قلت :

- أمي ، لقد جنئت ، أنا هنا ، أرجوك أن تقاومي من أجلي

فتحت عيناها و هي تنظر الي عاجزة عن الكلام ، شارباها يرتعشان و الدمع ينزل من عينيها ، قربت وجهي من وجهها لأسمع ماذا تقول

- لا تخف بني ، كل شيء سيكون على ما يرام

- ابعديني أحد الأطباء قائلا :

- دعنا نقوم بعملنا ، نحن نحاول انقاذها

رجعت بضع خطوات الى الوراء و أنا أنظر اليها و لا أعلم ان كنت سأراها ثانية ، نظرت الى نافذة الباب و رأيت آرثر يراقبني من الباب ، و بجانبه رجل المخابرات ، نظرت عبر النافذة المطلة على الشارع و أنا أعلم أن فصل الشقاء بصدد البدء ، أخرجت دفتر يومياتي و أضفت ما حدث معي اليوم ، و كتبت في آخره

# الهوية لا تخفى ، قد يخدعوننا بشأنها ، قد يخبئونها حتى نظن أنها لم تكن يوما ، لكن حين يأذن عالم الأسرار بإفشائها سيعلم كل الناس بشأنها ، و سيلبسونها ، و سيموتون من أجلها... أرجو أن تخرج هذه المخطوطة الى الناس ليعرفوا الحقيقة#

## المراجع

1. العلم و دليل التصميم في الكون :د. مايكل بيهي ، د.ويليام ديمبكسي، د.ستيفن ماير
2. موجز تاريخ الزمن : بروفييسور ستيفن هوكينج
3. كيف بدأ الخلق: د.عمر و شريف
4. فلسطين غصبة و كذبة : د.عدنان ابراهيم
5. أبي آدم : د.عبد الصبور شاهين
6. الحياة : د.مصطفى محمود
7. علم تطوير الدماغ : بروفييسور جو ديسبنزا

## الفهرس

3.....	اهداء
5.....	السؤال
9.....	فرنسا
40 .....	أمريكا
106.....	بداية خلق الكون
162.....	المفاجأة
181.....	الخلوة
208.....	الجزائر
246.....	المراجع
247.....	الفهرس